المبحث الثاني
الدروس والعبر المستفادة من غزوة بني النضير
المطلب الأول
الدروس العقائدية

١ ـ إثبات معيَّة الله ﷻ لرسوله ﷺ:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تآمر اليهود ـ عليهم اللعنة وأظفرنا الله بهم وأظهرنا عليهم ـ أكثر من مرة على حياة رسول الله ﷺ، وفي كل مرة ينجيه الله ـ تبارك وتعالى ـ من مكرهم وتآمرهم.

تأمل معي كيف ينزل الله ـ تبارك وتعالى ـ جبريل ليخبر رسوله محمدًا ﷺ بما اتفق عليه يهود بني النضير سرًّا من إلقاء الحجر على رأسه وقتله، فيقوم من فوره ولتوه مغادرًا يهود بني النضير دون أن يحدِّثهم بشيء.

إن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على عناية الله برسوله ﷺ وهو الذي تعهد بحفظه وحمايته حتى يبلغ رسالة ربه، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧١].

ويقول د/ الزيد: «إن في قصة بني النضير الذين أرادوا قتل الرسول ﷺ ومجيء الخبر بالوحي من السماء يعلم الرسول ﷺ بذلك، آية للرسول ﷺ من ضمن الآيات التي أيد بها الرسول ﷺ وهي أيضًا مصداق لقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]». [فقه السيرة للزيد ٣٥٨].

٢ ـ إثبات النبوة للنبي محمد ﷺ:

يقول د/ البوطي: «الخبر الذي جاء من الله تعالى إلى رسوله ﷺ بكشف ما بيته اليهود من الغدر به ﷺ، تُعد واحدة من الخوارق الكثيرة التي أكرم الله بها نبيه ﷺ قبل بعثته وأثنائها، وهى مما ينبغي أن يسترعي انتباهنا ليحملنا على مزيد من الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ، والاقتناع بأن شخصيته النبوية تعتبر الأساس الأول لوجوده وصفاته الشخصية الأخرى.

وقد عبَّر بعض الكاتبين في السيرة وفقهها عن هذا الخبر الإلهي الذي نزل على الرسول ﷺ بفضح نوايا اليهود ـ عبر عن ذلك بأنه أُلهم ما بيته اليهود له! وكلمة الإلهام تدل على معنى مشترك للناس كلهم، فحاسة الإلهام ـ عن طريق الإشارات والقرائن ـ حاسة طبيعية لا تختص بها فئة من الناس دون غيرهم، وكلمة (الخبر الإلهي) كما يستعملها علماء السيرة ـ رحمهم الله تعالى ـ إنما تدل على معنى هو من سمات النبوة وخصوصياتها، ونحن نعلم أن هذا المعنى دون غيره هو الذي جعل النبي ﷺ يحس بالمكر، فهو الوفاء من الله تعالى بوعده القاطع لرسوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾[المائدة].

وإذا كان الأمر كذلك، ففيم التمويه في التعبير؟... أَمَا إن هذا ليس إلا مظهرًا من مظاهر إنكار معجزاته ﷺ، وقد علمت فيما مضى أن مصدر إنكار المعجزات للرسول ﷺ ـ بعد ثبوتها بالقطع المتواتر ـ ليس إلا ضعفًا في الإيمان بنبوته ﷺ». [فقه السيرة للبوطي ٢٠٤].

ويقول د/ فيض الله: «وقد صرحت كتب السيرة هنا القديمة والحديثة، بأن الله تعالى أوحى إلى نبيه، بما تآمر به اليهود، فيقول ابن هشام: «فأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم...».

ولا شك أنه ﷺ كان يتمتع ببصيرة نافذة، وفراسة صادقة، لكن رسالته لم تعتمد على شيء من ذلك، وإنما كانت تعتمد بالجملة والتفصيل، وقبل كل شيء وبعد كل شيء، على الوحي: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم].

لهذا لم نشتهِ أن يُعَبِّر بعض الذين كتبوا في التفسير عما بيَّته اليهود بقوله: «فأُلهِمَ رسول الله ﷺ ما يبيت اليهود من غدر»، وبعض الكاتبين في فقه السيرة بقوله: «أُلهِمَ رسولُ الله ﷺ الخطرَ المُدَبَّر له»؛ لأن الإلهام إحساس داخلي عميق ينعكس حيال الأحداث الكونية، وهو ـ كما يُعَرِّفُه أهل العلم ـ بتعبير أدق: ما يُلقى في الرَّوع بطريق الفيض، فيحمل المُلهَم على انتهاج مسلك خاص، من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة.

وهذا المعنى لا يختص بالرسل، ويشترك فيه أهل الحصافة والفكر جميعًا، بخلاف الوحي والخبر الإلهي، فإنه من دلائل النبوة، وخصوصيات الرسالة، لا مطمح لمخلوق فيها.

ولا شك أن هذا الإيحاءَ الإلهي المُعْجِز، هو الذي نفث في روع النبي ﷺ فنهض لتوِّه عَجِلًا، متظاهرًا بقضاء بعض حاجاته، وقَفِل راجعًا إلى المدينة، ونجَّاه الله بذلك من تلك المكيدة.

إن لدقة التعبير هنا، حظًّا من الإيمان واليقين، أكثر من حظها من العلم والبيان، ولا يحسن بالكاتب أن ينصرف في التعبير عن الحقيقة، إذا انقدحت في ثوب الإعجاز، إلى أي تعبير آخر، مهما كان فيه ظلال من لفت أو إثارة». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٦٣-١٦٤].

٣ ـ أن تتحقق في المسلم عقيدة (الولاء والبراء):

قَالَ مُحَمَّدٌ بن مَسْلَمَةَ ﷺ: «**تَغَيَّرَتِ الْقُلُوبُ، وَمَحَا الإِسْلامُ العُهُودَ**».

نعم تغيرت القلوب عن موالاة اليهود بعد نقضهم لعهدهم مع رسول الله ﷺ، فهل تتغير قلوبنا مع أحفاد بني النضير الملاعين، الذين تجمعوا من أشتات الأرض ليُقَتِّلوا ويُذَبِّحوا أبناء المسلمين، ويساعدوا على ذلك في كل مكان، هل آن لحكام المسلمين وشعوبهم أن يعوا الدرس من سيرة رسول الله ﷺ وموقف الصحابي الجليل محمد بن مَسْلَمَةَ ﷺ فيقاطعوا اليهود، وتتغير قلوبهم تجاههم، أم هو

الخزي والعار والنفاق الذي استشرى في مجتمعات المسلمين، أم هو الجبن والضعف والخَوَرُ الذي أصبح صفة لمسلمي اليوم بعد أن كان صفة ليهود الأمس، ولا والله إن جبن اليهود هو هو لا يتغير، فالله ﷻ هو القائل: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾[الحشر].

ولكن دب إلى قلوب المسلمين الوهن: حب الدنيا وكراهية الموت، فهانت عليهم أنفسهم، فهانوا على أعدائهم.

٤ ـ تحالف المنافقين مع اليهود:

وهنا يعلم اليهود أن لا مفر من تنفيذ أوامر رسول الله ﷺ والجلاء عن المدينة وإلا حاربهم وقضى عليهم.

ولكن الطابور الخامس طابور المنافقين لابد وأن يظهر في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ الإسلام، يظهر على لسان عبد الله بن أُبَيِّ بن سَلُول الذي أرسل ليهود بني النضير بأنه معهم وسيؤازرهم، ويدخل في حصونهم ضد محمد ﷺ، وهذا ما يجعل يهود بني النضير يرسلون إلى رسول الله ﷺ بأنهم لن يخرجوا وليفعل ما بدا له.

«وعز على المنافق عبد الله بن أبي أن يرى بني النضير يبعدون عن المدينة ويلحقون ببني قينقاع في منفاهم وهو لا يحرك ساكنًا، فأرسل إليهم يحرضهم على عصيان أمر النبي ﷺ ومقاومته، ويعدهم بالمساعدة بالرجال والسلاح قائلًا: لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم يدخلون معكم حصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم، وداخل بني النضير من ابن أبي شك لما ذكروا من تخاذله عن الوفاء بعهده لبني قينقاع حين حاصرهم المسلمون، وكان قد وعدهم العون، ولمعرفتهم بما بين قومه بني قريظة وبين المسلمين من حلف؛ ولأن في مقدورهم إن أجلوا عن المدينة إلى خيبر أو غيرها من النواحي المجاورة أن يعودوا إلى يثرب حين يثمر نخيلهم، فيجنوا الثمرات ثم يعودوا أدراجهم». [**القيم الخلقية لفتح الباب ٢١٩-٢٢٠**].

وحينما جاء خبر رفضهم للجلاء هنالك يُكَبِّرُ رسول الله ﷺ ويُكَبِّرُ المسلمون من حوله ويقول ﷺ: **حاربت يهود**، ويعلن التعبئة العامة بين صفوف المسلمين.

وما كان رفض اليهود للجلاء إلا لوعد المنافقين لهم بالمساعدة، وهو تحالف شيطاني دائم بين الكفار والمنافقين في كل زمان ومكان، وها نحن اليوم نرى دعاة التطبيع مع الكيان الصهيوني رغم ما يفعلونه بإخواننا المسلمين في فلسطين، وفي كل مكان.

هؤلاء هم المنافقون الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ أيضًا، وكانوا يزينون للذين كفروا من أهل الكتاب بأنهم معهم وأنهم سيقاتلون معهم وفي حصونهم، ولكن سُنَّةُ الله باقية بأن الكفار والمنافقين جبناء ولا صبر لهم على مواجهة المسلمين الصادقين، فما أن حاصرهم رسول الله ﷺ حتى تخلى عنهم المنافقون، كما تخاذل عن نصرتهم بنو جلدتهم من بني قريظة، فلم يمدوهم بمال ولا رجال ولا سلاح، وتركوهم يواجهون مصيرهم المحتوم أمام رسول الله ﷺ جزاء خيانتهم ونقضهم للعهود، عليهم اللعنة إلى يوم القيامة.

٥ ـ الولاء بين المنافقين واليهود وإغواء الشيطان لأتباعه:

يقول صاحب الظلال: «لقد حكى القرآن الكريم في سورة الحشر ما قاله المنافقون ليهود بني النضير، ثم لم يفوا به، وخذلوهم فيه حتى أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب.

ولكن في كل جملة قرآنية لفتة تقرر حقيقة وتمس قلبًا وتبعث انفعالًا وتقر مقومًا من مقومات التربية والمعرفة والإيمان العميق.

وأول لفتة هي تقرير القرابة بين المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحشر: ١١]، فأهل الكتاب هؤلاء كفروا، والمنافقون إخوانهم ولو أنهم يلبسون رداء الإسلام!

ثم هذا التوكيد الشديد في وعد المنافقين لإخوانهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾[الحشر: ١١].

والله الخبير بحقيقتهم يقرر غير ما يقررون، ويؤكد غير ما يؤكدون: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾[الحشر].

وكان ما شهد به الله، وكذب ما أعلنوه لإخوانهم وقرروه!

ثم يقرر حقيقة قائمة في نفوس المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[الحشر].

فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله، ولو خافوا الله ما خافوا أحدًا من عباده، فإنما هو خوف واحد ورهبة واحدة، ولا يجتمع في قلبٍ خوفٌ من الله وخوفٌ من شيء سواه، فالعزة لله جميعًا، وكل قوى الكون خاضعة لأمره ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] فمم يخاف إذن ذلك الذي يخاف الله؟ ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله.. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾.

وهكذا يكشف عن حقيقة القوم الواقعة، ويقرر في الوقت ذاته تلك الحقيقة المجردة، ويمضي يقرر حالة قائمة في نفوس المنافقين والذين كفروا من أهل الكتاب تنشأ من حقيقتهم السابقة ورهبتهم للمؤمنين أشد من رهبتهم لله.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وما تزال الأيام تكشف حقيقة الإعجاز في «تشخيص» حالة المنافقين وأهل الكتاب حيثما التقى المؤمنون بهم في أي زمان وفي أي مكان، بشكل واضح للعيان، ولقد شهدت الاشتباكات الأخيرة في الأرض المقدسة بين المؤمنين الفدائيين وبين اليهود مصداق هذا الخبر بصورة عجيبة، فما كانوا يقاتلونهم إلا في المستعمرات المحصنة في أرض فلسطين، فإذا انكشفوا لحظة واحدة ولوا الأدبار كالجرذان، حتى لكأن هذه الآية نزلت فيهم ابتداء، وسبحان العليم الخبير!

وتبقى الملامح النفسية الأخرى ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم، وتجمعهم آصرة الإيمان من وراء فواصل الزمان والمكان والجنس والوطن والعشيرة.. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

والمظاهر قد تخدع فنرى تضامن الذين كفروا من أهل الكتاب فيما بينهم، ونرى عصبيتهم بعضهم لبعض، كما نرى تجمع المنافقين أحيانًا في معسكر واحد، ولكن الخبر الصادق من السماء يأتينا بأنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم، إنما هو مظهر خارجي خادع، وبين الحين والحين ينكشف هذا الستار الخداع، فيبدو من ورائه صدق الخبر في دنيا الواقع المنظور، وينكشف الحال عن نزاع في داخل المعسكر الواحد قائم على اختلاف المصالح وتفرق الأهواء، وتصادم الاتجاهات، وما صدق المؤمنون مرة وتجمعت قلوبهم على الله حقًّا إلا وانكشف المعسكر الآخر أمامهم عن هذه الاختلافات وهذا التضارب وهذا الرياء الذي لا يمثل حقيقة الحال، وما صبَر المؤمنون وثبتوا إلا وشهدوا مظهر التماسك بين أهل الباطل يتفسخ وينهار، وينكشف عن الخلاف الحاد والشقاق والكيد والدس في القلوب الشتيتة المتفرقة!

إنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب من المسلمين عندما تتفرق قلوب المسلمين، فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التي عرضتها الآية في المقطع السابق في هذه السورة، فأما في غير هذه الحالة فالمنافقون أضعف وأعجز، وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

والقرآن يقرر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين؛ ليهوِّن فيها من شأن أعدائهم، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم، فهو إيحاء قائم على حقيقة، وتعبئة روحية ترتكن إلى حق ثابت، ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله، وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد فلم تقف لهم قوة في الحياة!

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم، فهذا نصف المعركة، والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع، وفي سياق التعقيب عليه، وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل، شرحًا يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه، ويتدبره كل من جاء بعدهم، وأراد أن يعرف الحقيقة من العالِم بالحقيقة!

ولم يكن حادث بني النضير هو الأول من نوعه، فقد سبقه حادث بني قينقاع الذي تشير إليه الآية بعد ذلك غالبًا: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[الحشر].

ووقعة بني قينقاع كانت بعد غزوة بدر وقبل غزوة أحد، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فلما انتصر المسلمون على المشركين في بدر كره اليهود ذلك، وحقدوا على المسلمين أن ينالوا هذا الانتصار العظيم، وخافوا أن يؤثر هذا على موقفهم في المدينة فيضعف من مركزهم بقدر ما يقوي من مركز المسلمين، وبلغ رسول الله ﷺ ما يتهامسون به وما يفكرون فيه من الشر، فذكَّرهم العهد وحذرهم مغبة هذا الاتجاه، فردوا ردًّا غليظًا مغيظًا فيه تهديد، قَالُوا: يَا **مُحَمَّدُ، إِنَّكَ تَرَى أَنَّا قَوْمُكَ! لَا يَغُرَّنَّكَ أَنَّكَ لَقِيتُ قَوْمًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالحَرْبِ، فَأَصَبْتَ مِنْهُمْ فُرْصَةً، إِنَّا وَاللهِ لَئِنْ حَارَبْنَاكَ لَتَعْلَمَنَّ أَنَّا نَحْنُ النَّاسَ!**

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٤٧].

ثم أخذوا يتحرشون بالمسلمين، وذكرت الروايات من هذا أن امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها فباعتها بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدت يهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين، فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.

وحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام رأس المنافقين عبد الله بن أُبي ابن سلول يجادل رسول الله ﷺ عنهم باسم ما كان بينهم وبين الخزرج من عهد! ولكن الحقيقة كانت هي هذه الصلة بين المنافقين وإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب! فرضي رسول الله ﷺ في النهاية أن يجلوا عن المدينة، وأن يأخذوا معهم أموالهم ومتاعهم ـ إلا السلاح ـ ورحلوا إلى الشام.

فهذه هي الواقعة التي يشير إليها القرآن ويقيس عليها حال بني النضير وحقيقتهم، وحال المنافقين مع هؤلاء وهؤلاء!

ويضرب للمنافقين الذين أغروا إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب بالمقاومة، فانتهوا بهم إلى تلك النهاية البائسة، يضرب لهم مثلًا بحال دائمة: حال الشيطان مع الإنسان، الذي يستجيب لإغرائه فينتهي وإياه إلى شر مصير: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾[الحشر].

وصورة الشيطان هنا ودوره مع من يستجيب له من بني الإنسان، تتفقان مع طبيعته ومهمته، فأعجب العجب أن يستمع إليه الإنسان وحاله هو هذا الحال!

وهي حقيقة دائمة ينتقل السياق القرآني إليها من تلك الواقعة العارضة، فيربط بين الحادث المفرد والحقيقة الكلية في مجال حي من الواقع، ولا ينعزل بالحقائق المجردة في الذهن، فالحقائق المجردة الباردة لا تؤثر في المشاعر، ولا تستجيش القلوب للاستجابة، وهذا فرق ما بين منهج القرآن في خطاب القلوب، ومنهج الفلاسفة والدارسين والباحثين!». [**الظلال لقطب** ٦/ ٣٥٢٨-٣٥٣٠].

٦ ـ تآمر المنافقين بين أُحد وبني النضير:

يقول د/ الغضبان: «يحدثنا القرآن الكريم عن هذه الحادثة، وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

إن الصورة لتختلف تمامًا اليوم عنها في أُحد، فلئن كان التحدي سافرًا في أُحد، فلقد خنسوا اليوم وراحوا يعملون في الخفاء كخفافيش الظلام، لم يعودوا يملكون القوة على المواجهة، ولا القوة على التحدي، إنما يتآمرون من وراء الأقنعة علهم ينتصرون مع حلفائهم اليهود على المسلمين، فهم يدعون بني النضير إلى الثبات في وجه المسلمين وإلى المقاومة، كما يعلنون لهم أن مددهم قادم ولا ريب في ألفٍ من المنافقين، وقد ربطوا مصيرهم بمصيرهم، ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحشر].

ولئن كان عبد الله بن أُبي قد استطاع أن يحافظ على حياة حلفائه بني قينقاع، فهو أعجز اليوم من أن يبدي رأيًا أو يتقدم بطلب لرسول الله ﷺ بعد تلك الخيانة السافرة في أُحد، وهو في الوقت نفسه يجلل بالعار من جديد في الخيانة التي فضحها القرآن عن التآمر السري بين الفريقين، المنافقين وكفار أهل الكتاب.

وكان خروج اليهود بدون سلاح وهدمهم بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين صفعة عنيفة للمنافقين، وإسقاطًا ماديًّا ومعنويًّا لهم.

القرآن يتنزل، والمواقف تتوضح، والمنافقون يتعرون، ومع ذلك يُبقي الإسلام ورسول الإسلام خيطًا خفيًّا يتسلقون من خلاله إلى التوبة، فلن يوصد الباب أبدًا، لكن اللعب على الحبال مكشوف، والتظاهر بالإيمان مفضوح لا يجدي، ولن يفيد إلا التوبة الصادقة الخالصة لله.

وكانت هذه الجولة الجديدة كفيلة بتداعي معسكر المنافقين، فوضح الحق واستبان السبيل لكثير منهم، وبدأوا يمسحون الغشاوة عن عيونهم فيستفيقوا من رقادهم ويؤوبوا إلى حظيرة الإسلام».

[المنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان ٢/ ٢٥٥-٢٥٦].

٧ ـ حرص المنافقين على مصالحهم:

يقول د/ أبو فارس: «في غزوة بني النضير ظهر بشكل جلي واضح تعاطف المنافقين ـ مع أنهم بزعمهم ينتسبون إلى الإسلام على الأقل في الظاهر ـ مع يهود بني النضير الخونة الغادرين، ناكثي العهود، أعداء القيم، فترى رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول يرسل لبني النضير مَنْ يحرِّضهم على عدم الخروج من المدينة، وأنه سيمدهم بمدد من عنده، وسيقاتل معهم وينصرهم.

إن الذي يلفت النظر أن عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه من المنافقين لم يف بما التزم به، ووعد بني النضير به، فلم يحرك جنديًّا واحدًا من الألفين الذين أعدهم كما يزعم لنصرتهم والوقوف بجانبهم أثناء الحصار الشديد.

أقول: لقد أدرك رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول أن رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة المحاصِرين لبني النضير، قد اتخذوا قرارًا لا رجعة فيه، وهو إخراج بني النضير وطردهم من المدينة، ونفذوا هذا بحزم وبقوة، وإن المنافقين واليهود لا يملكون أن يقفوا في وجه رسول الله ﷺ ويقدروا على قتاله.

وفي الوقت ذاته فإن المنافقين برئاسة ابن سلول سينكشفون على حقيقتهم عند كثير ممن يجهلونهم، وهذا أمر يضن به المنافق ويحرص عليه أشد الحرص.

وأقول أيضًا: إن المنافق ابتداءً يكره المواجهة ولا يتقنها، وإنما هو يعمل في الخفاء ويحرص على ذلك حتى يتمكن من إنكار ما نُسب إليه، ويتنصل من ذلك.

إن مما يبدو لي أن رئيس المنافقين قد درس الموضوع بدقة ورأى أن وقوفه إلى جانب يهود بني النضير لا يؤدي إلى نتيجة مربحة في صالحه، وبالنسبة له، وفي نفس الوقت سيتعرض ويُعرض مصالحه للخطر دون جدوى، فكف عن ذلك.

أقول: إن الولايات المتحدة الأمريكية، وسائر دول الكفر في العالم الغربي والشرقي تقف بجانب دولة اليهود في فلسطين؛ لأنهم ابتداء يشتركون في العداء للإسلام وأهله؛ ولأنهم يحققون مصالح لهم من الوقوف بجانب دولة اليهود وتأييدها، وفي الوقت ذاته لا تتعرض مصالحهم للخطر في بلاد المسلمين.

ويوم أن يشعر الأمريكان والإنجليز والفرنسيون والروس وغيرهم من دول الكفر بأن وقوفهم إلى جانب اليهود يؤدي إلى تهديد مصالحهم بالخطر والزوال فسيكفون عن تأييد اليهود وتزويدهم بالسلاح بثمن زهيد أو مجانًا.

سوف يتخلى هؤلاء المنافقون عن الوقوف بجانب اليهود كما تخلى المنافقون في الماضي عن نُصرة يهود بني النضير، وهم يشاركونهم الشعور والموقف في عدائهم للرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

إن المسؤولية في بقاء دولة اليهود على أرض فلسطين لا تتحملها أمريكا ولا تتحملها دول الكفر؛ لأنهم أعداء كاليهود تمامًا، بل إن الصليبية في عدائها أعتى من اليهود، هذا ما يخبرنا به التاريخ قديمًا وحديثًا في الأندلس وفي الحروب الصليبية وفي عالمنا المعاصر وتاريخنا المعاصر في لبنان وزنجبار وإريتريا والحبشة، وغير ذلك من البلاد.

إن المسؤولية يتحملها المسلمون على المستويات كافة رسمية وشعبية، وإن العيب الحقيقي يعود إلى المسلمين الذين لم يدركوا هذه الحقيقة، وهي: ما لم تتعرض مصالح الدول الكافرة المنافقة المتعاضدة مع إسرائيل للخطر فلن تُغيِّر موقفها.

إن على المسلمين أن يلاحقوا هذه الدول ومصالحها في كل مكان: يقاطعون بضائعها، ويمنعون البترول أن يتدفق إليها، ويسحبون أرصدتهم من بنوكها، ولا يمدون شيئًا مما يقدرون عليه وتستفيد منه.

إن على الأمة الإسلامية أن تقف الموقف الحازم الذي وقفه رسول الله ﷺ من اليهود وأحلاف يهود وأصدقاء اليهود، مع أعدائها، فتكيل لهم الضربات الموجعة والمدمرة التي تقذف الرعب في قلوبهم، وتدمر كل شيء عليهم، فلا يجرؤوا على الوقوف بجانب اليهود ويساعدوهم بالرجال والسلاح والمال.

ويوم أن يقف المسلمون اليوم على المستوى الرسمي والمستوى الشعبي مع اليهود وأصدقاء اليهود وأخلافهم هذا الموقف فسيتخلى أصحاب المصالح المهددة من دول الشرق والغرب عن اليهود، وسيتوجهون بالنفاق إلى المسلمين يطلبون ودهم ويحرصون على رضاهم، ويبذلون في سبيل ذلك أموالهم ومساعدتهم كما كانوا يبذلونها لليهود». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٣-١٧٥].

٨ ـ منافقو العرب بين الأمس واليوم:

يقول م/ أبو راس: «أمر الرسول ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ أن يذهب إلى بني النضير ليأمرهم بالخروج من المدينة، وقد أمهلهم ﷺ عشرًا وحذرهم بأنه سيضرب عنق كل من يتخلف.

ولم يجد اليهود مناصًا من الخروج، فأخذوا يتجهزون للرحيل لولا أن المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أُبي أرسلوا إلى اليهود أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه.

الأمر الذي أعاد لليهود ثقتهم ليستقر رأيهم على المناوأة، وأرسلوا للنبي ﷺ يقولون له: لن نخرج فافعل ما بدا لك، ثم احتموا بحصونهم واستعدوا للقتال خصوصًا بعدما ترامى إلى مسامعهم أن عبد الله بن أُبي رأس النفاق أعد ألفي مقاتل لنصرتهم.

إلا أن هذه الحركة من المنافقين لم تفت في عضد رسول الله ﷺ ولا في عضد أصحابه ـ رضوان الله عليهم أجمعين، إذ أن الإسلام والمسلمين يعيشون في محنة عظيمة بعد غزوة أُحد، فبعد أن تجرأ الأعراب على بعوث رسول الله ﷺ وقتلوا من خيرة القراء من قتلوا في «بئر معونة» ها هم اليهود يخطون خطوة أكثر بشاعة وذلك في محاولتهم لقتله ﷺ.

والرسول ﷺ هنا ليس كغيره من القادة والساسة الذين نراهم في عصرنا الذي نعيش فيه يدخلون غمار الحروب الطاحنة التي لا معنى لها، لا لشيء إلا للحفاظ على عروشهم وملكهم وسطوتهم وإن مات أفراد الشعب الواحد تلو الآخر حتى يفنى عن آخره.

ولكنه ﷺ يريد بالذي قام به إشعار أعداء هذه الدعوة بأن الإسلام قوي في نفوس أبنائه، وأنه على الرغم مما حدث قادر على رد الصاع بمثله.

لقد نهض ﷺ لمناجزة بني النضير ومن لف لفهم، فأمر بحصار حصونهم وبتقطيع نخيلهم، فما أن رأى اليهود الموت وقد أحاط بهم من كل جانب ـ في الحين الذي استبطأوا فيه عون المنافقين لهم ـ حتى دب في قلوبهم الرعب، فاندحر اليهود ونزلوا إلى حكم المنتصر الذي أذن لهم بالجلاء عن ديارهم ولهم ما حملت إبلهم من أموال، ما عدا السلاح.

وفي هذه المعركة أنزل الحق ﷻ سورة الحشر، التي أمر الحق ﷻ فيها عبيده بأن يعتبروا بخروج بني النضير على النحو الذي خرجوا به، وأن يفقهوا الدرس العظيم الذي يفصح عن نفسية يهود في أي زمان أو مكان كانوا، اليهود الذين لا يستطيعون مواجهة أحد أو محاربة أحد إلا بحبل من الناس وحبل من الله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران].

ولقد قطع رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام حبل الناس من المشركين والكفار والمنافقين عندما أظهر المجتمع المسلم قوته وصلابته وتصميمه على النيل من كل غادر مهما علا شأنه وكبرت قوته.

وقطع حبل الله عن اليهود بإفسادهم ومجونهم وخيانتهم وغدرهم.

واليهود اليوم هم يهود الأمس لم يتغيروا، بل زادوا من تفننهم بالفساد والإفساد واللهو والمجون والخيانة والغدر، وبلغوا في كل هذا شأوًا لم تبلغه شياطين الجن، ولم يبق على الأمة المسلمة إلا العودة إلى كتاب ربها، وهدي رسولها حتى تكون هي صاحبة الكفة الأرجح في الصلاح والفلاح والتقى عند الله ﷻ إذ إنه ـ سبحانه ـ لا يحابي أحدًا، وأنه من لم يسرع به عملُه فلن يسرع به نسبه، فنسبنا وحده إلى الأمة الإسلامية لن يكفي إذ لابد من العمل الجاد المخلص: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة].

ومن ثم لابد من إشعار باقي الأمم التي تقف من خلال مصالحها وراء اليهود، ولابد من إشعار منافقي العرب الذين يظنون أن استمرار حكمهم كامن في استمرار وجود اليهود على أرض العرب والمسلمين في فلسطين، لابد من إشعار هؤلاء وهؤلاء أن المسلمين لا يزال بهم القوة والشكيمة والعزة والمنعة وإننا قادرون على إلحاق الضرر ـ إن لم يكن بالقرارات الحكومية فبالقرارات الفردية للمسلمين ـ بمصالح من يسير خلف العدو الصهيوني حماية لمصالحه ومآربه في مناطقنا الإسلامية.

لقد وصف الحق ﷻ اليهود وصفًا شافيًا شاملًا إذ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

نعم فعندما ينصر المسلم ربه فإن الله ﷻ لا يتخلى عنه بحال من الأحوال، بل إن هذا المسلم يصبح في جيش لا يعلم تعداد جنوده، ولا إحصاء عدته إلا الحق ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[المدثر:٣١].

ثم فضح الحق ـ سبحانه ـ مسلك المنافقين الذين حاولوا إعانة اليهود والذين حرضوهم على مقاتلة المسلمين، فقال الحق ـ سبحانه ـ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر].

ثم يضع الحق ﷻ اللمسات الأخيرة على نفسية هؤلاء وأولئك، فيقول ـ جل شأنه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر].

وإن كان اليهود هم اليهود فإن منافقي العرب هم منافقو العرب لم يتغيروا ولم يتبدلوا، منافقو الأمس يهمسون في آذان يهود الأمس أن لا يخرجوا، وقد أعددنا العدة لنصرتكم، ومنافقو اليوم هم الذين جلبوا يهود العالم من كل مكان ليكونوا لهم عونًا على شعوبهم، وهم الذين أخمدوا كل صوت حر شريف ينادي

بالتحرير الشامل، وهم الذين زرعوا الحدود المتاخمة لدولة البغي والفساد بالألغام لتنسف كل قدم تتجه إلى الأراضي المحتلة التي بارك الله فيها، وهم الذين امتصوا دماء الشعوب ليبنوا جيوشًا لا هدف لها إلا حماية العدو الصهيوني من غضبة الأحرار الأشراف المتعلقة قلوبهم برب العزة والجبروت.

وأيضًا فمنافقو اليوم هم الذين رهبتهم من الإسلام ومن رجالات الإسلام أشد من رهبتهم لله ﷻ، وهم الذين يتظاهرون بالإسلام والإيمان وبالعمل على تحرير الأرض المقدسة.

ولن يفضح نفاقهم ويفت في عضدهم إلا رجال يسيرون على الخط المستقيم الذي خطه ﷺ والذي قال فيه: هذا سبيل الله، إلا رجال يكونون بإسلامهم على مستوى سلفهم الصالح ليدخلوا ضمن قوله تعالى الموجه إلى رسول الله وصحابته: ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحشر].

فإذا ما كانت الأمة المسلمة على هذا النسق من الإيمان والإسلام واليقين فإن منافقي العرب سيخنسون وسيعودون إلى جحورهم بعد أن يسقط في أيديهم، ليجد اليهود أنفسهم ـ وقد سقطت خطوط دفاعاتهم المتقدمة ـ وحيدين، ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله». [تأملات حركية لأبي راس ٢٢٥-٢٢٩].

ويقول أ/ حوى: «إن تلاحم الكافرين والمنافقين على الأرض الإسلامية لا شك فيه، وأنت عليك أن تستهدف الكفر، فإذا ما استطعت أن تنتصر عليه فقد انتهت قيمة المنافقين السياسية والعسكرية؛ ولذلك يجب أن تضع نصب عينيك أن السيطرة على الكفر هي الهدف، وفي الغالب فإن المنافقين لن ينتقلوا من القول إلى الفعل إلا في حالة واحدة هي أن تضمهم جميعًا حصون يقاتلون من خلالها، وإذن فلا ينبغي أن تعطيهم فرصة التجمع والتحصن». [الأساس في السنة لحوى ٢/ ٦٤٠-٦٤١].

٩ ـ سنة الله في إذلال من يشاق الله ورسوله:

وبعد حصار دام عدة ليال تأتي سنة الله التي لا تتبدل في كل عصر ومكان حتى مع المسلمين أنفسهم أو من يَدَّعون الإسلام وهم يحاربونه عيانًا بيانًا، تأتي سنة الله التي لا تتخلف وهي: إخراج وإذلال من يشاق الله ﷻ والرسول ﷺ، أي من يكون في شق أو جانب خلاف شق أو جانب الله ﷻ والرسول ﷺ.

فقد أخبر ﷻ عن سبب خذلانه لبني النضير بقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحشر].

وهي سنة لا تتبدل ولا تتغير إلى يوم القيامة أنه من يعادي الله وشريعته، ومن يعادي رسول الله ﷺ وسنته، فإن الله ﷻ لابد من أن يخرجهم من ديارهم وأن يذلهم تحت أرجل الأمم الأخرى، وإننا حين نَحَّيْنَا شريعة ربنا وسنة نبينا جانبًا أذلنا الله، كما أخبر بذلك الفاروق عمر ﷺ حين قال: «**إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ،**

فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللهُ». [المستدرك على الصحيحين في الإيمان ١/ ١٣٠ رقم ٢٠٧، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي].

ونحن ابتغينا العزة في شرائع الشرق والغرب ما بين شيوعية واشتراكية ورأسمالية وغيرها من المسميات فأذلنا الله، وحالنا لا يخفى على أحد.

فإذا أردنا النصر والتمكين فليس لنا إلا العودة إلى الله ودينه.

١٠ ـ الرعبُ جنديٌّ من جنود النصر:

يقول د/ أبو فارس: «تذكر كتب السنة النبوية المطهرة والسير الشريفة العطرة أن يهود بني النضير لجأوا إلى حصونهم المنيعة، وخزَّنوا من الغذاء والماء ما يكفيهم مدة طويلة تزيد على سنة كاملة، ومعهم من السلاح الوفير، والمال الكثير ما يعينهم على المقاومة فترة طويلة دون عنت أو مشقة.

لقد ظنوا أن هذه الحصون المنيعة تمنعهم من رسول الله ﷺ وظن المسلمون ـ أيضًا ـ أن من الصعوبة بمكان أن يخرجوا من هذه الحصون المنيعة.

لقد ذهب هذا الظن أدراج الرياح حينما تدخلت إرادة الله، إذ قذف في قلوبهم الرعب والخوف والجزع، فاستسلموا لرسول الله ﷺ وأمره، يخربون بيوتهم ويتركون سلاحهم وأموالهم لرسول الله ﷺ.

وإذا كان لنا أن نستنبط من هذا من دروس فنقول:

(١) إن الله ينصر عباده المؤمنين إن نصروه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾ [محمد ﷺ].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم].

والله ـ تبارك وتعالى ـ ينصر أولياءه بأن ييسر لهم من أسباب النصر ما لا يخطر على بالهم ولا بال عدوهم نعمة منه وفضلًا؛ ذلك ليوقن الناس أن النصر بيد الله ولا تقف قوة في الأرض أمام قوة الله وقدرته.

إن جنود الله التي ينصر بها أولياءه كثيرون، ففي غزوة بني النضير كان الرعب جنديًّا من جنود الله، وفي غزوة بدر كانت الملائكة والنعاس والمطر والحصى من جنود الله، وكانت الريح والعنكبوت وغير ذلك من جنود الله، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١].

(٢) إن الذعر والجزع والخوف إذا سيطرت على إنسان من الناس أو جماعة من الجماعات أو جيش من الجيوش تفقده الاتزان في التفكير والسداد في اتخاذ القرار النافع له ولمن معه.

تأمل هؤلاء الذين دب الذعر في نفوسهم ماذا فعلوا بأنفسهم وبيوتهم.

(٣) الاعتبار في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر] يظهر لنا من وجوه:

الأول: إن الذي يقف في وجه الحق، ويصد الناس عنه، ويطارد دعاة الحق منهزم لا محالة، وسيجني ثمرة ما زرع من الصاب والعلقم والآلام، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ۝١٢﴾ [آل عمران].

الثاني: الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وباق حتى يرث الله الأرض وما عليها، وستكون للباطل جولات وللحق جولات، ولكن العاقبة لأهل الحق في نهاية المطاف.

الثالث: الاعتبار يكون بتجنب ما ارتكبه اليهود من خيانة وغدر حتى لا يحدث نفس المصير الذي حدث لهم من الهزيمة والذل والهوان». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٨-١٧٩].

١١ ـ عقوبة اليهود الأخروية:

يقول د/ أبو فارس: «وتذكر سورة الحشر عاقبة يهود بني النضير الأخروية: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤﴾ [الحشر].

أقول: وهذا ليس خاصًّا ببني النضير فقط بل هو جزاء لكل من يتخلق بأخلاقهم ويقف مواقفهم من دعوة الله ـ تبارك وتعالى ـ وشواهد ذلك كثيرة عبر التاريخ، فما حل بثمود قوم صالح عليه السلام، وقبيلة عاد قوم هود عليه السلام، وقبيلة مدين قوم شعيب عليه السلام، وفرعون الطاغية وغيرهم من العذاب والدمار إلا نتيجة كفرهم وصدهم عن سبيل الله.

وليس كثرة الأموال التي في أيدي الطواغيت، وما يملكون من قوة وجاه وسلطان إلا استدراج لهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ يُمْلِي** (يمهل ويؤخر ويطيل له في المدة، وهو مشتق من الملوة وهي المدة والزمان، بضم الميم وفتحها وكسرها) **لِلظَّالِمِ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** (أي لم يطلقه ولم ينفلت منه، قال أهل اللغة: يقال أفلته أطلقه وانفلت تخلص منه)»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٞ ۝١٠٢﴾ [هود]. [مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٣)، وابن ماجه في الفتن (٤٠١٨)]. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٠-١٨١].

١٢ ـ الإسلام الصادق والحب الجارف لرسول الله ﷺ:

واستسلم بنو النضير لرسول الله ﷺ، ولكن تأتي هذه الصورة الرائعة من حب الصحابة للرسول ﷺ والصدق في الإسلام، فيحكي التاريخ أن اثنين من يهود بني النضير قد أسلما في هذه الغزوة، وهما عمرو

بن يامين وأبو سعد بن وهب ﷺ، ولننظر إلى هذا الموقف العظيم من الصحابي الجليل عمرو بن يامين ﷺ ـ ولم يمض على إسلامه إلا يومان ـ، فهو يعلم أن عمرو بن جَحَّاش هو الذي كان يريد اغتيال رسول الله ﷺ وهو ابن عمه، ولكنه حين دخل الإسلام ـ وأحب رسول الله ﷺ ـ أراد أن ينتقم من هذا الشقي، وذلك قبل أن يعطيهم رسول الله الأمان فاستأجر رجلًا من قيس بعشرة دراهم على أن يقوم بقتل عمرو بن جحاش، وهذا ما حدث بالفعل، فكان أصدق تعبير عن صدق إسلامه ومدى حبه لرسول الله ﷺ، فما أن أسلم حتى تَعَلَّم عقيدة الولاء والبراء التي ندعو الله أن يتعلمها مسلمو اليوم، حتى تعود إليهم عزتهم ويعود إليهم مجدهم، وما ذلك على الله بعزيز.

١٣ ـ الله ﷻ هو الفاعل والمدبر لأمور خلقه:

يقول صاحب الظلال: «من آيات سورة الحشر نعلم أن الله هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، والله هو فاعل كل شيء، ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة في صورة مباشرة، توقع في الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر! وساق المخرَجين للأرض التي منها يحشرون، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التي أُخرجوا منها.

ويؤكد فعل الله المباشر في إخراجهم وسوقهم بالفقرة التالية في الآية: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[الحشر: ٢].

فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم، ولا هم كانوا يُسلِّمون في تصور وقوعه! فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تُخرجوهم منها كما أُخرجوا، وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون!

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾..

أتاهم من داخل أنفسهم! لا من داخل حصونهم! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم! فضلًا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم، وقد كانوا يحسبون حساب كل شيء إلا أن يأتيهم الهجوم من داخل كيانهم، فهم لم يحتسبوا هذه الجهة التي أتاهم الله منها، وهكذا حين يشاء الله أمرًا، يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر، وهو يعلم كل شيء، وهو على كل شيء قدير، فلا حاجة إذن إلى سبب ولا إلى وسيلة، مما يعرفه الناس ويقدرونه، فالسبب حاضر دائمًا والوسيلة مهيأة، والسبب والنتيجة من صنعه، والوسيلة والغاية من خلقه، ولن يمتنع عليه سبب ولا نتيجة، ولن يعز عليه وسيلة ولا غاية ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾[الحشر].

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم، ويمكنون المؤمنين من إخرابها ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وبهذا تتم حكاية ما وقع للذين كفروا من أهل الكتاب، في تلك الصورة الموحية، وهذه الحركة المصورة، والله ـ سبحانه ـ يأتيهم من وراء الحصون فتسقط بفعلهم هم، ثم يزيدون فيخربونها بأيديهم وأيدي المؤمنين.

هنا يجيء أول تعقيب في ظل هذه الصورة، وعلى إيقاع هذه الحركة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾.

وهو هتاف يجيء في مكانه وفي أوانه، والقلوب متهيئة للعظة متفتحة للاعتبار.

والآية التالية تقرر أن إرادة الله في النكاية بهم ما كانت لتعفيهم بأية حالة من نكال يصيبهم في الدنيا غير ما ينتظرهم في الآخرة: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣﴾.

فهو أمر مقرر أن ينالهم النكال من الله، بهذه الصورة التي وقعت أو بصورة أخرى، ولولا أن اختار الله جلاءهم لعذبهم عذابًا آخر، غير عذاب النار الذي ينتظرهم هناك، فقد استحقوا عذاب الله في صورة من صوره على كل حال!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤﴾

والمشاقة أن يأخذوا لهم شقًّا غير شق الله، وجانبًا غير جانبه، وقد جعل الله جانبه هو جانب رسوله حين وصف علة استحقاقهم للعذاب في صدر الآية، فاكتفى في عجزها بمشاقة الله وحده فهي تشمل مشاقة الرسول ﷺ وتتضمنها، ثم ليقف المشاقون في ناحية أمام الله ـ سبحانه ـ وهو موقف فيه تبجح قبيح، حين يقف المخاليق في وجه الخالق يشاقونه! وموقف كذلك رعيب، وهذه المخاليق الضئيلة الهزيلة تتعرض لغضب الله وعقابه، وهو شديد العقاب.

وهكذا تستقر في القلوب حقيقة مصائر المشاقين لله في كل أرض وفي كل وقت، من خلال مصير الذين كفروا من أهل الكتاب، وما استحقوا به هذا العقاب.

ولا يفوتنا أن نلحظ تسمية القرآن ليهود بني النضير بأنهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وتكرار هذه الصفة في السورة؛ فهي حقيقة لأنهم كفروا بدين الله في صورته العليا التي جاء بها محمد ﷺ وقد كان اليهود ينتظرونها ويتوقعونها، وذكر هذه الصفة في الوقت نفسه يحمل بيانًا بسبب التنكيل بهم، كما أنه يعبئ شعور المسلمين تجاههم تعبئة روحية تطمئن لها قلوبهم فيما فعلوا معهم، وفيما حل بهم من نكال وعذاب على أيديهم، فذكر هذه الحقيقة هنا مقصود ملحوظ!». [في ظلال القرآن لقطب ٦/ ٣٥٢١-٣٥٢٢].

١٤ ـ الاعتبار والاتعاظ بالماضين:

يقول د/ زيدان: «في قصة غزوة بني النضير التي أنزل الله فيها معظم آيات سورة الحشر، قال تعالى بعد أن ذكر ما حلَّ بهم: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾، ومعنى ذلك واضح وهو: أيها المسلمون يا أصحاب العقول النيرة بنور الإيمان اتعظوا بما حلَّ ببني النضير بسبب عصيانهم وتمردهم على الله، ورفضهم الإيمان بما يجب عليهم الإيمان به، ونقضهم العهود، اتعظوا بما حلَّ بهم من نكال وعقاب وإذلال وخروج من ديارهم، اتعظوا بذلك واعتبروا به بأن لا تفعلوا ما فعلوه من خيانة وغدر لا كله ولا بعضه؛ لئلا يصيبكم من العذاب ما تستحقونه بقدر ما تقومون به من أسباب ودواعي العقاب، وحتى لا يحدث نفس المصير الذي حدث لهم من الهزيمة والذل والهوان.

إن هذا المعنى الواضح والذي يدعونا الله إليه أصبح غائبًا عن أذهان المسلمين، أو حاضرًا ولكنه مشوشًا غير واضح؛ لأن المسلمين يغفلون عن العبرة فيما قصَّه الله علينا من قصص الماضين، وما حلَّ بهم من جَرَّاء أفعالهم، ويحسبون أن ذلك لا يعنيهم ولا يتعلق بهم، وهذا خطأ يجب على الدعاة تصحيحه في أذهان المسلمين، وأن يبصروهم بأن سنة الله واحدة في مؤاخذته للعاصين، والمخالفين لأمر الله في اتباع شرعه وملاحظة سننه في الحياة، وأن يؤكد الدعاة هذا المعنى في دروسهم وخطبهم ومحاضراتهم، ويستشهدوا بآيات القرآن وما وقع للصحابة الكرام، ويذكروهم أيضًا بقوله تعالى في تعليل ما أصاب بني النضير من نكال وعقاب، بأنهم شاقوا الله ورسوله بعصيانهم لما أُمروا به من الإيمان بالله ورسوله، ثم قال تعالى مبينًا سنة من سننه في خلقه وهي: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤﴾ هذه الآية تبين لنا قاعدة من قواعد سنن الله في الحياة، فمن يتمرد على الله وشرعه ولا يلتزم بما جاء به محمد ﷺ، فالعقاب ينتظره سواء في الدنيا أو الآخرة، إن مهمة الدعاة في تبصير المسلمين هذه المعاني مهمة صعبة ولكنها ضرورية لتصحيح المفاهيم التي يجب مباشرتها أولًا حتى يمكن مطالبة المسلمين بالأعمال». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٨٨-٢٨٩].

١٥ ـ ديمومة الصراع مع الباطل:

يقول د/ الصلابي: «الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وهو باقٍ حتى يرث الله الأرض وما عليها، وستكون للباطل جولات وللحق جولات، ولكن العاقبة لأهل الحق في نهاية المطاف: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ۝١٧﴾ [الرعد]، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال].

إن الذي يقف في وجه الحق، ويصد الناس عنه، ويطارد دعاة الحق منهزم لا محالة، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران]».

[السيرة النبوية للصلابي ٢/ ٢١٨].

١٦ ـ لا إكراه في الدين:

وقد مر في عرض الغزوة أنه قد جلا مع يهود بني النضير بعض أولاد الأنصار الذين اعتنقوا اليهودية، وحاول الأنصار منع أولادهم من الجلاء قائلين: لا ندع أبناءنا يخرجون مع اليهود، ولكن النبي ﷺ ـ عملًا بحرية العقيدة ـ لم يمكن الأنصار مما أرادوا، ما دام أن أبناءهم قد دخلوا في اليهودية قبل الإسلام، وجلوا مع بني النضير بمحض اختيارهم، وقد اتخذ النبي ﷺ هذا القرار ونفذه بعد أن أنزل الله عليه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] كما سبق في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في عرض الغزوة.

١٧ ـ منهج القرآن في عرضه لغزوة بني النضير:

لقد كان لغزوة بني النضير من القرآن رقعة واسعة من آياته كادت أن تستغرق سورة برمتها، وهي سورة الحشر.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: سُورَةُ التَّوْبَةِ؟ قَالَ: التَّوْبَةُ هِيَ الفَاضِحَةُ، مَا زَالَتْ تَنْزِلُ وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهَا لَنْ تُبْقِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا، قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الأَنْفَالِ؟ قَالَ نَزَلَتْ فِي بَدْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: سُورَةُ الحَشْرِ؟ قَالَ: نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ.

[البخاري في تفسير القرآن (٤٨٨٢)، ومسلم في التفسير (٣٠٣١)].

ولقد ساق القرآن الكريم هذه القصة في صورة تختلف في روايتها عما في كتب البشر، بمقدار ما بين صنع الله، وصنع البشر من فوارق لا تقاس.

وكان لهذه السورة «سورة بني النضير» صدى طيب عظيم في نفوس المسلمين، فهي أول نصر تحقق بعد المحن المتتابعة: أحد، والرجيع، وبئر معونة.

يقول أ/ شقرة: «كانت هذه الغزوة بعد أحد وقبل الأحزاب، وكانت بداية النصر على أعداء الإسلام المحدقين بالمدينة، الذين كانوا يخضعون للعهود، ويتربصون في أنفسهم بالرسول ﷺ والإسلام والمسلمين الدوائر، وينتظرون يومًا لا يريبهم فيه أمر ينكثون فيه العهود المبرمة مع الرسول ﷺ في سر وكتمان، حين تلوح لهم الفرصة التي لا يستطيع الرسول ﷺ ومن معه حيلة لأنفسهم يخلصون منها إلى سبيل نجاة.

ولكن هؤلاء الأعداء نسوا في غمرة مكرهم أنفسهم، وكيدهم الضعيف، أن الله ﷻ هو الذي يتولى حماية الإسلام والرسول ﷺ بنفسه، وهو القادر على تغيير المقاييس والنواميس التي يحتكم إليها البشر في

تدبيرهم وتقديرهم، وأن القوة التي يستندون إليها في هذا التدبير والتقدير هي من صنع الله سبحانه الذي تَخضع الأشياءُ كلها لإرادته وقهره، فأين يذهبون؟ وهل في ظنهم أنهم بمكرهم وكيدهم سيفلتون؟!

ويستطيل شر أولئك اليهود، وينسون ـ أو بالأحرى يتناسون ـ أن في أعناقهم عهدًا يجب أن يظل وفاؤهم له ماضيًا، فيجمعون أمرًا زينته أنفسهم الحاقدة الواجدة على الإسلام ونبي الإسلام، وذلك بمحاولة اغتياله ﷺ كما رأينا.

لقد تميز عرض القرآن لغزوة بني النضير أنه تكلم عنها من أول السورة الكريمة، وذكر فائدة عظيمة لابد للمؤمنين أن يربطوا قلوبهم بها، وهي أن المؤمن يعمل السبب ولا يتكل عليه بل يُعْمِلُ السبب ويخلص التوكل على الله ويسأله التوفيق.

ويذكر القرآن أن الله هو الذي أخرج اليهود من حصونهم، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾.

يقول سيد قطب: «نزلت هذه السورة في حادث بني النضير ـ حي من أحياء اليهود ـ في السنة الرابعة من الهجرة، تصف كيف وقع؟ ولماذا وقع؟ وما كان في أعقابه من تنظيمات في الجماعة الإسلامية، ترويها بطريقة القرآن الخاصة، وتعقب على الأحداث والتنظيمات بطريقة القرآن كذلك في تربية تلك الجماعة تربية حية بالأحداث والتوجيهات والتعقيبات». [الظلال ٦/ ٣٥١٨].

إلى أن يقول: «ومن هذه الآيات نعلم أن الله هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، والله هو فاعل كل شيء، ولكن صيغة التعبير تقرر هذه الحقيقة في صورة مباشرة، توقع في الحس أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من فعل البشر! وساق المخرَجين للأرض التي منها يحشرون، فلم تعد لهم عودة إلى الأرض التي أُخرجوا منها». [الظلال ٦/ ٣٥٢١].

ويسبق ذكر نتيجة الغزوة إعلامُ الله سبحانه بأن الخلائق كلها تسبح له، فهو يشبه تذكير المسلمين بأن عبادتهم ربهم، وخضوعهم له، وإسلامهم أنفسهم له هو السبب في الحصول على ثمرة النصر، فعليهم أن يظلوا على صلة دائمة به، فبذلك وحده يكون النصر؛ لأنه هو العزيز الذي لا غلبة إلا بعزته، الحكيم الذي لا قدرة إلا بحكمته، فعلى المسلمين أن يوثقوا صلتهم بالعزيز الحكيم.

وتبدأ السورة بالتعجيل بذكر النتيجة التي انتهت إليها المعركة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ ﴾ [الحشر: ٢]، وهذا دأب القرآن في كل الغزوات التي انتهت بالمسلمين إلى النصر، فهو يعجل بالبشرى، لتبقى صورتها قوية راسخة في عقول المسلمين على مدار الزمن، ولتبقى

الفرحة بالنصر حية نابضة في صدورهم كلما قرأوا كل آية من تلكم الآيات المبشرات بالنصر، فيظل الشوق إلى النصر عارمًا في صدورهم، يلزمهم أسبابه، ويشدهم إلى دواعيه.

لقد كان المسلمون يعلمون تمكن اليهود في حصونهم، وكذلك كان يعتقد اليهود أنهم باقون في المدينة وأنهم لن يخرجوا منها قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾.

قال سيد قطب: «فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم، ولا هم كانوا يُسلمون في تصور وقوعه! فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم بحيث لا تتوقعون أنتم أن تُخرجوهم منها كما أُخرجوا، وبحيث غرتهم هذه المنعة حتى نسوا قوة الله التي لا تردها الحصون!». [الظلال ٦/ ٣٥٢١].

وكأن تلك النتيجة التي انتهت إليها الغزوة لم تكن متوقعة للمسلمين أو لبعضهم على الأقل في زمن قريب؛ لأن الحصون المنيعة التي كانوا يتحصنون بها كانت مظنة لرد أطماع من تُحدثهم نفوسهم باقتحامها، حتى عند المسلمين أنفسهم، وإلا ما كان القرآن ليقول: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾[الحشر: ٢].

ولكن هذه الحصون لم تكن لتمنع الرعب أن يستولي على قلوبهم ويملأها، فالرعب لا تصده الحصون الشاهقة المنيعة، ولا ترده الأبواب الضخمة الثقيلة، ولا تكفه الأسلحة التي أُعدت للدفاع عنها، فهو شيء فوق هذا كله، وأقوى من هذا كله، ولا يستأذن في أمره فيؤذن له، بل إنه ليُسخِّر أصحابَ هذه الحصون لتقويضها وتخريبها؛ ليكونوا سخرية أبد الدهر، قال تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾[الحشر: ٢].

إنه ﷻ يقرر أن هزيمة يهود بني النضير جاءت من طريق لم يكونوا يتوقعونه، فقال تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

قال سيد قطب: «أتاهم من داخل أنفسهم! لا من داخل حصونهم! أتاهم من قلوبهم فقذف فيها الرعب، ففتحوا حصونهم بأيديهم! وأراهم أنهم لا يملكون ذواتهم، ولا يحكمون قلوبهم، ولا يمتنعون على الله بإرادتهم وتصميمهم! فضلًا على أن يمتنعوا عليه ببنيانهم وحصونهم... إلخ». [الظلال ٦/ ٣٥٢١].

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عما حل بهم فقال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يخربون بيوتهم بأيديهم ويمكِّنون المؤمنين من إخرابها، وفي هذا عبرة لمن يعتبر؛ لذلك قال تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾.

«ولا يغفل القرآن دور الرسول ﷺ والمسلمين في تهديم هذه الحصون وتخريبها، فإن الحصار الذي فرضوه عليه كان العامل الكبير في إحلال الرعب في قلوب أصحابها، الذي انتهى بهم إلى إعمال يد التخريب والهدم فيها، قال تعالى: ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢]، أي أن التخريب كان بأيدي المؤمنين أيضًا.

ثم يلفت القرآن نظر المؤمنين في أوج الانتصار أن لا يوقعهم الغرور فيما أوقع فيه اليهود بحصونهم المنيعة، فإن القوة لله وحده، ويجب على الجند المؤمن أن يستمدها منه، فإن الله هو خالقهم وخالق القوة، ولا ينفك خلق عن خلق بسبب مما يظن أن فيه زيادة قوة وبأس يكون من تدبير هذا الخلق وتقديره، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾ [الحشر: ٢].

وبيَّن سبحانه أنه كتب على بني النضير الجلاء وترْك الديار، وأن لهم في الآخرة عذاب النار، قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣﴾.

واستغل اليهود حادثة قطع النخيل، وتحدثوا عنه، فنجد القرآن الكريم يطمئن المؤمنين على صواب ما فعلوه في بني النضير فقال تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾.

ولم يكن في هذه الغزوة قتال، بل كان حصار أنزل اليهود من حصونهم، وألقى الرعب في قلوبهم، من هيبة رسول الله ﷺ، وهذا ما يوضحه قوله سبحانه: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ [الحشر: ٦].

لذا كان المال الذي أصابه المسلمون من بني النضير فيئًا موضوعًا تحت يد النبي ﷺ، وهو الذي لا غلبة إلا بعزته، ولا قدرة إلا بحكمته، فهو يتصرف فيه كما يشاء، وهكذا كل مال يصيبه المسلمون إلى يوم القيامة، يكون للإمام حق التصرف فيه، يضعه في الجهة التي يشاء، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾[الحشر]، وهو أول مال في ء يصيبه المسلمون، تولى الله سبحانه قسمته كيلا يكون دولة بين أيدي الأغنياء يتصرفون فيه بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئًا إلى الفقراء، فأنشأ القرآن بهذا قاعدة ثابتة للمال على الدهر.

عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ: كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ مِمَّا لَمْ يُوجِفْ المُسْلِمُونَ عَلَيْهِ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً [خَالِصَةً]، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ [قُوتَ سَنَتِهِ]، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلَاحِ وَالكُرَاعِ عُدَّةً فِي سَبِيلِ الله ﷻ.

[البخاري في الجهاد والسير (٢٩٠٤)، وينظر بقية تخريجه في عرض الغزوة].

ويضع الله في هذه الآيات قواعد تشريعية إجمالية تنفسح على امتداد رقعة الوجود الإسلامي، ليظل هذا الوجود موثوقًا إليها في قوة وإحكام فلا يضل ولا يشقى، منها قاعدة في التنظيم الاقتصادي ﴿كَيۡ لَا

يَكُونَ دُولَةَۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحشر: ٧]، وقاعدة في التشريع الدستوري: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧]، وهذا كله من بركة الجهاد في سبيل الله الذي عطله المسلمون بضعفهم وخذلانهم، واستيلاء حب الدنيا على قلوبهم.

وقد بين الله سبحانه حال المستحقين لمال الفيء في قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر].

فما من مسلم إلا وله حق في هذا المال الذي لا يكون بإيجاف خيل وركاب وقتال.

وقد التقى على صعيد هذه الغزوة مكر اليهود وكيد المنافقين معًا في تحالف هزيل ضعيف، ما لبث أن خار وانهار، ولم يبق منه إلا افتضاحه أمام الأجيال التي ستأتي حتى قيام الساعة، ولا شك أن المنافقين كانوا يطمعون في صمود بني النضير أن ينكفئ الرسول الله ﷺ وأصحابه على أعقابهم بهزيمة تمكنهم أن يُخرجوهم من المدينة ويطردوهم منها، ولعل اليهود أذاقوا نفوسهم حلاوة بشرى خيال كانت جنايته عليهم أفدح من جناية خذلان المنافقين لهم.

إن التحالف بين فئتين أو أكثر لا يحقق نُجحًا للمتحالفين إلا إذا أبرأ كل فريق نفسه من طمعه أن يكون وحده صاحب الغُنم، وإذا ناله خسارٌ دفعه إلى الفريق الآخر، أو كان من تدبيره بادئ ذي بدء أن يدني أسباب الغُنم إليه، وأسباب الخسار إلى غيره.

لذا فلم يلبث تحالف المنافقين واليهود أن خار وانهار، وأثبته القرآن بكل ضعفه وهزاله ومكره في قوله: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر].

ويتقرر في هذه الآيات حقيقة ينشئها الله لأجيال المسلمين الآتية لئلا يصيبهم الوهن أمام أي تحالف يشبه ذلك التحالف الذي كان بين اليهود والمنافقين، فيقعوا فريسة الوهم في خذلان وصغار، يقررها قوله: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر]، وقد ذكر الله في مواضع عدة من القرآن مثل هذه الحقيقة محذرًا المؤمنين أن يهنوا ويضعفوا ثم لا يجدوا في أنفسهم إلا الاستسلام الذليل ربما لأضعف أطراف مثل هذا التحالف، كما هو واقع اليوم للمسلمين على امتداد رقعة الأرض التي يعيشون فوقها.

والآيات التي تذكر هذا التحالف تذكر الحوار الذي دار بين اليهود وبين المنافقين فيه، وتكشف به دخائل نفوسهم المتربص بعضها ببعض، حتى لكأن كل طرف منهما يقف على بُعد بعيد من الطرف الآخر، حذرًا أن يسمع وسوسة نفسه، أو يرى على وجهه من إمارات الشك والريبة من أول كلمة فيه حتى آخر كلمة فيه.

وترى هذه الريبة ظاهرة بما ترسم هذه الآيات الكريمة بكل كلمة من كلماتها وقعة نفسية واسعة يبصر بها القارئ لها الحركة الخفية لنفوس أطراف التحالف، فلا يملك إلا أن يقول: إن القرآن هو العين الصادقة الكاشفة للتاريخ الغائب عن المسلمين في أعقاب الرسالة، فما أضلهم إن هم أغمضوا أعينهم لئلا يروا ما كشف لهم القرآن من ذلك التاريخ.

وشهادة الله هي الكلمة الفصل التي لا يجوز لأحد أن يقدم أو يؤخر كلمة بلسانه معها، وإذا استطاع إنسان ما أو جماعة ما أن تخفي من أمرها شيئًا، فتنخدع بذلك جماعة أخرى ـ ولطالما حدث ذلك وسيحدث ـ فإن عين الله الكاشفة ستكشفها ليراها الناس بأعينهم، أو أن يلقي في أرواعهم حذرًا منها ما يمكن أن يتصوره الواهمون المخدوعون، فينقادوا بذلك التصور إلى ما يريد أعداؤهم أن يقودوهم إليه.

ويظاهر القرآن في هذه الغزوة المباركة المؤمنين بما يكشفه لهم من حال المنافقين، والدور الخبيث الذي لعبوه مع اليهود، فوعدوهم بالنصر والوقوف معهم، والقتال إلى جانبهم، وأن مثلهم في ذلك كمثل الشيطان الذي يغوي أتباعه بالوعود العريضة، ثم لا يلبث أن يتخلى عنهم ويتركهم نهبًا للحسرات، فيقول: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر].

وقد وقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من الكفار واليهود ـ في الغزوات التي سبقت هذه الغزوة ـ إذ اجتالهم الشيطان عن مواقعهم التي علاهم بها الغرور، وأضلهم فيها الاستكبار عن الحق المبين.

وليس يعذر الإنسان الذي يُسلم قياده للشيطان، فإن الله سبحانه قد جعل له قلبًا يعقل به، وعينًا يبصر بها، وأذنًا يسمع بها، وبعث له نبيًّا يهديه، ودعاه إلى التقوى، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ [الحشر]، وحذره أن يصيب مما يصيب الفاسقون من مخالفة عما جاء به النبي ﷺ فيذيقه سوء العذاب، فقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ ﴾ [الحشر].

والعداوة الكامنة في النفس مهما بلغ من قدرة صاحبها على إخفائها فإنها لابد يومًا ما أن تظهر لتجعل من المتعادين مسرحًا لكل المفاسد التي ظلت مكبلة في نفسيهما زمنًا، فيدمر أحدهما الآخر ـ ولا بد ـ لأنه كان أسبق في إظهار عداوته، أو ربما كان الغالب منهما أقوى سببًا من الآخر.

والشيطان هو رمز قوة الشر التي تتحدى القوى مجتمعة؛ لأنها قوة خفية ماكرة تحيط بالإنسان من كل أقطاره، وتحيك حوله شبكة من خيوط الفساد القوية لا يستطيع منها نجاة، وتُمسك بزمام الجماعة القوية الكثيرة العدد والعدة، فتضع رأسها في أسباب الدمار والهلاك، فلا يعود لها عين تبصر بها إلا عينه، ولا أذن تسمع بها إلا أذنه، ولا قلب تعقل به إلا قلبه، بل إنها تسخر نفسها في طواعية لا تعرف حسمًا من التمرد عليه، بل إنها لترى كل شر خيرًا، وكل خير شرًا، إلا أن يعكس الشيطان لها ذلك، ولن يكون؛ لأنه لم يكن إلا لاحتضان الإنسان فردًا وجماعة لإزهاق روح الخير فيه، وإذكاء روح الشر، والمصير الذي ينتظرهم جميعًا ما توعدهم الله به ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧ ﴾ [الحشر].

ولو عقل يهود بني النضير لرأوا في مصارع من قبلهم من إخوانهم اليهود والمشركين في غزوة بدر وأخواتها عبرة بالغة تذكرهم بالنذر التي حاقت بهم جزاء غدرهم، واغترارهم بحصونهم، وانخداعهم بالوعود الخاتلة التي وسوس لهم بها إخوانهم المنافقون، فسارعوا إلى القرآن الذي جاء مصدقًا للتوراة والإنجيل يؤمنون به ويصدقون أحكامه وشرائعه، وقد علموا لمن آمن به ما لهم عليه من سبيل، وأن المستقبل لهم من دون الناس جميعًا، لا في أرض الجزيرة وحدها، بل وفي كل أرجاء الأرض، يدرك ذلك من يدرك، ويقصر عن ذلك من يقصر.

وقد علم أولئك اليهود علمًا لا يقبل النقض ولا الريب، مما جاءهم في التوراة وصفَ القرآن وقوة تأثيره: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ [الحشر]، فكان عليهم أن يحملوا أنفسهم من الجلاء عن أرضهم وحصونهم بتصديق كلماته، والإيمان بأحكامه وآياته، واليقين بأسماء الله وصفاته، والانقياد المطلق لمعانيها التامة، التي

دانت لها بالتسبيح والتنزيه الخلائقُ كلها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [الحشر]، ولكنه الشقاء الباهظ الذي أحكموا وثاق عقولهم وقلوبهم به.

وقد ناسب أن تبدأ هذه السورة التي حكت لنا غزوة بني النضير بالتسبيح وأن تختم بالتسبيح؛ لأن اليهود على علم بما يقتضيه توحيد الله من تنزيهه وتجريده من كل ما يشوب صفاءه، فهم أهل كتاب، كان حتمًا عليهم به أن يكونوا أسرع الناس إلى الإيمان برسول الله ﷺ، الذي أوضح المحجة وأنار السبيل، وأقام البرهان على صدق كل ما جاء به من عند ربه ﷻ، مصدقًا إخوانه النبيين من قبله.

وكأن هذه البداية والنهاية أيضًا بمثابة الخطاب لهؤلاء أن ينزعوا أنفسهم من الأسباب التي أخرجتهم من ديارهم، وأن يتخلوا عما وقر في نفوسهم من الشر والسوء؛ ليعيشوا مع الآخرين بالمودة والإخاء».

[السيرة النبوية العطرة في الآيات القرآنية المسطرة لشقرة ٤٠٧-٤٢٠].

المطلب الثاني

الدروس التربوية والأخلاقية

١ ـ استحباب اتخاذ الرفقة في المسير:

يقول د/ أبو فارس: «ويؤخذ هذا من فعل رسول الله ﷺ حين سار إلى بني النضير، إذ لم يذهب وحده إليهم بل اختار نفرًا من أصحابه ذوي جرأة وشجاعة ورأي وحكمة، يؤنسونه ويستشيرهم إن حزب أمر.

وتتأكد الرفقة والصحبة في السفر الطويل إذ يكره للإنسان أن يسافر وحده ويُستحب أن يسافر مع غيره، فقد يحتاج إلى مساعدة مادية أو معنوية فيقوم رفاقه في السفر بذلك».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧١-١٧٢].

٢ ـ العقوبة الرادعة لأعداء الإسلام:

يقول عميد/ فرج: «انتشر في المدينة وفي غيرها من البقاع ما أشاعته قريش عن انتصارها في أحد، وعما وقع بالمسلمين من الإصابات والقتل، وظن المنافقون ويهود المدينة وغيرهم من القبائل أن الفرصة قد حانت للقضاء على محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وتعرض المسلمون لعمليتي غدر فقدوا فيها عددًا من رجالهم يوم الرجيع وفي بئر معونة.

وتوقع رسول الله ﷺ تحركًا من يهود المدينة والمنافقين ضده، فهم يعايشونه عن قرب وينتهزون فرصة للغدر بالمسلمين وطعنهم، ولم يكن ﷺ مطمئنًّا إلى جوارهم أو وفائهم، فالمنافقون استتروا بالإسلام وظلوا يكيدون المسلمين من وراء هذا الستار، ولم يكن في الاستطاعة كشف ستر الإسلام عنهم، واليهود كانوا يرتبطون بالمسلمين بمعاهدة ألزمت هؤلاء بالوفاء بها، ولكن كان من الواضح أن يهود يعدون لعملية غدر؛ إظهارًا لما تنطوي عليه نفوسهم؛ ورغبة في الكيد والدسيسة وكشف العورات وانتهاز الفرص، وعلى الرغم من أن اليهود كانوا أهل كتاب ودعاة وحدانية، فإن تاريخهم سَجَّل خروجهم على الرسالات السماوية وإهدارهم للقيم الروحية والمبادئ الإنسانية، كما سَجَّل حقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين، حفاظًا على سلطانهم القائم على الأطماع.

وعلى الرغم من أن اليهود كانوا قد تعاقدوا مع رسول الله ﷺ أول قدومه المدينة! وأكدوا هذا التعاقد في وثيقة تاريخية، فإنهم لم يلتزموا بما تم التعاقد عليه، فقد ملأ نفوسهم الحقد والحسد، وأكلت قلوبهم الغيرة والغيظ، وباتوا يرقبون فرصة الانقضاض على الإسلام والمسلمين.

وعلى الرغم من أن رسول الله ﷺ وأصحابه قد عادوا إلى المدينة بعد أُحد دون أن تنال قريش منهم مأربًا، فإن يهود المدينة وجدوها فرصة مواتية للكيد له؛ ظنًا منهم أنه مازال يعاني جراح أحد، وبات واضحًا أن هناك صدامًا يبدو في الأفق على وشك الوقوع بين المسلمين ويهود بني النضير».

[العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ لفرج ٢٦٤].

ويقول الشيخ الغزالي: «إن نجاح الإسلام في ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبًا كثيرة، ولا ريب أن تأميل المسلمين في المستقبل، وارتقابهم المزيد من الفتح، زاد ضغن الضاغنين، وقد كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾[الأنفال].

غير أن هذه الكراهية اختفت أمدًا بعد انتصار «بدر»، بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف والمترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلبت الليالي بالمسلمين، ولحقتهم الهزائم انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان.

وقد أدرك النبي ﷺ هذه الحال بعد «أُحُد» فبذل جهده ليستعيد هيبة المسلمين ويوطد ما اضطرب من مكانتهم؛ ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين: المشركون يظنون الفرصة سانحة لإتباع «أُحُد» بمثلها أو أشد، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد.

على أن الخسائر تلاحقت بالمسلمين في «الرجيع» و «بئر معونة» كما مر بك، ودخل الإيمان في محنة بعد أخرى، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الواثقون صلتهم بربهم، واطمئنانهم إلى غدهم، وشرعوا

يردون الضربة بمثلها، فلما تحرك اليهود في هذه الآونة العصيبة ليغتالوا رسول الله ﷺ لم يتوان في إنزال العقوبة الرادعة بهم». [فقه السيرة للغزالي ٢٨٩-٢٩٠].

ويقول د/ الوكيل: «ولقد مثلت حادثتا الرجيع وبئر معونة أبشع غدر عُرف في حينه، حيث قُتل فيها رجال آمنون، خرجوا مع من قتلوهم، بطلب منهم، وبحجة أنهم سيعلمونهم أمور دينهم، ويفقهونهم فيه.

وقد شجع هذا القَدْر اليهود على أن يحذوا حذوه، وأيقظ فيهم جِبِلَّة فُطروا عليها، ولم يوارها في نفوسهم إلا الجبن الذي كان يغلب على كل ما جُبلوا عليه ما لم يتأكدوا من الأمان، وكان من ذلك خيانة بني النضير وتآمرهم على قتل الرسول ﷺ.

فكَّر الرسول ﷺ في هذه الأحداث تفكيرًا دقيقًا، وقد علم بخبرته وتجاربه أنه لو سكت على ذلك لتكالب الأعداء على المدينة، وأخذوا ينتهبونها، ولم يكن هناك ما يخيفهم أو يروعهم؛ لذا فقد عزم ﷺ على أخذ كل من تسول له نفسه التجرؤ على المسلمين بمنتهى الحزم الذي لا لين معه وبغاية الشدة التي لا هوادة فيها». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٣ -١٦٤].

٣ ـ تأمين الجبهة الداخلية:

يقول د/ هيكل: «وجد محمد ﷺ لقتلى بئر معونة أشد الوجد، وحزن من أجلهم أعمق الحزن وقال: هذا عمل أبي براء، لقد كنت كارهًا متخوفًا، وشق على أبي براء إخفار عامر بن الطفيل إياه، حتى لقد ذهب ابنه ربيعة فطعن عامرًا بالرمح انتقامًا منه لأبيه.

وبلغ من حزن محمد ﷺ أنه ظل شهرًا كاملًا يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قتلتهم، وتأثر المسلمون جميعًا لهذه الكارثة التي أصابت إخوانهم في الدين، وإن آمنوا بأنهم جميعًا استشهدوا، وبأنهم جميعًا لهم الجنة.

ووجد أهل المدينة من المنافقين واليهود فيما أصاب المسلمين بالرجيع وبئر معونة ما أعاد إلى ذاكرتهم انتصار قريش بأُحد، وما أنساهم نصر المسلمين على بني أسد، وما أضعف في نفوسهم من هيبة محمد وأصحابه، وفكر النبي ﷺ في هذه الحالة تفكير سياسي دقيق النظر بعيد مرامي الرأي، فليس شيء أشد على المسلمين يومئذ خطرًا من أن تضعف في نفوس مُساكنيهم بالمدينة هيبتهم، وليس شيء يطمع قبائل العرب فيهم مثل أن تشعر بهذا الانقسام الداخلي يوشك أن يثير حربًا أهلية إذا غزا المدينة غاز من جيرانها.

ثم إنه رأى اليهود والمنافقين كأنهم يتربصون به الدوائر، فقدَّر أن لا شيء خير من أن يستدرجهم لتتضح نياتهم، ولما كان اليهود من بني النضير حلفاء لبني عامر، فقد ذهب إلى محلتهم على مقربة من قباء، في عشرة من كبار المسلمين بينهم أبو بكر وعمر وعلي ﷺ، وطلب إليهم معاونتهم في دية القتيلين اللذين قَتلَ عمرو بن أمية ﷺ خطأ، ومن غير أن يعلم أن محمدًا ﷺ أجارهما».

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣١٨-٣١٩].

٤ ـ اليهود قتلة أنبياء وسفاكو دماء:

يقول د/ زيد: «لم يذكر التاريخ أمة بلغت ذروة الإجرام مثل بني إسرائيل، فقد كانوا على درجة عالية من الحمق والسفه خصوصًا مع الأنبياء والمرسلين، الذين أرسلهم الله للهداية والإرشاد إلى طريق الحق المستقيم.

فلا تكاد مرحلة تمر عليهم في تاريخ الرسالات دون أن يلطخوا أيديهم بدماء الأنبياء؛ ذلك لأن أنبياء الله يدعون إلى الخير والسمو وكل ما يحقق الانتصار على نوازع النفس وشهوات البدن، وكان بنو إسرائيل غارقين إلى أذقانهم في الوحل والرجس؛ ولهذا رفضوا دعوات الخير، واستراحوا إلى الشر الذي ألفوه وتعودوا عليه، وكانوا إذا جاءهم رسول من عند الله استكبروا عليه وتمادوا في الغي والضلال، وعاملوه معاملة سيئة لا تليق بكرامته عند الله حتى وصل بهم السفه في بعض الأحيان إلى القتل وإراقة الدماء.

وقد سجل القرآن الكريم عليهم ذلك في أكثر من موقف وجاءت بعض سوره حافلة بذكر هذه الجريمة الشنيعة التي تتمثل في قتل الأنبياء إرضاء لنوازع النفس والهوى.

نجد ذلك في قول الله ﷻ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[البقرة].

وكان جزاؤهم على هذا الجرم وغيره ما ورد في قوله جل شأنه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾[البقرة].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تناولت فضح جرائمهم، وكشف استعلائهم وغرورهم.

ولم يتوقف تيار الجريمة عند حد، بل استمر في تتابعه ميراثًا يرثه الأبناء عن الآباء حتى كان الجيل الذي عاصر رسول الله ﷺ في المدينة.

فعلى الرغم من معرفتهم بأمر الرسول ﷺ وما جاء به من كتبهم المقدسة وانتظارهم لمبعثه ليكونوا معه على الأوس والخزرج جيرانهم في المدينة، إلا أنه ﷺ عندما جاء إليهم ودعاهم إلى الدخول في الدين،

أنكروا ما جاء به وتمالؤوا مع أعدائه حقدًا وبغيًا، وجعلوا يتدارسون أمره في صباحهم ومسائهم حتى وصل بهم الأمر إلى التفكير في قتله والفراغ منه.

ولأمر ما جاء التعبير القرآني هكذا في قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[البقرة].

فقد عبر بالماضي عند ذكر تكذيبهم للأنبياء، بينما عبر بصيغة المضارع في حالة القتل؛ للدلالة على استمرارية الفعل منهم.

قال الإمام ابن كثير: لم يقل (وفريقًا قتلتم) لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل؛ لأنهم حاولوا قتل رسول الله ﷺ بالسم والسحر. [ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ١٢٣].

فاليهود في المدينة لم يهدأ لهم بال منذ حل رسول الله ﷺ بها، فجعلوا يحرضون المنافقين عليه، ويكثرون من الجدل في محاولة لتعجيز رسول الله ﷺ، ولكن الله يطلعه دائمًا على ما يبيتون له».

[عشرون محاولة لاغتيال الرسول ﷺ لزيد ١٢٩-١٣١].

ويقول د/ أبو فارس: «اليهود قتلة أنبياء وسفاكو دماء، هذا ما نلاحظه من تصرفات بني النضير وغيرهم من اليهود قبل البعثة المحمدية وبعدها وحتى يومنا هذا، فهم يتعطشون لسفك دماء غير اليهود، ويجدون متعة في ذلك.

إن الذي يقرأ تاريخهم مع أنبيائهم وصالحيهم يجد أنهم كانوا يتآمرون على أنبيائهم، ويدسون عليهم، ويؤلبون الحكام على قتلهم، فقد تمكنوا من قتل يحيى وزكريا عليهما السلام وحاولوا قتل عيسى عليه السلام فنجاه الله من ذلك وجعل كيدهم في نحورهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

ولقد سجل القرآن الكريم جريمتهم هذه في سورة المائدة، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[المائدة].

إن صفة العدوانية عندهم، وخصلة التمرد على أوامر الله ـ تبارك وتعالى ـ ملازمتان لهم، لا تفارقانهم، فلا غرو إذن أن يستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله، على ألسنة نفر من أنبيائهم كعيسى بن مريم وداود عليهما السلام، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾[المائدة].

وبعد ميلاد الرسول ﷺ ونشأته حذَّر الراهب بحيرى عمه أبا طالب من خطر يهود على محمد ﷺ الغلام. (أنكر علماء بعض ما ورد في هذه القصة وردَّها، ولكن صحح علماء كثيرًا من أحداثها. ينظر: صحيح السيرة النبوية المسماة بالسيرة الذهبية لطرهوني ١/ ٢٥٥-٢٦١ هامش رقم ١٠٦).

وعند مقدمه المدينة تعرض ﷺ لمؤامرات وافتراءات وتشكيك من يهود، ومن هؤلاء يهود بني النضير إذ تآمروا عليه واجتمعوا على أن يلقوا حجرًا على رأسه يجعلونه خبزة.

وإذا كان اليهود ـ لعنهم الله وأخزاهم ـ لا يقيمون وزنًا لأنبيائهم، ولا يحفظون حُرمة لدمائهم، ولا لأعراضهم، فكيف يقيمون وزنًا لغيرهم ويحفظون حرمة لدمائهم؟!

إذا كانوا لا عهد لهم ولا ذمة مع أنبيائهم فهل يكون لهم عهد مع غيرهم؟!

إن المذابح التي شنها اليهود في أكثر من مكان في فلسطين كمذبحة: قبية، ودير ياسين، وجوسان، وفوكين، وفي خارج فلسطين كـ: صبرا وشاتيلا بالتعاون مع غيرهم من الصليبيين لا تُستهجن؛ لأن الشيء إذا صدر عن أهله لا يُستغرب ولا يُستهجن، ولكن الذي يُستهجن أن يجهل الناس أو يتجاهلوا وينسوا أو يتناسوا طبيعة يهود العدوانية، وأخلاقهم السيئة، وأحقادهم على كل خير وأهله، فيُقبلوا على تطبيع العلاقات معهم، ويطمئنوا لعهدهم، ويسيروا في طريق وعر يفضي إلى الهلكة».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٦٩-١٧١].

٥ ـ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾:

يقول د/ أبو فارس: «إن ما ناله النضير من جلاء عن أوطانهم وأموالهم هو بعض ما يستحقونه من جزاء، وعقوبة، إنهم ارتكبوا الخيانة العظمى، إذ عزموا وصمموا على الاعتداء على حياة رئيس الدولة، وهذا يستوجب إزهاق هذه الأرواح الخبيثة، وتطهير المدينة من رجسها، ولكن حكمة الله ـ تبارك وتعالى ـ اقتضت ألا يكون مصيرهم القتل والاستئصال؛ ليفسح المجال لهم حتى يعتبروا أو يتعظوا، ومن ثم ليعودوا إلى الحق، ويدخلوا في هذا الدين.

ومن المؤسف حقًّا أن هؤلاء اليهود لم يتعظوا ولم يعتبروا، بل قست قلوبهم فهي كالحجارة الصلدة أو أشد قسوة. [سبق أن أوردنا مقولة كنانة بن صويراء لليهود؛ بما يثبت تيقنهم من نبوته ﷺ، ولكنه العناد والكبر].

كان الأجدى لهم أن يتعظوا ويراجعوا حساباتهم ومواقفهم من هذا الدين ونتائج هذه المواقف، ويتداركوا الموقف قبل فوات الأوان، فيقلعوا عما هم فيه من الفساد والإفساد، ويتوجهوا نحو النور الذي جاء به محمد ﷺ من ربه، وقد بشرت التوراة وبشر الإنجيل به، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٠].

٦ ـ اليهود هم اليهود:

يقول د/ الزيد: «لقد ربطت الآيات القرآنية الكريمة بين اليهود المعاصرين للرسول ﷺ والسابقين، في سوء الأخلاق والمكر وعدم التناهي عن الإثم والمنكر واستحقاقهم لعنة الله على ذلك جريًا على الأسلوب القرآني الذي يستهدف تقرير أن ما عليه المعاصرون من أخلاق وما يقفونه من مواقف هو جبلة متوارثة عن الآباء يتوارثها الأجيال من بعدهم جيل بعد جيل.

[ينظر: سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة ٢/ ١٨٥ - ١٨٦].

وهو ما نراه اليوم من اليهود المعاصرين لنا الذين يحتلون فلسطين ويدنسون حرمة بيت المقدس ويعتدون على حرمات المسلمين وديارهم وأموالهم، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ٨٠ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨١ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ ﴾[المائدة]. **[ينظر: اليهودية والمسيحية لمحمد ضياء الرحمن الأعظمي ص ٩٢-٩٧].**

[فقه السيرة للزيد ٣٥٩].

ويقول الشيخ أبو خوات: «ولسنا في حاجة إلى ذكاء كبير لنأخذ العبرة والدرس، فما يزال في العالم يهود وما يزال النفاق سائدًا على سائر الأخلاق، ولقد أبى اليهود أن يعيشوا بجوار العرب وفي أرضهم كما كان آباؤهم يعيشون، فشغبوا على العرب مستندين على سادة النفاق في العالم، وما إخال المنافقين اليوم سيتغيرون كثيرًا عن منافقي المدينة بالأمس البعيد، كما أن يهود اليوم لم يتغيروا عن يهود النضير وقريظة، الغدر واللؤم والوقيعة وإثارة الحروب والمنازعات في دمائهم وطبائعهم، والأمر لا يحتاج إلى أكثر من شجاعة مسلمي الصدر الأول ويقين أصحاب الرسول ﷺ، وبذلك تتمثل كل طائفة في عصورنا الحاضرة بمن كانوا في غزوة بني النضير: أُمة آمنت بربها وبرسولها وبأن الموت في سبيل الله أشهى من كل حياة يشوبها أقل ألوان الذل والخضوع، وجماعة عنصرية فاجرة غادرة نهازة لكل فرصة مهما كانت لا تمُتُّ بسبب إلى معنى الأخلاق، وجماعة أخرى كان لهم عز وجاه وعظمة وآمال ملك وسلطان، لم يفاجئهم فيها إلا هذه الأمة المؤمنة التي تقيم العدل والحق وتكره الظلم والطغيان.

إن التاريخ يعيد نفسه أحيانًا، وها نحن اليوم: اليهود هم اليهود، يستندون على تأييد جبهة النفاق والحقد واسترجاع السلطة فتعدهم بكل التأييد، والعرب هم سلالات أولئك الذين وقفوا خمس عشرة ليلة فقط لينتهي كل شيء دون قتال، بيد أني أرى أن ما باليهود والمنافقين يوم النضير من الغدر والحقد لم

ينقص اليوم وإنما زاد، وأما ما كان بالمسلمين من الإيمان وحب الاستشهاد واسترخاص الحياة والشجاعة والإقدام وطاعة الله ورسوله فقد اعتراه النقص والضعف وأخشى أن يكون قد زال.

ولو قد عرف المسلمون أسلحة النصر الحقيقية فشحذوها واستخدموها عن يقين وإيمان لحققوا بها اليوم أكثر مما حققوا بها بالأمس، وإن شئت فاقرأ ما حدث لبني النضير من سورة الحشر قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾[الحشر].

وهكذا تعطينا هذه الكلمات الصادقة ـ لأنها كلمات رب العالمين ـ صفات اليهود الحقيقية:

(١) أنهم يعتمدون على غيرهم في كل أدوار حياتهم، فهم كلاب الصيد في كل زمان.

(٢) أنهم جبناء لا يقاتلون وجهًا لوجه وإنما القرى المحصنة دأبهم وطريقتهم.

ولعل المستعمرات المحصنة التي يقيمها اليهود في النقب وعلى الحدود المزعومة تؤكد لكل متشكك صدق كلام أصدق القائلين.

(٣) أنهم لا يخشون الله كما يخشون الناس، وبخاصة العرب والمسلمين.

ومن هنا يظهر لنا السبب الحقيقي في الفظائع التي يفعلونها بكل من يقع في أيديهم من العرب والمسلمين، ومن هنا أيضًا فإن قلوبهم متعلقة بحطام الدنيا، وكل فرد منهم له هدف دنيوي يسعى إليه، فإذا كانوا في ظاهر أمرهم مجتمعين فإنهم في حقيقة أمرهم متفرقون: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٦٩-٧٢].

ويقول د/ الزيد: «تعطينا هذه الأحداث بجملتها مجموعة من العبر والعظات التي يجب التبصر بها، والعمل بما تمليه علينا من سلوك نسلكه في مواجهة اليهود في كل عصر، والأمة الإسلامية في عصرها الحاضر في حاجة ملحة إلى أن تستفيد من تجارب من سبقها بعظات هذه التجارب كي لا تتعثر في خطواتها وتصاب بالغشاوة في مسيرتها». [ينظر: مكايد اليهود لعبد الرحمن بن حبنكة الميداني ص ١٢٦].

[فقه السيرة للزيد ٣٥٩-٣٦٠].

٧ ـ قيمة العهود عند المسلمين وعند اليهود:

يقول د/ فيض الله: «رأينا قبل غزوة بني قينقاع كيف كان المسلمون أوفياء بعهودهم، جادِّين في معايشة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين يلتقون بهم في الإيمان بالرسالات والكتب السماوية،

وأن اليهود كانوا عند أسوأ الظن، فقد عاشوا مع المسلمين في المدينة، يحرجون صدورهم، ويلمزون بدينهم ونبيهم، ويعينون عليهم أهل الشرك، الذين لا يلتقون معهم بنبي مرسل، ولا بكتاب منزل، ويسعون في نقض دولتهم الفتية من القواعد، كلما أرسوا لها ركنًا، حاولوا أن ينقضوا منها أركانًا.

وقد كشفت تلك الغزوة، ضغينة القوم، وخبثهم المَبَطَّن، ونقضهم الوثيقة والعهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، بأسلوب دنيءٍ وهابطٍ مُزْرٍ، عبث بحجاب المرأة المسلمة الرزين، وكرامتها المصونة.

وكان ذلك في منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة.

وغزوة بني النضير هذه كانت في شهر ربيع الأول في السنة الرابعة للهجرة، وكانت غدرًا خبيثًا، ومكرًا سيئًا، بشخص الرسول ﷺ نفسه.

ففي الوقت الذي سعى إلى اليهود، يستعينهم في دية قتلى بني عامر، للعهد الذي كان بينه وبينهم، كان اليهود يبيتون الغدر به، وبينهم وبينه عهد وميثاق.

يا لله للوفاء العجيب المتسامي إلى القمة، ولنقض العهد في أبشع صور الخسة والجبن والحقارة.

وليتمثل المسلم وفاء الرسول ﷺ رئيس هذه الدولة المسلمة النامية، بالتزاماتها حيال ما قطعته على نفسها من عهد الجوار، وليس في خزانتها ما يَدِي قتيلين؛ فلا يمهل، ولا يعطل، ولا يُرْجِئْ، بل يسعى ليقترض في دفع الدية، وفاءً بما التزم، وليتصور كيف تحاك ضده ـ وهو في أنبل طرق الوفاء، وصدق التعاقد ـ أحط مؤامرة، تحاك لكي تودي بحياته المثلى، ورسالته الإنسانية العليا.

إن دولة الإسلام، كشرعة الإسلام، لا تعرف إلا الوفاء، ولا وجود للغدر في دستورها، إنها التزمت الوفاء كأشد ما يكون الالتزام، وكأروع ما يكون؛ ولهذا ضربت المثل في عهودها المتلاحقة، كما أن دولة اليهود لم تعرف إلا الغدر ونقض العهود، كأبشع ما يكون الغدر ونقض العهد، وتاريخها مع المسلمين، وغير المسلمين، حافل بالأحداث والشواهد المخجلة المؤسفة اللاإنسانية.

ولتأكيد قيمة العهود، والوفاء بالالتزامات والعقود، نزلت هذه الآيات القطعيات في محكم التنزيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[المائدة: ١]، ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾[النحل: ٩١].

وكان الوفاء بالعهد من أبرز صفات المؤمنين، كما أنه من صفات رب العالمين: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[البقرة: ١٧٧]، ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: ١١١].

فهل يُقَدِّر المسلمون هذه الصفة النبيلة حق قدرها؟ وهل يرعونها حق رعايتها، في التصور والتطبيق، ولا يكونوا كاليهود، الذين تنكَّر لها تاريخهم الطويل القائم، فتخوَّضوا في وديان سحيقة من الأنانية البغيضة، والمادية المسرفة، والعنصرية المنبوذة المنكرة؟». [صور وعبر لفيض الله ١٦١-١٦٣].

وبإجلاء الرسول ﷺ لليهود من المدينة بعد نقضهم لتلك الوثيقة ينتهي أثرها وتصبح لاغية لا قيمة لها وهو ما أكده حديث الرسول ﷺ عندما أمر بإخراج اليهود من جزيرة العرب في آخر حياته ﷺ.

[أخرجه الإمام أحمد في المسند ١/ ١٩٥، وقال الهيثمي في المجمع ٥/ ٣٢٥: رواه أحمد بأسانيد ورجال طريقين منها ثقات متصل إسنادها]. [فقه السيرة للزيد ٣٦٠].

ويقول د/ أبو فارس: «قد يخنس اليهود في فترة من الفترات عن مهاجمة المسلمين والنَّيْل منهم، وقد يسكنون ويهدؤون، لكن هذا الهدوء ليس نابعًا من حرصهم على العهود ومحافظتهم عليها، ولا رغبة منهم في مسالمة المسلمين، وإنما يعود هذا الموقف الطارئ في حياتهم إلى أنَّ الظروف غير مواتية للغدر والخيانة، وحين يشعرون بأن الكفة قد تكون في صالحهم، وتخدم أغراضهم وأهواءهم، فإن نقض العهد عندهم ونكثه من أحب الأمور إلى نفوسهم المنحرفة.

هذا ما حدث ليهود بني النضير بالضبط، إذ تجرأوا على رسول الله ﷺ بعد ما تراءى لهم أن المسلمين بعد أُحُد والأحداث التي تلتها قد ضعفت قواهم وتمزق شملهم، والفرصة قد واتت لتوجيه ضربة قاضية للمسلمين بالاعتداء على حياة القائد الرائد رسول الله ﷺ». **[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٦٨].**

ويقول د/ باقازي: «وصفوة القول: إن في قصة بني النضير عبرة للمسلمين؛ ليحذروا غدر اليهود وخيانتهم، فلا يثقوا بهم، أو يأتمنوهم على شيء، بل يعاملوهم بحذر، ويأخذوا جميع الاحتياطات الضرورية لحماية الجماعة الإسلامية من غدرهم، فيعاملوهم على أنهم غدارون، فيحتاطون لذلك، فلا ينخدعوا بهم كما انخدع سائر الأمم، فآووهم حين كانوا مشردين، ونصروهم حين كانوا مستضعفين، وأغنوهم حين كانوا فقراء، فلما تمكنوا في الأرض غدروا بهم، واعتدوا عليهم، فاستلوا على مقدراتهم وخيراتهم». **[بنو النضير من خلال سورة الحشر لباقازي ص ١٧١-١٧٢].**

٨ ـ التربية الإسلامية:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللهِ عز وجل: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ قَالَ: اللِّينَةُ النَّخْلَةُ ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ قَالَ: اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، قَالَ: وَأُمِرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ فَحَكَّ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكْنَا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ الله ﷺ: هَلْ لَنَا فِيمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ، وَهَلْ عَلَيْنَا فِيمَا تَرَكْنَا مِنْ وِزْرٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ الآيَةَ. **[الترمذي في تفسير القرآن (٣٣٠٣)، وقَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ].**

يقول أ/ الصوياني: «هذا هو الإسلام، وهؤلاء هم المسلمون، وهذه هي التربية الإسلامية التي لا تنحصر بين أروقة المساجد وجدران البيوت، تربية تنتشر في كل اتجاه، وتصاحب المؤمن في كل مكان وتحت أي ظرف، في أوج الحروب وبين بريق السيوف والدماء يتوقف المسلمون ليسألوا رسول الله ﷺ

عن صحة تصرفهم مع سحوق أو فسيلة نخل، الإسلام يربي أصحابه في التعامل مع كل شيء حتى مع جذوع النخل بعد أن أرشدهم إلى التعامل مع جذوع الخيانة وجذورها اليهودية».
[السيرة النبوية للصوياني ٢/ ١٦٦].

٩ ـ حسد اليهود للمسلمين:

يقول د/ الزيد: «يتبادر إلى القارئ سؤال مهم وهو يرى اطلاع أهل الكتاب وعلمهم بالبعثة النبوية وصدق الرسول ﷺ، ثم لم يستجيبوا له وخاصة أحبار اليهود.

والإجابة صريحة في كتاب الله، تشهد على حسد اليهود، قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾[البقرة]. [ينظر: قضايا ومباحث في السيرة لسليمان بن حمد العودة ص ٩٥].

والحسد داء بُليت به الأمم والأفراد، وحال بين كثير من الناس واتباع الحق، وجرَّهم إلى رد كثير من الخير، والوقوع في المعاصي عن قصد ومعرفة، ولم يقتصر وقوعه من الكفار، بل هو واقع حتى بين المسلمين مع أنه من أشد الذنوب، يقول ابن القيم رحمه الله: (فالكبائر كالرياء والعجب والكبر والفخر... والفرح والسرور بأذى المسلمين والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة). [تهذيب مدارج السالكين (هذبه عبد المنعم بن صالح العلي العزي) ص ٨٦].

والمؤمن يأخذ العبرة والعظة من غيره، فلا يَحُول الحسد بينه وبين شيء من الحق، ولا يقع في منزلة الحسد الذي هو ذنب من أعظم الذنوب التي يرتكبها القلب، وفي غفلة عما يدل عليه من الاعتراض على الله سبحانه في تقديره، وفي جهل بأثر ذلك على السلوك والتعامل». [فقه السيرة للزيد ٣٦٠-٣٦١].

١٠ ـ عن الرحمة:

يقول أ/ فتح الباب: «أولئك هم اليهود تأبى يهوديتهم إلا أن تغلب عليهم في جميع المواقف، إنهم أرباب الفساد في الأرض، والمحرضون على الفتنة، ومثيرو الحروب، والوالغون في دماء الضحايا منذ أقدم عصور البشرية، لا ينهاهم وازع من ضمير، ولا إيمان بقيمة من القيم، ومع ذلك فهم يذكرون الصلاح والخير والعدل والشفقة حين يُؤخذون بجرائمهم ويعاقبون على إفسادهم، ويطلبون الرحمة بهم ـ إذا عجزوا ـ وهم الظالمون، ولا يستعملونها إذا قدروا مع المظلومين.

وكذلك أحق الله الحق وأبطل الباطل، فتباكى يهود بني النضير المجرمون حين أدركهم اليأس فانصاعوا صاغرين لأمر النبي ﷺ وسألوه الإبقاء على حياتهم وأموالهم وأولادهم حتى يخرجوا من

المدينة، فاشترط عليهم أن يجلوا منها ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاؤوا من مال أو طعام أو شراب، ليس لهم غيره.

وتطهرت منهم أرض يثرب حيث لحقوا ببني قينقاع في أذرعات على الشام، وأقام بعضهم مع يهود خيبر، وبدأ النبي ﷺ من جديد يرسي دعائم الجبهة الداخلية بعد أن وقاها شر الحرب الأهلية بقضائه على الفتنة في مهدها، ولم يجرؤ المنافقون على أن يرفعوا رؤوسهم بعد أن اجتثت أصول الشجرة الملعونة.

وفي إجلاء يهود بني النضير عن المدينة وتراخي ابن أبي وسائر المنافقين عن معاونتهم كما وعدوهم جبنًا من المسلمين، نزل قول الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾[الحشر].

وتَصِمُ هذه الآيات اليهود بالكفر وتزعزع الإيمان، كما يدل عليه خوفهم من المؤمنين دون الله تعالى، ومفهوم المخالفة ـ كما يعبر فقهاء القانون ـ أن الدليل على صدق الإيمان هو الخوف من الرب لا العبد، فللإيمان على النفس التي تعرف قيمته سلطان لا يعدله سلطان مهما بلغ شأنه؛ لأن في عقيدتها ألا سلطان لغير الله، وصدق الله العظيم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[آل عمران]».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٢٢١ –٢٢٣].

ويقول د/ أبو خليل: «والرحمة هنا لا محل لها في موقفين متباينين، تناقضت فيهما التصورات، طرف متسامح يطرح المحبة والتعاون والتعايش بأمان، وطرف حاقد ماكر ناكث الوعد، ينفذ التآمر والقتل.

إن تصرفات اليهود سيطرت عليها روح الحفاظ على الامتيازات التي تمتعوا بها عندما كان العرب فِرقًا وقبائل متنافسة، ولكن هيهات أن تنجح هذه الأحلام في ظل الإسلام، فما كان من عند الله يُمضه».

[غزوة الخندق لأبي خليل ٣٥-٣٦].

١١ ـ سماحة الإسلام ورحمته بأعدائه:

يقول أ/ رضوان: «هل الإسلام يقوم على إرغام الناس على الدخول فيه بالسيف؟

لو كان الأمر كذلك كما يدعي أعداء الإسلام، فلماذا لم يرغم الرسول ﷺ هؤلاء الأسرى على الإسلام وهم الذين فكروا في اغتياله والقضاء على الإسلام؟!

حقًّا لقد صدق في أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم قول رسول الإسلام ﷺ: «**إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ [فَافْعَلْ] مَا شِئْتَ**». [البخاري في الأدب (٦١٢٠)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٩)].

ولا شك أن إخراج اليهود من بني النضير من المدينة من أعظم الأدلة على سماحة الإسلام، ورحمة الرسول القائد ﷺ.

وخير دليل على أنه حقًّا رسول من عند الله رب العالمين أرسله رحمة للعالمين؛ لأنه لم يغضب لنفسه، وينتقم من هؤلاء اليهود الذين أرادوا الغدر به شر انتقام.

إذ جرت سنن الطبيعة البشرية على أن الإنسان يغضب لنفسه أشد أنواع الغضب.

وقد ذكر لنا التاريخ عن قادة قتلوا عشرات الألوف وحبسوهم واعتقلوهم وعذبوهم لمجرد الخوف منهم فضلًا عن التفكير العملي في اغتيالهم». [**محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨٠-٨١**].

١٢ ـ لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله:

يقول د/ فيض الله: «كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرسول ﷺ في المشهد الذي صورناه، غاية في الخسة والوضاعة؛ وكانوا يبتغون من مكرهم وغدرهم عزةً ورفعةً، ومجدًا وغلبةً، لكن القدر سَخِر منهم، فنجَّى الرسول ﷺ وكذَّب عزتهم، وأهوى رفعتهم، وقوَّض مجدهم، وكسر غلبتهم، وخرب بيوتهم، ورحَّلهم عن الديار، شر ما يكون الترحيل.

ولم يكلف ذلك كله المسلمين، قتالًا ومواجهةً، ولا اصطدامًا مسلحًا، لكنه الخوف الذي قذف الله تعالى به في قلوبهم، فطلبوا النجاة بأرواحهم في ذلة وخزي، مخلِّفين وراءهم ثراءً عريضًا، وملكًا كبيرًا، حازه المسلمون غنيمةً باردةً.

وقد جاء البيان القرآني الرفيع، في وصف ذلك المشهد الفظيع: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

هذه عاقبة المكر السيئ، والغدر المشين، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى موطن العبرة، في هذه الموقعة، وإلى هذا التهديد الذي أعلنه لكل مَنْ يسلك سبل المكر المزري، والحقد المستبد، وقال: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾.

فهل للمسلم أن يعتبر، وهو الناظر الدارس في مسلك اليهود الماكر، أن ينتفع بما أحاط بهم، وأحبط تآمرهم، وكلفهم من ثمن غال، دفعوه راغمين مقابل مكرهم السيء؟

بل هل للمسلم أن يجتنب المكر بأخيه المسلم، الغافل الخالي، السليم الطوية، الصافي السريرة، فيحب له ما يحب لنفسه، ويكره ما يكره لها؛ ليكون في مسلك الإخوة المؤمنين، وفي مستوى الإيمان الرفيع الغالب؟

اللهم نظِّف قلوبنا، وطهرها من كل مرض، واغسلها بكل مُنَقٍّ مُعَقِّم، اللهم واجعل سريرتنا خيرًا من علانيتنا، واجعل علانيتنا صالحة». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٦٧-١٦٨].

١٣ ـ الإيثار:

يقول د/ أبو فارس: «لقد تجلى خلق الإيثار في الأنصار بشكل واضح في موقفهم من توزيع الفيء على المهاجرين على أن يتركوا للأنصار ما شاركوهم فيه من عقار ومال، فأبى الأنصار إلا أن يأخذوا الفيء ويبقوا على الأموال.

إن خلق الإيثار ترسخ ونما في هذا الحادثة، فاستحقوا المدح والثناء من الله ومن رسوله ﷺ، ومن إخوانهم المهاجرين، وهذا الشرف ظلوا يحرصون عليه، فهو منقبة تتضاءل أمامها كثير من المناقب، وخصلة حميدة تهزل أمامها كثير من الخصال، ولا غرو أن نسمع قول الله ـ تبارك وتعالى ـ يمتدحهم فيقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

والإيثار في المفهوم الإسلامي أن تقدِّم أخاك المسلم على نفسك في المَغْنَم، وأن تتقدم أمامه تفديه بنفسك في المَغْرَم.

ولقد قام الأنصار ـ رضوان الله عليهم ـ بالإيثار وتخلقوا به بشقيه، فتناقص الأنصار، وقل عددهم بشكل ملحوظ بسبب الحروب بين أعداء الله وبين المسلمين، ولقد أشعر الرسول ﷺ المسلمين بهذا الأمر بأن الناس يزدادون والأنصار يتناقصون، فأوصى بهم خيرًا.

والمسلمون اليوم مدعوون على المستويات الكافة أن يتخلقوا بالإيثار، يربون أنفسهم وأبناءهم وأصدقاءهم عليه.

إن البشرية اليوم ضاربة في أعماق التيه، غارقة في بحر من الآلام والضياع، ممزقة إلى شراذم متدابرة متشاحنة متضاغنة متحاسدة، تسيطر عليها الأنانية لبعدهم عن منهج الله ﷻ وشرعه، وجفائها لهذه القيم الإيمانية والأخلاق الإسلامية، فهي مدعوة ـ أيضًا ـ إلى هذا الدين عقيدة وشريعة ونظام حياة».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٢-١٨٣].

١٤ ـ المقام السامي للصحابة الكرام ﷺ:

يقول د/ زيدان: «ذكرنا ثناء الله تعالى ومدحه لصحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار في سورة الحشر بمناسبة ذكر المستحقين لأموال بني النضير، وهي أموال الفيء التي أفاء الله بها على رسوله والمشار إليها في سورة الحشر.

وقد حَكَمَ سعدُ بن معاذ ﷺ في بني قريظة، ولم يتأثر بحلف قديم بين قومه (الأوس) وبين يهود بني قريظة، مفضلًا بل وعاملًا بمقتضى ولائه لله ولرسوله وللمؤمنين، ومتبرئًا من موالاة غيرهم والانحياز إلى هذا الغير.

فعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة تعريف المسلمين بالمقام السامي للصحابة الكرام ﷺ، والمنزلة العالية التي نالوها في خدمة الإسلام، وتفهيم المسلمين وجوب محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وحرمة بُغضهم أو الحقد عليهم أو سبهم أو تنقيصهم، وتفهيم المسلمين بأن الله مدحهم في كتابه العزيز، وشهد لهم بالصدق والإيمان وبرضوانه عليهم، وأن متبعيهم بإحسان يصيبهم رضوان الله، وأن مبغضهم والحاقد عليهم ومن سبهم أو انتقصهم مستحق لسخط الله.

فعلى الدعاة أن يوضحوا ذلك للناس لا سيما في الأماكن التي يعلن بعض الجهلة والمبتدعة سبَّ صحابة رسول الله ﷺ علانية وجهارًا.

فعلى الدعاة أن يستشهدوا بما نزل من كلام الله من عقاب سيحل بهؤلاء، كما أن عليهم أن يذكِّروهم بما ورد من أحاديث في مدحهم والثناء عليهم، وخاصة ما ورد في مناقب الخلفاء الراشدين، وهناك أحاديث في مناقب تخص أشخاصًا بأعيانهم من المهاجرين والأنصار، وإنما خصصت مناقب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ؛ لأن أكثر سبِّ المبتدعة يتعلق بهم». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٩١-٢٩٣].

المطلب الثالث

الدروس الفقهية

١ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي اسْتِعَانَتِهِ بِمَنْ طَلَبَ الاسْتِعَانَةَ بِهِ مِنْ الكُفَّارِ، وَفِي مَنْعِهِ مَنْ مَنَعَهُ مِنْ الكُفَّارِ مِنْ القِتَالِ مَعَهُ:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: نَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ الفُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ الأَسْلَمِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ قِبَلَ بَدْرٍ، فَلَـمَّا كَانَ بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ، قَدْ كَانَ يُذْكَرُ مِنْهُ جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، فَفَرِحَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حِينَ رَأَوْهُ، فَلَـمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ، وَأُصِيبَ مَعَكَ،

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله ﷻ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَ: ثُمَّ مَضَى حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالشَّجَرَةِ أَدْرَكَهُ الرَّجُلُ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: «**ارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَ: فَرَجَعَ فَأَدْرَكَهُ بِالبَيْدَاءِ فَقَالَ لَهُ كَمَا قَالَ أَوَّلَ مَرَّةٍ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**فَانْطَلِقْ**».

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عُثْمَانَ قَالَ: ثنا نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ قَالَ: ثنا ابْنُ الْمُبَارَكِ قَالَ: ثنا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ الْفُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَدْرٍ حَتَّى إِذَا كَانَ بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ أَدْرَكَهُ رَجُلٌ ذُو جُرْأَةٍ وَنَجْدَةٍ، فَلَمَّا رَآهُ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ فَرِحُوا بِهِ وَأَعْجَبَهُمْ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله ﷻ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِذِي الحُلَيْفَةِ أَدْرَكَهُ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: هَذَا فُلَانٌ قَدْ رَجَعَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ، فَقَالَ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله ﷻ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَارْجِعْ فَلَنْ نَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»، فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِظَهْرِ البَيْدَاءِ لَحِقَهُ أَيْضًا، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْرُجُ مَعَكَ فَأُقَاتِلُ وَأُصِيبُ، فَقَالَ: «**أَتُؤْمِنُ بِالله ﷻ وَرَسُولِهِ؟**»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَنَعَمْ إِذًا**».

وَحَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ عُمَرَ الزَّهْرَانِيُّ قَالَ: ثنا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ فُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يُرِيدُ بَدْرًا: أَخْرُجُ مَعَك، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**»، قَالَ بِشْرٌ: فَقُلْتُ لِمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ: أَلَيْسَ ابْنُ شِهَابٍ يُحَدِّثُ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ سَارَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَشَهِدَ حُنَيْنًا، وَالطَّائِفَ وَهُوَ كَافِرٌ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ سَارَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ وَلَمْ يَأْمُرْهُ رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ.

وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الكُوفِيُّ قَالَ: ثنا يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ قَالَ: ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، عَنْ مَالِكٍ عَنْ الْفُضَيْلِ بْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْمُشْرِكِينَ لَحِقَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَقَاتَلَ مَعَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**ارْجِعْ فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**».

وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: ثنا عَبْدُ الله بْنُ يُوسُفَ قَالَ: ثنا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عَنْ الْفُضَيْلِ ابْنِ أَبِي عَبْدِ الله، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ نِيَارٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ ﵂ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَ حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ عُثْمَانَ عَنْ نُعَيْمٍ عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ لِقَاءَ رَسُولِ الله ﷺ بِذِي الحُلَيْفَةِ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَكَانَ فِيمَا رَوَيْنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَوْلُهُ: «**إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**»، وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَيَّةَ عَنْ بِشْرِ بْنِ عُمَرَ عَنْ مَالِكٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ: أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ الله

ﷺ حُنَيْنًا، وَالطَّائِفَ وَهُوَ كَافِرٌ، وَطَلَبْنَا ذَلِكَ هَلْ نَجِدُهُ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ مُتَّصِلِ الإِسْنَادِ فَوَجَدْنَا فَهْدًا قَدْ حَدَّثَنَا قَالَ: ثنا يُوسُفُ بْنُ بُهْلُولٍ قَالَ: ثنا عَبْدُ اللهِ بْنُ إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ، عَنْ أَبِيهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ يَوْمَ حُنَيْنٍ جَعَلَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ يَقُولُ: لَا تَنْتَهِي هَزِيمَتُهُمْ دُونَ الْبَحْرِ، وَصَرَخَ كَلَدَةُ بْنُ الحَنْبَلِ وَهُوَ مَعَ أَخِيهِ لِأُمِّهِ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ: أَلَا بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ، فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ: **اُسْكُتْ فَضَّ اللهُ فَاكَ، فَوَاللهِ لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ**.

وَوَجَدْنَا الرَّبِيعَ الْمُرَادِيَّ قَدْ حَدَّثَنَا قَالَ: ثنا أَسَدُ بْنُ مُوسَى قَالَ: ثنا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بْنِ أَبِي زَائِدَةَ قَالَ: ثنا ابْنُ إِسْحَاقُ ثُمَّ ذَكَرَ مِثْلَهُ بِإِسْنَادِهِ، فَصَارَ مَا ذَكَرَهُ مَالِكٌ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ فِي أَمْرِ صَفْوَانَ مَوْجُودًا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ الَّذِي رَوَيْنَاهُ مُتَّصِلًا.

وَحَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ نَصْرٍ قَالَ: سَمِعْت يَزِيدَ بْنَ هَارُونَ قَالَ: أَنَا مُسْتَلِمُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ: ثنا خُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خُبَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: أَتَيْت رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُرِيدُ غَزْوًا أَنَا وَرَجُلٌ مِنْ قَوْمِي، وَلَمْ نُسْلِمْ، فَقُلْنَا: إِنَّا نَسْتَحْيِي أَنْ يَشْهَدَ قَوْمُنَا مَشْهَدًا لَمْ نَشْهَدْهُ مَعَهُمْ، قَالَ: «**أَوَ أَسْلَمْتُمَا؟**»، قُلْنَا: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ**».

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ شَيْبَةَ قَالَ: ثنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ ثُمَّ ذَكَرَ بِإِسْنَادِهِ مِثْلَهُ.

فَقَالَ قَائِلٌ: فَهَلْ يَدْفَعُ مَا رَوَيْته عَنْ أَمْرِ صَفْوَانَ فِي قِتَالِهِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ مُشْرِكٌ مَا سِوَاهُ مِمَّا رَوَيْته فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: «**إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**».

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ أَنَّ مَا رَوَيْنَاهُ مِنْ قِصَّةِ صَفْوَانَ لَيْسَ بِمُخَالِفٍ لِمَا رَوَيْنَاهُ فِي سِوَاهَا فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لَا أَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**»؛ لِأَنَّ قِتَالَ صَفْوَانَ كَانَ مَعَهُ ﷺ لَا بِاسْتِعَانَةٍ مِنْهُ إِيَّاهُ فِي ذَلِكَ.

فَفِي هَذَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ إِنَّمَا امْتَنَعَ مِنْ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَبِأَمْثَالِهِ وَلَمْ يَمْنَعْهُمْ مِنْ الْقِتَالِ مَعَهُ بِاخْتِيَارِهِمْ لِذَلِكَ، وَكَانَ تَرْكُهُ ﷺ الِاسْتِعَانَةَ بِهِمْ مُحْتَمِلًا أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾** ﴾ [آل عمران]، فَكَانَتْ الِاسْتِعَانَةُ بِهِمْ اتِّخَاذَهُ لَهُمْ بِطَانَةً، وَلَمْ يَكُنْ قِتَالُهُمْ مَعَهُ بِغَيْرِ اسْتِعَانَةٍ مِنْهُ بِهِمْ اتِّخَاذًا مِنْهُ إِيَّاهُمْ بِطَانَةً.

فَقَالَ قَائِلٌ: فَأَنْتُمْ قَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ دُعَاءَهُ الْيَهُودَ إِلَى قِتَالِ أَبِي سُفْيَانَ مَعَهُ، وَهُمْ مِمَّنْ لَا يَأْلُونَهُ خَبَالًا، وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ مَا قَدْ حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ شُرَيْحٍ

أَنَّهُ سَمِعَ الحَارِثَ بْنَ يَزِيدَ الحَضْرَمِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ ثَابِتِ بْنِ الحَارِثِ الأَنْصَارِيِّ عَنْ بَعْضِ مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ جَمْعُ أَبِي سُفْيَانَ لِيَخْرُجَ إِلَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَانْطَلَقَ إِلَى اليَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ فَوَجَدَ مِنْهُمْ نَفَرًا عِنْدَ مَنْزِلِهِمْ، فَرَحَّبُوا، فَقَالَ: «**إِنَّا جِئْنَاكُمْ لِخَيْرٍ، إِنَّا أَهْلُ الكِتَابِ، وَأَنْتُمْ أَهْلُ الكِتَابِ، وَإِنَّ لِأَهْلِ الكِتَابِ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ النَّصْرَ، وَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْنَا بِجَمْعٍ مِنَ النَّاسِ، فَإِمَّا قَاتَلْتُمْ مَعَنَا أَوْ أَعَرْتُمُونَا سِلَاحًا**».

قَالَ: فَفِي هَذَا الحَدِيثِ مَا يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا رَوَيْتُه فِي هَذَا البَابِ، فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ الله وَعَوْنِهِ أَنَّهُ لَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُخَالِفُ شَيْئًا مِمَّا رَوَيْنَاهُ فِي هَذَا البَابِ؛ لِأَنَّ اليَهُودَ الَّذِينَ دَعَاهُمْ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الحَدِيثِ إِلَى قِتَالِ أَبِي سُفْيَانَ مَعَهُ لَيْسُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِي الآثَارِ الأُوَلِ إِنَّهُ لَا يَسْتَعِينُ بِهِمْ، أُولَئِكَ عَبَدَةُ الأَوْثَانِ، وَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الكِتَابِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا مُبَايَنَةَ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَمَا عَبَدَةُ الأَوْثَانِ عَلَيْهِ فِي البَابِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا البَابِ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ الكِتَابِ الَّذِينَ نَجْتَمِعُ نَحْنُ وَهُمْ فِي الإِيمَانِ بِمَا يُؤْمِنُونَ بِهِ مِنْ كُتُبِ الله تَعَالَى الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى مَنْ أَنْزَلَهَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْبِيَائِهِ، وَنُؤْمِنُ نَحْنُ وَهُمْ بِالبَعْثِ مِنْ بَعْدِ المَوْتِ، وَأُولَئِكَ الآخَرُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، فَنَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الكِتَابِيُّونَ فِي قِتَالِ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ يَدٌ وَاحِدَةٌ، وَالغَلَبَةُ لَنَا لِأَنَّا الأَعْلَوْنَ عَلَيْهِمْ، وَهُمْ تُبَّاعٌ لَنَا فِي ذَلِكَ، وَهَكَذَا حُكْمُهُمْ إِلَى الآنَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ العِلمِ، مِنْهُمْ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ يَقُولُونَ: لَا بَأْسَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِأَهْلِ الكِتَابِ فِي قِتَالِ مَنْ سِوَاهُمْ، إِذَا كَانَ حُكْمُنَا هُوَ الغَالِبُ، وَيَكْرَهُونَ مَا سِوَى ذَلِكَ إِذَا كَانَتْ أَحْكَامُنَا بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَنَعُوذُ بِالله مِنْ تِلكَ الحَالِ.

فَقَالَ هَذَا القَائِلُ: فَأَنْتُمْ قَدْ رَوَيْتُمْ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ مَا يُخَالِفُ هَذَا يَعْنِي مَا حَدَّثَنَا عُبَيْدُ بْنُ رِجَالٍ قَالَ: ثنا هَدِيَّةُ بْنُ عَبْدِ الوَهَّابِ قَالَ: ثنا الفَضْلُ بْنُ مُوسَى السِّينَانِيُّ قَالَ: ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو عَنْ سَعْدِ بْنِ مُنْذِرٍ السَّاعِدِيِّ عَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ حَتَّى إِذَا خَلَفَ ثَنِيَّةَ الوَدَاعِ إِذَا هُوَ بِكَتِيبَةٍ خَشْنَاءَ فَقَالَ: «**مَنْ هَؤُلَاءِ؟**»، قَالُوا: بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَهُمْ رَهْطُ عَبْدِ الله بْنِ سَلَامٍ، وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَقَالَ: أَسْلِمُوا، فَأَبَوْا، قَالَ: «**قُلْ لَهُمْ فَلْيَرْجِعُوا، فَإِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ**».

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي هَذَا الحَدِيثِ «وَهُمْ قَوْمُ عَبْدِ الله بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ» لَيْسَ يَعْنُونَ بِذَلِكَ أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ لَيْسَ مِنَ اليَهُودِ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الرَّهْطِ الَّذِينَ يَرْجِعُ الأَنْصَارُ إِلَيْهِمْ بِأَنْسَابِهِمْ، وَلَكِنَّهُ جَدَلَ بِنِفَاقِهِ فَأَمَّا نَسَبُهُ فِيهِمْ فَقَائِمٌ، وَقِيلَ إِنَّهُمْ قَوْمُهُ؛ أَيْ لِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ بِمُحَالَفَتِهِ لَا بِمَا سِوَى ذَلِكَ.

قَالَ هَذَا القَائِلُ: فَهَذَا يُخَالِفُ مَا فِي الآثَارِ الأُوَلِ فِي مَوْضِعَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَإِنَّهُ جَعَلَهُمْ مُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ لَهُمْ: «**إِنَّا لَا نَسْتَعِينُ بِالْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ**»، وَأَمَّا الآخَرُ فَمَنْعُهُ إِيَّاهُمْ مِنَ القِتَالِ مَعَهُ، وَفِي حَدِيثِ ثَابِتِ بْنِ الحَارِثِ الَّذِي قَدْ رَوَيْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنَّا فِي هَذَا البَابِ دُعَاءُ رَسُولِ اللهِ ﷺ اليَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ إِلَى القِتَالِ مَعَهُ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ ﷻ وَعَوْنِهِ أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ غَيْرُ مُخَالِفٍ لِذَلِكَ الحَدِيثِ وَلَا شَيْءَ مِمَّا رَوَيْنَاهُ فِي هَذَا البَابِ؛ لِأَنَّ وَجْهَ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِهَؤُلَاءِ اليَهُودِ الَّذِينَ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ مَا قَالَهُ لَهُمْ فِي حَدِيثِ أَبِي حُمَيْدٍ كَانَ بَعْدَ وُقُوفِهِ ﷺ عَلَى مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ المُنَافِقِ مِنَ الحِلْفِ، وَالمُحَالَفَةُ هِيَ المُوَافَقَةُ مِنَ الحَالِفِينَ لِلحَالِفِينَ، فَكَانُوا بِذَلِكَ خَارِجِينَ مِنَ الكِتَابِ الَّذِي كَانُوا مِنْ أَهْلِهِ مِمَّا سِوَاهُمْ مِنَ اليَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا فِي النَّضِيرِ فِي ذَلِكَ بِحِلَافِهِمْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُحَالِفُوا مُنَافِقًا.

وَكَانَ أُولَئِكَ بِمَا حَالَفُوا المُنَافِقَ الَّذِي حَالَفُوهُ مُرْتَدِّينَ عَنْ مَا كَانُوا فِيهِ إِلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَكَانُوا بِذَلِكَ كَالمُرْتَدِّينَ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا إِلَى يَهُودِيَّةٍ أَوْ إِلَى نَصْرَانِيَّةٍ، فَلَا يَكُونُونَ بِذَلِكَ يَهُودًا وَلَا نَصَارَى؛ لِأَنَّ ذَبَائِحَهُمْ غَيْرُ مَأْكُولَاتٍ؛ وَلِأَنَّ نِسَاءَهُمُ اللَّاتِي دَخَلْنَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ غَيْرُ مَنْكُوحَاتٍ، فَمِثْلُ ذَلِكَ بَنُو قَيْنُقَاعَ لَمَّا حَالَفُوا عَبْدَ اللهِ بْنَ أُبَيٍّ المُنَافِقَ فَوَاطَؤُوهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ، وَوَافَقُوهُ عَلَى ذَلِكَ، خَرَجُوا بِذَلِكَ مِنْ حُكْمِ الكِتَابِ الَّذِي كَانُوا مِنْ أَهْلِهِ، وَصَارُوا مُشْرِكِينَ كَمُشْرِكِي العَرَبِ الَّذِينَ أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ لَا يَسْتَعِينُ بِهِمْ، فَلَمْ يَسْتَعِنْ بِهِمْ فِي قِتَالِهِ المُشْرِكِينَ لِذَلِكَ، فَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِمَّنْ تَمَسَّكَ بِكِتَابِهِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الَّذِي يَذْكُرُ أَنَّهُ عَلَى دِينِهِ فَمُخَالِفٌ لِذَلِكَ، وَلَا بَأْسَ بِالِاسْتِعَانَةِ بِمِثْلِهِ فِي قِتَالِ المُشْرِكِينَ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِمُشْرِكٍ، إِنَّمَا هُوَ كِتَابِيٌّ كَافِرٌ، وَهُوَ عَدُوٌّ لِلكُفَّارِ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ كَمَا نَحْنُ أَعْدَاءٌ لَهُمْ، وَاللهَ ﷻ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ». [تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٥/ ٤٥٤-٤٦٤].

٢ ـ جواز الاستعانة المالية بغير المسلمين المعاهدين في الدولة الإسلامية:

أُخذ هذا من طلب رسول الله ﷺ من بني النضير أن يساعدوه في دية الكلابيين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ﷺ. [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٦٨].

«ومن مجيء الرسول ﷺ إلى يهود بني النضير يستعين بهم في دية القتيلين نأخذ جواز أخذ الإعانات والتبرعات المالية فقط من غير المسلمين إذا كان جانبهم مأمونًا ولا يلحق المسلمين ضرر بذلك».

[ينظر: قرار المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي رقم (٦) في دورته العاشرة عام ١٤٠٨هـ، قرارات مجمع الفقه الإسلامي، (مكة: رابطة العالم الإسلامي د. ت) ص ٢٢٥]. [فقه السيرة للزيد ٣٥٨].

٣ ـ إباحة الحرب الاقتصادية ضد العدو [(١)]:

يقول صاحب الظلال: «يُطمئن الله ﷻ المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء الذين كفروا وشاقوا الله ورسوله من تقطيع نخيلهم وتحريقه، أو تركه كذلك قائمًا، وبيان حكم الله فيه، وقد دخل نفوس بعض المسلمين شيء من هذا: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر].

واللينة: الجيدة من النخل، أو نوع جيد منه معروف للعرب إذ ذاك.

وقد قطع المسلمون بعض نخل اليهود، وأبقوا بعضه، فتحرجت صدورهم من الفعل ومن الترك، وكانوا منهيين قبل هذا الحادث وبعده عن مثل هذا الاتجاه في التخريب والتحريق، فاحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص، يطمئن القلوب، فجاءهم هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله، فهو الذي تولى بيده هذه الموقعة، وأراد فيها ما أراد، وأنفذ فيها ما قدَّره، وكان كل ما وقع من هذا بإذنه، أراد به أن يخزي الفاسقين، وقطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه، وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته، وإرادة الله وراء هذا وذاك على السواء.

بذلك تستقر قلوب المؤمنين المتحرجة، وتشفى صدورهم مما حاك فيها، وتطمئن إلى أن الله هو الذي أراد وهو الذي فعل، والله فعال لما يريد، وما كانوا هم إلا أداة لإنفاذ ما يريد».

[الظلال ٦/ ٣٥٢٢-٣٥٢٣].

٤ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي قَطْعِ المُسْلِمِينَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَتَحْرِيقِهَا، وَفِي السَّبَبِ الَّذِي فِيهِ نَزَلَتْ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر]:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ سِنَانٍ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَا: ثنا أَبُو عَاصِمٍ النَّبِيلُ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَطَعَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَحَرَّقَ.

حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى قَالَ: أَنْبَأَ ابْنُ وَهْبٍ قَالَ أَخْبَرَنِي اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَقَطَعَ، وَهِيَ الْبُوَيْرَةُ وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بِالْبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

---

(١) يراجع حرب الرسول ﷺ الاقتصادية للمشركين، وحرب الكفار الاقتصادية على المسلمين على مدار العصور، في الهدف الاقتصادي لغزوة أحد من هذا الكتاب، وكذلك في سرية العيص بقيادة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكذلك سرية نخلة بقيادة عبد الله بن جحش رضي الله عنه، وسيأتي التأصيل الشرعي وتفاصيله في الحديث عن استعمال هذا السلاح الاقتصادي في حرب الرسول ﷺ لبني النضير في المبحث الثالث من هذا الفصل.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر].

حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ سِنَانٍ قَالَ: ثنا يَحْيَى بْنُ حَمَّادٍ قَالَ: ثنا جُوَيْرِيَةُ بْنُ أَسْمَاءَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَرَّقَ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ، وَلَهَا يَقُولُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه:

وَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ ... حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

فَأَجَابَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ:

أَدَامَ اللهُ ذَلِكَ مِنْ صَنِيعٍ ... وَحَرَّقَ فِي نَوَاحِيهَا السَّعِيرُ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَقَالَ قَائِلٌ: فِي حَدِيثِ يُونُسَ الَّذِي رَوَيْته مِنْ هَذِهِ الأَحَادِيثِ مَا قَدْ دَلَّ أَنَّ نُزُولَ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ﴾ الآيَةَ إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَ مِنْهُمْ مِنَ القَطْعِ وَالتَّحْرِيقِ مَا كَانَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ مُحَالٌ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ شَيْئًا إِلَّا مَا يُفِيدُ بِهِ أُمَّتَهُ، يَعْنِي لِيَسْتَعْمِلُوهُ فِي فَرَائِضِهِ عَلَيْهِمْ وَفِي تَعَبُّدِهِ إِيَّاهُمْ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَوْنِهِ: أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ لَمْ يَسْتَوْعِبِ السَّبَبَ الَّذِي كَانَ فِيهِ نُزُولُ هَذِهِ الآيَةِ، وَأَنَّهُ قَدْ كَانَ مِنَ المُسْلِمِينَ قَبْلَ نُزُولِهَا مَا كَانَ مِنْ نُزُولِهَا فِيهِ عَلَيْهِمْ أَكْبَرُ الفَائِدَةِ، وَلَمْ نَجِدْهُ إِلَّا فِي حَدِيثٍ يُرْوَى عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما كَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ شُعَيْبِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: ثنا الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ الزَّعْفَرَانِيُّ عَنْ عَفَّانَ قَالَ: ثنا حَفْصُ بْنُ غِيَاثٍ قَالَ: ثنا حَبِيبُ بْنُ أَبِي عَمْرَةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ قَالَ: اللِّينَةُ النَّخْلُ ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ قَالَ: اسْتَنْزَلُوهُمْ مِنْ حُصُونِهِمْ، وَأُمِرُوا بِقَطْعِ النَّخْلِ، فَحَكَّ فِي صُدُورِهِمْ، فَقَالَ المُسْلِمُونَ قَدْ قَطَعْنَا بَعْضًا وَتَرَكْنَا بَعْضًا، فَلَنَسْأَلَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ لَنَا فِيمَا قَطَعْنَا مِنْ أَجْرٍ، وَمَا عَلَيْنَا فِيمَا تَرَكْنَا مِنْ وِزْرٍ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ الآيَةَ.

قَالَ الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ: كَانَ عَفَّانُ يُحَدِّثُنَا بِهَذَا الحَدِيثِ عَنْ عَبْدِ الوَاحِدِ عَنْ حَبِيبٍ، ثُمَّ رَجَعَ فَحَدَّثَنَا بِهِ عَنْ حَفْصٍ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَعَقَلْنَا بِذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ أَنْزَلَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَعْلَمَ بِهَا المُسْلِمُونَ أَنَّ الَّذِي كَانَ مِنْ قَطْعِهِمْ لَمَّا قَطَعُوا مِنْ نَخْلِ بَنِي النَّضِيرِ وَتَحْرِيقِهَا مُبَاحٌ لَهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، وَأَنَّ الَّذِي تَرَكُوهُ مِنْهَا فَلَمْ يَقْطَعُوهُ وَلَمْ يُحَرِّقُوهُ مُبَاحٌ لَهُمْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَبَانَ بِذَلِكَ مَوْضِعُ الفَائِدَةِ فِي نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ.

وَقَالَ قَائِلٌ آخَرُ: قَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ فِيمَا كَانَ تَقَدَّمَ بِهِ إِلَى أُمَرَاءِ الأَجْنَادِ لَـمَّا وَجَّهَهُمْ إِلَى الشَّامِ مَا يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ مَا فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، وَذَكَرَ مَا حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنْبَأَ ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ ﷺ لَـمَّا بَعَثَ أُمَرَاءَ الجُنُودِ نَحْوَ الشَّامِ: يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَعَمْرَو بْنَ العَاصِ، وَشُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ﷻ، اُغْزُوَا فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى نَاصِرٌ دِينَهُ، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَجْبُنُوا، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ، وَلَا تُغْرِقُنَّ نَخْلًا، وَلَا تُحَرِّقُنَّهَا، وَلَا تَعْقِرُوا بَهِيمَةً، وَلَا شَجَرَةً تُثْمِرُ، وَلَا تَهْدِمُوا بَيْعَةً**».

قَالَ هَذَا القَائِلُ: فَأَبُو بَكْرٍ ﷺ قَدْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ، وَقَدْ قَرَأَهَا أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ الَّذِينَ تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِمَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِهِ فِي هَذَا الحَدِيثِ، وَكَانَ مَا تَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ بِحَضْرَةِ سِوَاهُمْ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِينَ قَرَؤُوا هَذِهِ الآيَةَ أَيْضًا، وَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ لَمْ تَكُنْ نَزَلَتْ فِي المَعْنَى المَذْكُورِ فِي حَدِيثَيْ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ نُزُولَهَا كَانَ فِيهِ.

فَكَانَ جَوَابُنَا لَهُ فِي ذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللهِ وَعَوْنِهِ: أَنَّ الَّذِي فِي ذَيْنِكَ الحَدِيثَيْنِ مِنَ السَّبَبِ الَّذِي كَانَ فِيهِ نُزُولُ هَذِهِ الآيَةِ كَمَا فِيهِمَا، وَأَنَّ مَا فِي حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ ﷺ هَذَا غَيْرُ مُخَالِفٍ لِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عَوْدِ الشَّامِ إِلَى أَيْدِيهِمْ وَمِنْ فَتْحِهِمْ لَهَا وَمِنْ غَلَبَتِهِمُ الرُّومَ عَلَيْهَا بِمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُمْ إِيَّاهُ مِنْ ذَلِكَ.

حَدَّثَنَا يُونُسُ قَالَ: أَنْبَأَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ أَنَّ مَالِكًا حَدَّثَهُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**تُفْتَحُ اليَمَنُ، فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ العِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ، وَتُفْتَحُ الشَّامُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ، وَالمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**».

وَكَمَا حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ قَالَ: ثنا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ ثُمَّ ذَكَرَ هَذَا الحَدِيثَ.

غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ: ثُمَّ تُفْتَحُ العِرَاقُ، وَزَادَ قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ: ثُمَّ بَلَغَنِي أَنَّ سُفْيَانَ بِالمَوْسِمِ فَأَتَيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ هَذَا الحَدِيثِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ أَعَادَهُ عَنْهُ كَمَا حَدَّثَنِي.

وَكَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ الشَّيْرَزِيُّ قَالَ: ثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ قَالَ: ثَنَا يَحْيَى بْنُ حَمْزَةَ قَالَ: ثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلْقَمَةَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوَالَةَ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ الفَقْرَ وَالعُرْيَ وَقِلَّةَ الشَّيْءِ، فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا! فَوَاللهِ لَأَنَا وَكَثْرَةُ الشَّيْءِ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ مِنْ قِلَّتِهِ، وَاللهِ لَا يَزَالُ**

هَذَا الأَمْرُ فِيكُمْ حَتَّى تُفْتَحَ لَكُمْ أَرْضُ فَارِسَ وَالرُّومِ وَأَرْضُ حِمْيَرَ، وَحَتَّى تَكُونُوا أَجْنَادًا ثَلَاثَةً: جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالعِرَاقِ، وَجُنْدٌ بِاليَمَنِ، وَحَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ المِائَةَ الدِّينَارَ فَيَسْخَطَهَا».

قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله! مَنْ يَسْتَطِيعُ الشَّامَ وَبِهَا الرُّومُ ذَوَاتُ القُرُونِ؟! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَالله لِيَسْتَخْلِفُنَّكُمْ اللهُ فِيهَا حَتَّى تَظَلَّ العِصَابَةُ مِنْهُمْ البِيضُ قُمُصُهُمْ المُحَلَّقَةُ أَقْفَاؤُهُمْ قِيَامًا عَلَى الرَّجُلِ الأَسْوَدِ مِنْكُمْ المَحْلُوقِ، وَإِنَّ بِهَا اليَوْمَ رِجَالًا لَأَنْتُمْ أَحْقَرُ فِي أَعْيُنِهِمْ مِنْ القِرْدَانِ فِي أَعْجَازِ الإِبِلِ**».

قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، خِرْ لِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ، قَالَ: «**أَخْتَارُ لَكَ الشَّامَ؛ فَإِنَّهَا صَفْوَةُ الله مِنْ بِلَادِهِ، وَاللهُ يَجْتَبِي صَفْوَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ بِأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَعَلَيْكُمْ بِالشَّامِ فَإِنَّ صَفْوَةَ الله مِنْ الأَرْضِ الشَّامُ، فَمَنْ أَبَى فَيَسْقِي بِغُدُرِ اليَمَنَ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ**»، فَسَمِعْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ: فَعَرَفَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ نَعْتَ هَذَا الحَدِيثِ فِي جُزْءِ بْنِ سُهَيْلٍ السُّلَمِيِّ، وَكَانَ وَلِيَّ الأَعَاجِمِ، وَكَانَ أُوَيْدِمًا قَصِيرًا، فَكَانُوا يَمُرُّونَ وَتِلْكَ الأَعَاجِمُ قِيَامٌ لَا يَأْمُرُهُمْ بِالشَّيْءِ إِلَّا فَعَلُوهُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَكَانَ أَمْرُ أَبِي بَكْرٍ ﷺ أُمَرَاءَ الأَجْنَادِ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ فِي حَدِيثِهِ الَّذِي رَوَيْنَاهُ لِهَذَا المَعْنَى الَّذِي فِي هَذِهِ الأَحَادِيثِ، وَلِمَا قَدْ حَضَّهُمْ عَلَيْهِ مِنْ الصَّلَاةِ بِإِيلِيَاءَ، وَمِنْ شَدِّ المَطَايَا إِلَيْهَا مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُنَا لَهُ فِي كِتَابِنَا هَذَا، وَلِمَا قَدْ رُوِيَ عَنْهُ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ: «**وَمُنِعَتْ الشَّامُ مُدَّيْهَا وَدِينَارَهَا**»، أَيْ أَنَّهَا سَتُمْنَعُ مُدَّيْهَا وَدِينَارَهَا الوَاجِبَيْنِ فِي أَرْضِهَا، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ افْتِتَاحِهِمْ إِيَّاهَا وَغَلَبَتِهِمْ عَلَيْهَا، وَسَنَذْكُرُ هَذَا الحَدِيثَ فِيمَا بَعْدُ مِنْ كِتَابِنَا هَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى وَاللهَ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ».

[تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٨/ ٥٧٢-٥٧٩].

٥ ـ الحكمة من تقطيع نخيل بني النضير وحرقها:

يقول د/ أبو فارس: «لقد أمر الرسول ﷺ بعض المسلمين بتقطيع بعض نخيل بني النضير وتحريقها؛ لأن في هذا إغاظة لهم وإذلالًا، وهو إرهاب لهم وقطع الأمل في الصبر والنصر، ومن ثم الرضوخ والاستسلام.

ومن الجدير بالذكر أن القاعدة العامة في الإسلام عدم الاعتداء على المدنيين والمزارعين والمزروعات في الحرب، ولقد جاءت نصوص كثيرة تنهي عن قطع الأشجار وقتل النساء والذراري؛ لأنهم لا يشاركون في القتال، وليس الهدف من القتال أي الجهاد هنا هو إزهاق أرواح الناس وإنما هو إزاحة العقبات من طريقهم حتى يختاروا دينهم بحرية.

وقطعُ أشجار نخيل بني النضير وتحريقها بإذن من الله ـ تبارك وتعالى ـ كما صرَّح بذلك القرآن الكريم في سورة الحشر أو سورة النضير كما وصفها ابن عباس رضي الله عنهما.

ويؤخذ من هذا جواز قطع الأشجار لحاجة أو ضرورة تقتضيها مصلحة المسلمين العامة في الحرب، كتقريب نصر، وتيئيس عدو من المقاومة، ودفعه للاستسلام حتى تحقن الدماء».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٥-١٧٦].

٦ ـ منع التخريب:

يقول الشيخ أبو زهرة: «وذلك أن النبي ﷺ كان منه ما توهموا أنه سيقطع نخلهم بعد أن استطال حصارهم، فاحتجوا عليه ﷺ بأنه نهى عن التخريب وعيبه، وكيف يقطع النخل مع هذا؟

والحقيقة أن النبي ﷺ لم يقطعه وإن همَّ بقطع النخل إفزاعًا لهم، وتخويفًا ليسارعوا بالاستسلام، وقد كانوا تحصنوا بحصونهم، ويرمون الحجارة من فوقها، وكان لابد أن ينزلهم من صياصيهم ـ وهي الحصون ـ والآية الكريمة صريحة في أنه أمر بقطع الثمار، لا بقطع الأصول بل أبقى ما أبقى قائمًا على أصوله كصريح الآية، ولو كان ﷺ قد قطع الأصول ما بقي نخيل تقوم عليها ثمار.

ولبيان الموضوع كاملًا نذكر الفقه فيه، وأساسه هذه الآيات التي تلوناها في واقعة الجلاء، أن النهي عن قطع النخيل والتخريب بشكل عام قد جاء في وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه لبعض جنده، وما كان أبو بكر إلا متبعًا للنبي ﷺ وها هي ذي.

روى مالك في الموطأ وعبد الرزاق في المصنف عن ابن جريج قال: أخبرني يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه بَعَثَ جُيُوشًا إِلَى الشَّامِ، فَخَرَجَ يَمْشِي مَعَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَ أَمِيرَ رُبُعٍ مِنْ تِلْكَ الأَرْبَاعِ، فَزَعَمُوا أَنَّ يَزِيدَ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ، وَإِمَّا أَنْ أَنْزِلَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: مَا أَنْتَ بِنَازِلٍ، وَمَا أَنَا بِرَاكِبٍ، إِنِّي أَحْتَسِبُ خُطَايَ هَذِهِ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ قَالَ لَهُ: **إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لله، فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُؤُوسِهِمْ مِنْ الشَّعَرِ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا، هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ وَلَا تَجْبُنْ.** [موطأ مالك كتاب الجهاد (٩٧١)، ومصنف عبد الرزاق ٥ / ١٩٩ رقم ٩٣٧٥].

هذه وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ ولابد أن تكون بهدي النبي ﷺ؛ ولذلك ننفي أن يكون النبي ﷺ قد قطع نخيل بني النضير، فمحال أن يكون النبي ﷺ أمر في موضع، وأبو

بكر ﷺ ينهي بإطلاق؛ ولأن القرآن الذي نزل في واقعة الجلاء لم يذكر قطع النخيل، وهي الأصول، بل فيه أنه قُطعت ثمار، وبقيت أخرى على أصولها قائمة.

ولكن مع ذلك لما اشتدت لجاجة الحروب بين المسلمين والمشركين أو الكفار بشكل اختلف الفقهاء في جواز التخريب في أرض العدو من قطع أشجار، وتهديد بنيان وذبح الحيوان لغير مأكلة أو هلاكه بشكل عام.

فكثيرون من الفقهاء أجازوه؛ لأن الحرب لا تُبقي ولا تذر؛ ولأنه إذا أبيحت الأنفس، فكيف يُصان ما عداها وهو دونها، ويستندون في ذلك إلى أخبار نسبت للنبي ﷺ في غزواته.

أولها: وهو في قصة بني النضير أن النبي ﷺ أمر بتخريب بني النضير، وقال الله تعالى في ذلك: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر].

ثانيها: أن النبي ﷺ أمر بأن يُحرق قصر مالك بن عوف، وقد كان أميرًا لجيش المشركين في الطائف، ورمي بالمنجنيق حصنًا للطائف.

ثالثها: أنه ﷺ أمر بقطع كروم العنب لثقيف في الطائف، وقد ذُكر في المغازي أنهم عجوا عند إرادة قطعها، وقالوا: «**كيف نعيش بعد قطعها**».

هذه حجج الأكثرين من الفقهاء الذين قالوا ما قالوا تحت سلطان لجاجة الحروب وشدتها، وعدم تحرجها من قِبَل المشركين.

أما الفريق الآخر من الفقهاء ـ وإن لم يكونوا الأكثر ـ قد تمسكوا بقول الصديق ﷺ الذي لا يمكن أن يخرج عن قول النبي ﷺ ولا عن عمله، فمنعوا التخريب، وعلى رأس هذا الفريق فقيه الشام الأوزاعي، فقد قرر أنه لا يجوز التخريب إلا إذا ألجأت إليه ضرورة حربية، كأن يتحصن المحاربون بحصن ولا يمكن الوصول إليهم إلا بهدمه، أو تكون الأشجار غابة كثيفة، قد اتخذوها مستترًا يكمنون للمسلمين فيها، وينقضون عليهم من مسائرها.

وإن الناظر إلى أدلة الذين أباحوا التخريب في غير ضرورة ملجئة لا يجدها منتجة لإباحته بإطلاق، فإن تخريب النبي ﷺ لبيوت بني النضير؛ لأنهم اتخذوها حصونًا يقذفون منها الحجارة على المؤمنين، فكان لابد أن تُزال تلك الحصون دفعًا للأذى، فكانت الضرورة ملجئة لذلك، وقد قرر الجميع أن الضرورة تُقدر بقدرها.

وأن قصر عوف بن مالك كان قد اتخذه حصنًا، وكذلك الحصون التي رميت بالمنجنيق في ثقيف، فما كان رميها إلا لضرورة حربية لا للتخريب والإفساد.

أما ما هم به النبي ﷺ من قطع كروم العنب لثقيف؛ فلأنهم كانوا يتخذون منها الخمر، والخمر حرام، ويظهر أن النبي ﷺ لم يقطع، وإنما أمر فقط بالقطع، أو قطع قليلًا لإفزاعهم؛ وذلك ليحملهم على التسليم بدل الاستمرار على القتال، وبذلك تحقن الدماء؛ ولذلك سلَّموا بمجرد أن رأوا المسلمين يعتزمون قطعها.

وأنه بمراجعة الشريعة في مصادرها من كتاب وسنة وآثار للنبي ﷺ وصحابته الكرام يجد أنها لا تدل على جواز التخريب بل تمنعه.

ولنقف عند الآيات الكريمة التي تلوناها في قصة إجلاء بني النضير فنجد أن الآيات لا تُبيح التخريب بإطلاق وفي كل الأحوال، وأن القطع الذي ذكره القرآن إنما هو في قطع الثمار لا في قطع الأشجار، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر].

وذلك لأن اللينة المراد بها الثمرة، والمعاجم في اللغة تؤيد ذلك؛ لأن كلمة لينة جمعها لون، وهو بالاتفاق نوع من ثمر النخل؛ ولأن الآية تخير بين قطع اللينة أو بقائها على أصولها، وذلك يقتضي أن تكون ثمرة قائمة على الأصول تبقى أو تُقطع، والأصول النخيل، فلم يُذكر في القرآن إباحة قطعها ولأن الآثار الواردة في غزوة بني النضير التي هي موضوع الآيات الكريمات تفيد أن الصحابة ما كانوا يقطعون النخيل بل كانوا يقطعون الثمر.

فقد روي أن رسول الله ﷺ استعمل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام على نخيل بني النضير قبل إجلائهم، فكان أبو ليلى يقطع العجوة، وهي تمر جيد، وابن سلام يقطع اللون وهو تمر رديء، فقيل لأبي ليلى: لم قطعت العجوة؟ قال: لأنها أغيظ لهم، وقيل لابن سلام: لم قطعت اللون؟ قال: لأني علمت أن الله تعالى مُظهر نبيه ومغنمه أموالهم، فأحببت إبقاء العجوة، وهي خيار أموالهم، وأن قطع الثمار لا يعد تخريبًا، لأنه سيكون مأكلة.

والذي ننتهي إليه بالنسبة لما يكون في الحرب من هدم وتحريق وتخريب أنه يستفاد من مصادر الشريعة وأعمال النبي ﷺ في حروبه:

أولًا: أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء؛ لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الراعي الظالم وبذلك وردت الآثار.

ثانيًا: أنه إذا تبين أن قطع الشجر وهدم البناء توجبه ضرورة حربية لا مناص منها، كأن يستتر العدو به ويتخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين فإنه لا مناص من قطع الأشجار، وهدم البناء على أنه ضرورة من ضرورات القتال، كما فعل النبي ﷺ في حصن ثقيف.

ثالثًا: أن كلام الفقهاء الذين أجازوا الهدم والقلع يجب أن يخرج على أساس هذه الضرورات، لا على أساس إيذاء العدو والإفساد المجرد، فالعدو ليس هو الشعب إنما العدو هم الذين يحملون السلاح ليقاتلوا». [خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٥٢-٧٥٥].

٧ ـ ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية:

يقول د/ البوطي والعيساوي: «قطع نخيل بني النضير وإحراقها ثبت بالاتفاق، والذي أتلفه الرسول ﷺ من ذلك إنما هو البعض ثم ترك الباقي، وقد نزل القرآن تصويبًا لما أقدم عليه الرسول ﷺ من ذلك: قطعًا وإبقاءً، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾[الحشر].

ومن الأسلحة التي كانت تستخدم ضد العدو على عهد النبي ﷺ وعهد الصحابة ﷺ من بعده كانت تتمثل في نحو السيوف والرماح والسهام والمجانيق وإتلاف أموال العدو وإشعال الحرائق فيها، وفي المباني. [البخاري بشرحه فتح الباري حديث رقم ٣٠٢١ و ٣٠٢٠ ج٦ ص ١٥٤].

كما كان التراشق بالنار، بين المسلمين والكفار، هو من جملة الوسائل الحربية التي استخدمت في الحروب على عهد الصحابة ﷺ. [المغني لابن قدامة ١٠/ ٥٠٣].

وقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام والقائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، فالمسألة إذًا من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية كما جاء في شرح السير الكبير ما نصه: «وَالضَّرُورَةُ فِيهِ أَلَّا يَكُونَ لَهُمْ طَرِيقٌ آخَرُ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ الظَّفَرِ بِهِمْ بِذَلِكَ الطَّرِيقِ، أَوْ يَلْحَقُهُمْ فِي الطَّرِيقِ الآخَرِ حَرَجٌ عَظِيمٌ وَمَؤُونَةٌ شَدِيدَةٌ، فَحِينَئِذٍ لِدَفْعِ هَذِهِ الْمَؤُونَةِ يُبَاحُ لَهُمْ التَّحْرِيقُ». [شرح السير الكبير ٤/ ١٥٥٤].

قال العلماء: وإنما كان قصد الرسول ﷺ بتصرفه هذا في نخيل بني النضير ـ قطعًا أو كفًّا ـ تحقيق المصلحة وتلمس السبيل إليها؛ إرشادًا وتعليمًا للأئمة من بعده.

وبهذا أيضًا علل الشافعي ﷺ أمر أبي بكر ﷺ بالإحراق والقطع حينما أرسل خالدًا إلى طليحة وبني تميم، مع أنه نهى هو نفسه عن ذلك في حروب الشام، ويقول ﷺ في هذا: «ولعل أمر أبي بكر ﷺ بأن يكفوا عن أن يقطعوا شجرًا مثمرًا، إنما هو لأنه سمع الرسول ﷺ يخبر أن بلاد الشام تُفتح على المسلمين، فلما كان مباحًا له أن يقطع ويترك، اختار الترك نظرًا لصالح المسلمين».

[الأم ٧/ ٣٢٤، وينظر في الموضوع: ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية ـ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص ١٧٠ ـ ط٥ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٩٠م ـ ٤٠٠ص].

وقد علم رسول الله ﷺ أن نخيل بني النضير له، ولكنه قطع وحرق ليكون ذلك نكاية لهم ووهنًا فيهم؛ حتى يخرجوا عنها، فإتلاف بعض المال لصالح باقيه جائز شرعًا مقصود عقلًا.

[أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ٤١٠].

وهذا الذي قلناه من إباحة قطع شجر الكفار وإحراقه إذا اقتضت المصلحة هو مذهب نافع مولى ابن عمر ومالك والثوري وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق وجمهور الفقهاء.

وروي عن الليث بن سعد وأبي ثور والأوزاعي بعدم جوازه. [ينظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٢/ ٥٠]. [فقه السيرة للبوطي ٢٠٤-٢٠٥، فقه الغزوات للعيساوي١٩٦-١٩٨].

٨ ـ حكم تخريب وإتلاف ممتلكات العدو أثناء المعركة أو في حالة الحرب:

يقول د/ مناصرة: «إن إتلاف ممتلكات العدو لا يتم إلا أثناء القتال أو في حالة الحرب؛ لأن إتلاف ممتلكات العدو بعد الاستيلاء عليها، ضرب من ضروب الإفساد، لا يقره شرع ولا عقل، والله قد نهى عباده عن ذلك، وأخبر أنها من صفات المفسدين.

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥٠٩، والشرح الكبير للمقدسي ٥/ ٥١٠. العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص١٦٥، والعلاقات الدولية في الشريعة الإسلامية ـ عبد الخالق النواوي ص١٣٧].

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة].

وينبغي أن تفرق بين ثلاثة أنواع من ممتلكات العدو:

أنواع ممتلكات العدو:

النوع الأول: ممتلكات تدعو حاجة المعركة إلى إتلافها، كالتي تعوق الحركات العسكرية في ميدان القتال أو في الطريق إليه، أو التي يستخفي العدو وراءها، أو يستخدمها في نقله، أو تموينه الحربي [ينظر: حاشية الطحطاوي على الدر المختار ـ دار المعرفة ـ بيروت ٢/ ٢٤٢، والعلاقات الدولية ـ عبد الخالق النواوي ص١٣٨]، ومخازن الذخيرة ومحطات الرادار، وحصون الحراسة [الشرح الكبير ـ ابن قدامة ٥/ ٥١٠]، أو كالذي يقرب من حصونهم ويمنع من قتالهم، أو يستترون به من المسلمين، أو يحتاج لقطعه لتوسعة الطريق، أو تمكن من قتل، أو سد بثق أو إصلاح طريق، أو ستارة منجنيق أو غيره، أو لا يقدر عليهم إلا به، أو يكونون يفعلون ذلك بنا فيفعل ذلك بهم لينتهوا إن لم يكن ذلك محرمًا في ديننا، وهذا النوع لا خلاف بين فقهائنا في جواز إتلافه. [ينظر: أسهل المدارك ـ أبو بكر الكشناوي ـ ط٢ دار الفكر ٢/ ٥، المغني لابن قدامة ١٠/ ٥١٠].

ولذا يقول ابن قدامة مشيرًا إليه: «هذا يجوز إتلافه بغير خلاف نعلمه»، بل إذا دعت الضرورة إلى إتلافه وجب، كما إذا تعين طريقًا للنصر. [ينظر: المغني لابن قدامة ١٠/ ٥١٠، الشرح الكبير ٥/ ٥١٠].

فهذا هو مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد ونافع ومولى ابن عمر وإسحاق.

[ينظر: المدونة الكبرى للإمام مالك، رواية الإمام سحنون ١/ ٣٧٢، المهذب في فقه الإمام الشافعي ـ الشيرازي ٢/ ٢٣٦. فقه السيرة ـ د/ محمد سعيد رمضان البوطي ص٢٦٣].

النوع الثاني: هناك بعض الممتلكات إذا أتلفت عاد الضرر على المسلمين أنفسهم، مثل خزانات المياه الهائلة التي لو ضربها المسلمون لأخذت عليهم الطريق أو لأغرقتهم، وما يتضرر المسلمون بقطعة لكونهم ينتفعون ببقائه لعلوفهم، أو يستظلون به، أو يأكلون من ثمره، أو تكون العادة لم تجر بذلك بيننا وبين عدونا، فإذا فعلناه بما فعلوه بنا، كتدمير المستشفيات، وآبار الزيت (النفط)، ولو نحن أتلفناها عليه لعاملنا بالمثل وعاد ذلك علينا بضرر أفدح، فهذا يحرم لما فيه من الإضرار بالمسلمين.

[ينظر: المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٠٩، العلاقات الدولية ـ د/ محمد علي الحسن ص١٦٦، المقنع لابن قدامة المقدسي ١/ ٤٨٦، العلاقات الدولية للنواوي ص١٣٩].

النوع الثالث: ممتلكات لا تدعو الحاجة الحربية إلى إتلافها، ولا إلى الإبقاء عليها، كسائر المزروعات والمباني التي لا تعوق الجيش، ولا تقف عقبة في طريق النصر، فلا ضرر فيه بالمسلمين ولا نفع سوى غيظ الكفار والإضرار بهم، ففيه رأيان:

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥١٠، الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠، المحلى لا بن حزم الأندلسي ٧/ ٢٩٤، العلاقات الدولية للنواوي ص١٣٩، العلاقات الدولية لمحمد علي الحسن ص١٦٦].

الفرع الأول: رأي المجيزين وأدلتهم:

أولاً: رأي المجيزين: ١ـ يجوز، وبه قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومالك والشافعي وابن المنذر وإسحاق وابن حزم الأندلسي، قال إسحاق: التحريق سنة إذا كان أنكى في العدو.

[ينظر: الهداية شرح بداية المبتدئ على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان للمرغيناني، الأم للشافعي وبهامشه اختلاف الحديث برواية الربيع ٧/ ٣٢٤].

جاء في كتاب الهداية: «ويستحب أن يدعو من بلغته الدعوة، فإن أبوا ذلك استعانوا بالله عليهم وحاربوهم ونصبوا عليهم المجانيق وحرقوهم، وأرسلوا عليهم الماء، وقطعوا أشجارهم وأفسدوا زروعهم؛ لأن في جميع ذلك إلحاق الكبت والغيظ بهم وكسر شوكتهم وتفريق جمعهم».

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥١٠، الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠].

وإذا أراد الإمام العود ومعه أسلحة لا يقدر على نقلها تحرق الأسلحة أيضًا، وما يحترق منها يدفن في موضع لا يَطلع عليه الكفار إبطالًا للمنفعة عليهم.

[ينظر: الهداية للمرغيناني ٢/ ١٤٢، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ٧/ ١٠١، الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك للدردير، بالهامش حاشية أحمد بن محمد الصاوي المالكي ٢/ ٢٨١].

وجاء في كتاب الخرشي: «يجوز قتال العدو إذا لم يجيبوا إلى ما دُعوا إليه بجميع أنواع الحرب، فيجوز قطع الماء عنهم ليموتوا بالعطش، أو يرسل عليهم الماء بالغرق على المشهور، أو يُقتلوا بآلة كضرب بالسيف، وطعن بالرمح، ورمي بالمنجنيق، وما أشبه ذلك من آلات الحرب، وبنار إن لم يمكن غيرها ولم يكن فيهم مسلم، فإن أمكن قتالهم بغيرها لم يقاتلوا بالنار عند ابن القاسم وسحنون وكذا إن كان فيهم مسلم». [الخرشي على مختصر سيدي خليل، وبهامشه حاشية الشيخ العدوي ص٢٨١، حاشية العدوي على شرح أبي الحسن بن أبي زيد، وهي حاشية العلامة المحقق الشيخ علي الصعيدي على شرح الإمام أبي الحسن المسمى كفاية الطالب الرباني لرسالة ابن أبي زيد القيرواني ٢/ ٦، ٧، الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن زيد القيرواني للآبي ص٤١٤، جواهر الإكليل مختصر العلامة خليل في مذهب الإمام مالك للآبي ١/ ٢٥٣].

وروي عن مالك جواز قطع الشجر المثمر وتخريب العامر، ولم يجز قتل المواشي ولا تحريق النحل. [ينظر: بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ١/ ٣٢٨].

قال الشافعي: «أما كل ما لا روح فيه من شجر مثمر وبناء عامر وغيره فيحرقونه ويهدمونه ويقطعونه». [الأم للشافعي ٧/ ٢١٣، ٣٢٤].

وفي رواية أخرى عن الشافعي: تحرق البيوت والشجر إذا كانت لهم معاقل، ويكره ذلك إذا لم تكن لهم معاقل. [ينظر: بداية المجتهد للقرطبي ١/ ٣٢٨. حاشية قليوبي، وعميرة ص٢١٨، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج في الفقه على مذهب الإمام الشافعي للرملي ٨/ ٦١، الجهاد والنظم ـ د/ أحمد شلبي ص٩٥، المحلى لابن حزم ٧/ ٢٩٤].

وجاء في كتاب المحلى لابن حزم: «وجائز تحريق أشجار المشركين وأطعمتهم وزرعهم ودورهم وهدمها». [المحلى لابن حزم ٧/ ٢٩٤].

ثانيًا: أدلة المجيزين:

(١) يجوز لنا إتلاف بناء العدو بالتخريب وشجرهم بالقطع وغيره لحاجة القتال والظفر بهم، لقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر].

[ينظر: حاشية الطحطاوي على الدار المختار ٢/ ٢٤٢، بدائع الصنائع للكاساني ٧/ ١٠١، حاشية البجيرمي ٤/ ٣٥٢، حاشية قليوبي وعميرة ص ٢١٨، نهاية المحتاج للرملي ٢/ ٦١، شرح روض الطالبين لأبي يحيى الشافعي ٤/ ١٩٠، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج للشربيني ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧].

قال البيضاوي في تفسيره مستدلًا بها: يجوز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم. [تفسير البيضاوي ص ٧٢٥].

وروي في أسباب نزول هذه الآية عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ أمر بقطع نخل بني النضير، بل إنه ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة [(١)]، فقال واحد من الحصن: إن

(١) **البويرة**: تصغير بورة، وهي الحفرة، وهي هنا مكان معروف بين الحديبية وتيماء، وهي من جهة قبلة مسجد قباء. ينظر: سنن أبي داود، الهامش، حديث رقم ٢٦١٥، ٣/ ٣٨.

هذا لفساد يا محمد، وأنك تنهى عن الفساد، فنزلت هذه الآية، ولها يقول حسان بن ثابت:

فَهَانَ عَلَى سَرَاةِ بَنِي لُؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥١١، صحيح البخاري / ٥، ١١٣].

فإن توقف النصر على إتلاف ذلك وجب. [مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٧].

عن الزهري قال: حدثني أسامة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان عهد إليه فقال: «**أَغِرْ عَلَى أُبْنَى**[1] **صَبَاحًا وَحَرِّقْ**». [أبو داود في الجهاد (٢٦١٦)، وقال الشيخ الألباني: ضعيف].

(٢) أمر الله تعالى أولياءه المؤمنين بإغاظة أعدائه الكافرين، وجعل لهم الثواب على ذلك، وبيان هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾[التوبة:١٢٠].

وإن في تخريب بيوتهم وقطع شجرهم إغاظة لهم، وكسرًا لشوكتهم [ينظر: الهداية للمرغيناني ٢/ ١٣٦، ١٣٧، المحلى لابن حزم ٧/ ٩٤]، فيجوز إتلافها إن لم يرج حصولها لنا مغايظة لهم وتشديدًا عليهم، فإن رجي حصولها لنا ندب الترك، وكره الإتلاف، حفظًا لحق الغانمين، أما إذا غنمناها بأن فتحنا دارهم قهرًا أو صُلحًا على أن تكون لنا أو غنمنا أموالهم فيحرم إتلافها لأنها صارت غنيمة لنا.

[مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٦، ٢٢٧].

(٣) قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الحشر: ٢].

قال عكرمة: بأيديهم في إخراب داخلها لئلا يأخذه المسلمون، وبأيدي المؤمنين في إخراب خارجها ليصلوا بذلك إليهم. [المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥٠٦].

قال تعالى: ﴿وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة: ٥].

وهذا يدل على جواز حصار الكفار في البلاد والحصون والقلاع، وإرسال الماء عليهم ورميهم بنار ومنجنيق، وما في معنى ذلك من هدم بيوتهم، وقطع الماء عنهم، وإلقاء حيات أو عقارب عليهم، ولو كان فيهم نساء وصبيان. [ينظر: حاشية الطحطاوي ٢/ ٤٤١. الخرشي على مختصر سيدي خليل ٣/ ١١٣، حواشي الشرواني وابن قاسم ٩/ ٢٤١، مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٣، نهاية المحتاج للرملي ٨/ ٦١، شرح كتاب السير الكبير للشيباني، إملاء محمد أحمد السرخسي ٤/ ١٤٦٧].

---

(١) **أبنى أو أبناء**: قرية، وهي قريبة من أرض الكرك في أطراف الشام في الناحية التي قُتل فيها أبوه زيد ﷺ، فأما ببنا فهي أرض فلسطين ولم يكن النبي ﷺ يأمره بالإغارة عليها لبعدها، ولم يكن أسامة ليصل إليها، والخطر بالمصير إليها لتوسطها في البلاد وبُعدها من طرف الشام، فما كان النبي ﷺ ليأمره بالتغرير بالمسلمين، فكيف يحمل الخبر عليها مع مخالفة لفظ الرواية وفساد المعنى. ينظر: الحموي: معجم البلدان ١/ ٧٩.

وروي أن الرسول ﷺ حاصر الطائف ونصب عليهم المنجنيق، وقد أمر الرسول ﷺ بتحريق قصر مالك بن عوف وكان أمير الجيوش بالطائف. [ينظر: مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٣، المحلى لابن حزم ٤/ ٢٩٤، شرح كتب السير الكبير للسرخسي ٤/ ١٤٦٧. صحيح البخاري ٤/ ٧٤، ٥/ ١١٣، ١٩٨].

وممن رأى ذلك الثوري والأوزاعي والشافعي والحنفية وظاهر كلام أحمد وابن حزم إذ قال بجوازه مع الحاجة وعدمها. [ينظر: الهداية للمرغيناني ٢/ ١٣٦، حاشية الطحطاوي ٢/ ٤٤١، أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في فقه الإمام مالك للكشناوي ٢/ ٥٠، شرح منح الجليل على مختصر ـ العلامة خليل وبهامشه تسهيل منح الجليل ١/ ٧١٥، مغني المحتاج للشربيني ٤/ ٢٢٣، المحلى لابن حزم ٤/ ٢٩٤. صحيح البخاري ٤/ ٧٤].

أما ما ورد عن أبي بكر الصديق ﷺ من نهيه عن تقطيع الشجر المثمر وعن تخريب العامر، فلا حجة في قول أحد مع رسول الله ﷺ كما يقول ابن حزم، وقد ينهي أبو بكر ﷺ عن ذلك اختيارًا؛ لأن ترك ذلك أيضًا مباح، كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر]، ولم يقطع النبي ﷺ نخل خيبر[1]، فكل ذلك حسن.

[ينظر: المدونة الكبرى للإمام مالك ١/ ٣٧٢].

وبهذا علل الشافعي رحمه الله أمر أبي بكر ﷺ بالإحراق والقطع حينما أرسل خالدًا إلى طليحة وبني تميم مع أنه نهى هو نفسه عن ذلك في حروب الشام، ويقول رحمه الله في هذا: ولعل أمر أبي بكر ﷺ بأن يكفوا عن أن يقطعوا شجرًا مثمرًا، إنما هو لأنه سمع رسول الله ﷺ يخبر أن بلاد الشام تُفتح على المسلمين، فلما كان مباحًا له أن يقطع ويترك اختار الترك نظرًا لصالح المسلمين، فنهى عنه لذلك فيما نرى لا أن تخريب ذلك وتحريقه لا يحل.

[ينظر: الأم للشافعي ٧/ ٣٢٤، فقه السيرة للبوطي ص ٢٦٢، العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص١٦٩].

وعن الزهري قال: حدثني أسامة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان عهد إليه فقال: «**أَغِرْ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا وَحَرِّقْ**». [ينظر: المدونة الكبرى للإمام مالك ١/ ٣٧٢، المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥١١، الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠، بذل المجهود ١٢/ ١٢٤، ١٢٥، العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص١٦٩. أبو داود حديث (٢٦١٦)].

---

(١) خيبر: الموضع المذكور في غزوات النبي ﷺ، يطلق هذا الاسم على الولاية، وتشمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير، واسم حصونها: حصن ناعم، وعنده قُتل مسعود بن مسلمة ألقيت عليه رحي، القموص حصن أبي الحقيق، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة، وأما لفظ خيبر فهو بلسان الحصن، ولكن هذه البقعة التي تشتمل على هذه الحصون سميت خيابر، وقد فتحها النبي ﷺ في سنة سبع للهجرة وقيل سنة ثمان. ينظر: معجم البلدان ٢/ ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١.

الفرع الثاني: رأي المانعين وأدلتهم:

أولاً: رأي المانعين: ٢ـ عدم الجواز، وبهذا قال الليث بن سعد وأبو ثور والأوزاعي ورواية عن أحمد. [ينظر: المقنع في فقه إمام السنة أحمد بن حنبل ١/ ٤٨٦، الشرح الكبير على متن الإقناع ٥/ ٥٠٨، المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥١٠، الشرح الكبير ٥/ ٥١٠، فقه السيرة للبوطي ٢٦٣].

جاء في بداية المجتهد: «وكره الأوزاعي قطع الشجر المثمر، وتخريب العامر كنيسة كانت أو غير ذلك». [بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد ١/ ٣٢٨].

قال الأوزاعي: إذا كان في المطمورة العدو، فعلمت أنك تقدر عليهم بغير النار، فأحب إليَّ أن يكف عن النار، وإن لم يمكن ذلك وأبوا أن يخرجوا فلا أرى بأسًا وإن كان معهم ذرية، فقد كان المسلمون يقاتلون بها. [المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥٠٣].

وجاء في المغني لابن قدامة: وفتح البثوق عليهم ليغرقهم إن قدر عليهم بغيرهم لم يجز إذا تضمن ذلك إتلاف النساء والذرية الذين يحرم إتلافهم قصدًا، وإن لم يقدر عليهم إلا به جاز.

[ينظر: الشرح الكبير على متن الإقناع ٥/ ٥٠٨، المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٠٦، المقنع ١/ ٤٨٦].

ثانيًا: أدلة المانعين:

(١) لأن إتلافه فساد محض، لا تدعو إليه حاجة حربية، وقد نهي عن الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾[الأعراف]، فهذا إفساد يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة].

ولذا نجد النبي ﷺ يوجه قادة الجيش في وصاياه إذ يقول: «**لَا تَهْدِمُوا بَيْتًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَجَرًا، إِلَّا شَجَرًا يَمْنَعُكُمْ قِتَالًا أَوْ يَحْجِزَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ**». [السنن الكبرى للبيهقي ٩ / ٨٤، ٩٠، ٩١].

وهذا من قوله ﷺ يفسر ما خفي على بعض الناس من محامل فعله ببعض ممتلكات عدوه كبني النضير، إذ أحرق بيوتهم وقطع بعض أشجارهم، وكبلاد خيبر إذ فعل بهم مثل ذلك في بعض ما يروى، وكأهل الطائف [1] إذ ضربهم بالمجانيق وقطع بعض كرومهم، فإنما كان ذلك لحاجة القتال لا عبثًا أو فسادًا. [صحيح البخاري ٥/ ١٩٨، العلاقات الدولية للنواوي ص١٣٩].

(٢) ما روي عن أبي بكر ﷺ أنه قال ليزيد بن أبي سفيان وهو يوصيه حين بعثه أميرًا على القتال

---

(١) **الطائف**: هي مسيرة يوم للطالع من مكة، نصف يوم للهابط من مكة، عمرها حسين بن سلامة، ثم أتى مسعود الثقفي ومعه مال كثير وكان تاجرًا، فقال: أحالفكم لتزوجوني وأزوجكم وأبني لكم طوقًا عليكم مثل الحائط لا يصل إليكم أحد من العرب فبنى بذلك المال طوقًا عليهم سميت الطائف وتزوج إليهم فزوجوه ابنة، افتتحها الرسول ﷺ في سنة تسع من الهجرة صلحًا، وكتب لهم كتابًا. ينظر: معجم البلدان ٤/ ١٢٠٩.

بالشام: وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا.

[ينظر: المغني والشرح الكبير لابن قدامة ١٠/ ٥٠٦. الشرح الكبير على متن الإقناع ٥/ ٥٠٨، ينظر: السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٥- ٩٠، الجهاد والنظم ـ أحمد شلبي ص٩٥].

(٣) أن الأصل هو عدم قطع الشجر وهدم البناء؛ لأن الغرض من الحرب إلحاق الهزيمة بجيش العدو لا إيذاء الرعية. [العلاقات الدولية للنواوي ص١٣٩].

(٤) أن التخريب والتدمير بغير قصد هو عبث محض.

ثم يمضون في مناقشة أدلة الفريق الأول فيقولون: أما عن قطع اللينة فليس المراد هو النخيل وإنما المراد الثمرة، والنص القرآني يفيد ذلك ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥]، ولا يمكن فرض قيامها على أصولها إلا إذا كانت هي الثمرة لا أصل النخلة، وقطع الثمرة لا يُعد تخريبًا، وقد روي أن الرسول ﷺ استعمل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام، وكان أبو ليلى يقطع العجوة وهي ثمر طيب وابن سلام يقطع اللون (جمع لينة) وهو ثمر رديء، وقيل لابن سلام: لم قطعت اللون؟ (أي الرديء) فقال: لأني علمت أن الله تعالى مُظهر نبيه ومغنمه أموالهم، فأحببت إبقاء العجوة.

وبالاتفاق قطع الثمر جائز؛ لأنه أكل لا تخريب فيه ما دام الأصل باقيًا؛ لذا قال الشيخ أبو زهرة: وبذلك يسقط الاستدلال بهذا الدليل. [العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص١٦٩].

والواقع أن هذا التفسير مخالف:

(١) لتفسير المتقدمين الذين فسروا اللينة بمعنى النخلة، ويؤيدهم في ذلك الأحاديث الصحيحة، فقد روى نافع عن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع وهو بالبويرة، فأنزل الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[الحشر:٥]. رواه البخاري في الصحيح عن قتيبة. [صحيح البخاري ٥/ ١١٣، السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٣، وينظر: الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠، الأم للشافعي ٧/ ٣٢٤، المحلى لابن حزم ٧/ ٢٩٤، سنن أبي داود حديث رقم ٢٦١٥، جـ٣، ص٣٨، العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص١٧٠].

فهذا الحديث يؤيد أن الرسول ﷺ أمر بقطع النخيل وليس بقطع ثمار النخيل.

(٢) أن النبي ﷺ لم يأمر بالقطع فقط، وإنما أمر بالقطع والحرق، والحرق لا يكون للثمار بل يكون للشجر، وقد روي أن النبي ﷺ قد حرق بعض نخيل بني النضير وقطع بعضًا، وقال في ذلك حسان ﷺ شعرًا:

فَهَـانَ عَـلَى سَرَاةِ بَنِـي لُـؤَيٍّ حَرِيقٌ بِالبُوَيْرَةِ مُسْتَطِيرُ وَقِـدْرُ
تَـرَكْتُمْ قِـدْرَكُمْ لَا شَيْءَ فِيهَـا القَـوْمِ حَامِيَـةٌ تَفُـورُ

فَأَجَابَهُ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ، فَقَالَ:

أَدَامَ اللهُ ذَلِـكَ مِـنْ صَـنِيعٍ وَحَـرَّقَ فِي طَرَائِقِهَـا السَّـعِيرُ
سَـتَعْلَمُ أَيُّنَـا مِنْهَـا بِنُـزْهٍ وَتَعْلَـمُ أَيَّ أَرْضَـيْنَا تَضِـيرُ

[ينظر: الشرح الكبير لابن قدامة ٥/ ٥١٠، المغني والشرح الكبير ١٠/ ٥٠٩، صحيح البخاري ٥/ ١١٣، العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص ١٦٩].

فهذه روايات صحيحة تبين أن النبي ﷺ قد أمر بحرق بعض النخيل وقطع بعضه، ولذلك كان قول حسان ورد أبي سفيان إذ لو كان القطع للثمر لما كان داع لمثل هذا القول وذاك الرد.

[ينظر: المدونة الكبرى لمالك ١/ ٣٧٢، صحيح البخاري ٥/ ١١٣، السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٣].

(٣) أن النبي ﷺ قد أمر بحرق النخيل في أبناء، فقد ورد في سنن البيهقي عن الزهري عن عروة بن الزبير عن أسامة ﷺ قال: **أَمَرَنِي النَّبِيُّ ﷺ أن أُغِيرَ عَلَى أُبْنَى صَبَاحًا وَأُحَرِّقَ.**

[ينظر: السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٤، سنن أبي داود حديث (٢٦١٦)، بذل المجهود ١٢/ ١٢٤، ١٢٥].

أما هدم بيوت اليهود بأيديهم وأيدي المؤمنين، فقد روى ابن عباس ﷺ أن اليهود كانوا كلما ظهر المسلمون على دار من دورهم هدموها ليتسع موضع القتال وهم ينقبون دورهم من أدبارها إلى التي من بعدها ليتحصنوا بها، ويرموا بالتي أخرجوا منها المسلمين، وقيل ليسدوا بها أزقتهم، وقال عكرمة: بأيديهم في إخراب دواخلها لئلا يأخذه المسلمون وبأيدي المؤمنين في إخراب خارجها ليصلوا بذلك إليهم. [العلاقات الدولية ـ محمد علي الحسن ص ١٦٩].

يتضح من هذا أن المسلمين ما هدموا بيوت اليهود إلا لاتخاذهم إياها حصونًا، ولإنزالهم الأذى بالمسلمين فكان لابد من تحريقها وإتلافها توصلًا لمنع الأذى عن أنفسهم.

الفرع الثالث: الرأي الراجح والمختار: والذي يظهر أن السبب في اختلافهم هو مخالفة فعل أبي بكر ﷺ في ذلك لفعله ﷺ إذ ثبت أن الرسول ﷺ حرق نخل بني النضير، وثبت عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: **لَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا.**

[ينظر: السنن الكبرى للبيهقي ٩/ ٨٥-٩٠، الجهاد والنظم ـ أحمد شلبي ص ٩٥].

فمن ظن أن فعل أبي بكر ﷺ هذا إنما كان لمكان علمه بنسخ ذلك الفعل منه ﷺ، إذ لا يجوز على أبي بكر ﷺ أن يخالف مع علمه بفعله، أو رأى أن ذلك خاصًّا لبني النضير لغزوهم، قال بقول أبي بكر ﷺ، ومن اعتمد فعله ﷺ ولم ير قول أحد ولا فعله حجة عليه قال بتحريق وقطع الشجر.

والذي نراه: أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، وإنما كان قصد الرسول ﷺ بتصرفه هذا في النخيل قطعًا أو إتلافًا تحقيق المصلحة، وتلمس السبيل إليها، إرشادًا وتعليمًا للأئمة من بعده.

ولو أجرينا مقارنة بين تحريق نخل بني النضير وبين الكف عن تحريق نخل الطائف لاتضح لنا الفرق، فاليهود لا أمل في أن يهتدوا، ويتقرب المسلمون إلى الله بكل إيذاء وغيظ ينزلونه بهم، وبكل ما ينالونه منهم، وعلى العكس من ذلك أهل الطائف الذين لانت عريكتهم وسرعان ما أجابوا المسلمين، وهذا يعني أن القائد يتدبر الأمر في حدود الصالح العام للدولة الإسلامية.

وغير ممنوع شريعة باتفاق الجميع:

١ـ أن تتلف الاستخبارات العسكرية جسرًا أو ممرًّا لمنع العدو من التقدم نحوه.

٢ـ أن تتلف السكك الحديدية الممتدة خلف خطوط الجيش، حتى لا يستعملها جيش العدو لمهاجمته من المؤخرة.

٣ ـ أن تهدم منازل أو مباني ليتسنى للجيش توجيه مدفعيته على العدو.

٤ ـ أن تخرب حصونًا كي لا يحتمي بها العدو.

٥ ـ أن تتلف الزروع في حقولها لضرورات الحرب».

[الاستخبارات العسكرية في الإسلام لمناصرة ص ١٣١ - ١٤٨ بتصرف].

٩ ـ بَابُ بَيَانِ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ قَوْلِهِ لِبَنِي النَّضِيرِ لَمَّا أَمَرَ بِإِجْلَائِهِمْ مِنَ الْمَدِينَةِ عِنْدَ قَوْلِهِمْ لَهُ: إِنَّ لَنَا دُيُونًا لَمْ تَحِلَّ: «ضَعُوا وَتَعَجَّلُوا»:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلَامِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سُهَيْلٍ الْبَصْرِيُّ أَبُو بَكْرٍ إِمْلَاءً مِنْ أَصْلِهِ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ خَالِدٍ الزَّنْجِيُّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ يَزِيدَ بْنِ رُكَانَةَ، عَنْ دَاوُدَ بْنِ الْحُصَيْنِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أَمَرَ بِإِخْرَاجِ بَنِي النَّضِيرِ، جَاءَهُ نَاسٌ مِنْهُمْ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّكَ أَمَرْتَ بِإِخْرَاجِنَا وَلَنَا عَلَى النَّاسِ دُيُونٌ لَمْ تَحِلَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ضَعُوا وَتَعَجَّلُوا**».

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَبَنُو النَّضِيرِ هَؤُلَاءِ هُمْ أَشْرَافُ الْيَهُودِ، وَكَانُوا يَنْزِلُونَ الْمَدِينَةَ.

كَمَا حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمُرَادِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ، قَالَ الرَّبِيعُ: حَدَّثَنَا شُعَيْبُ بْنُ اللَّيْثِ، وَقَالَ مُحَمَّدٌ: أَنْبَأَنِي أَبِي وَشُعَيْبٌ، عَنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «**انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ**»، فَخَرَجْنَا

مَعَهُ حَتَّى جِئْنَا بَيْتَ الْمِدْرَاسِ (هو البيت الذي يدرسون فيه)، فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ فَنَادَاهُمْ: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**»، فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ: «**ذَلِكَ أُرِيدُ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا**»، قَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، قَالَ: «**ذَاكُمْ أُرِيدُ**»، ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: «**اعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لله وَلِرَسُولِهِ، وَإِنِّي أُرِيدُ إِخْرَاجَكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلَّا فَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَرْضَ لله وَرَسُولِهِ**». [البخاري في الجزية (٣١٦٧)، وفي الإكراه (٦٩٤٤)، وفي الاعتصام بالكتاب (٧٣٤٨)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٦٥)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٠٣)، ومسند أحمد ١٥/ ٥١٢ رقم ٩٨٢٦].

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَهُمُ الَّذِينَ كَانَتْ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا أَرَدْنَ أَنْ يُهَوِّدْنَ مِنْ أَوْلَادِهِنَّ مِنْ يُرِدْنَ تَهْوِيدَهُ مِنْهُمْ هَوَّدُوهُ فِيهِمْ.

كَمَا حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ، حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، عَنْ شُعْبَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، قَالَ: «كَانَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الْأَنْصَارِ لَا يَكَادُ يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَتَحْلِفُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: لَئِنْ عَاشَ لَهَا وَلَدٌ لَتُهَوِّدَنَّهُ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ إِذَا فِيهِمْ نَاسٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ الله أَبْنَاؤُنَا، فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[البقرة: ٢٥٦]، قَالَ سَعِيدٌ: فَمَنْ شَاءَ لَحِقَ بِهِمْ، وَمَنْ شَاءَ دَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ».

وَكَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خُزَيْمَةَ، حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مِنْهَالٍ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بِشْرٍ قَالَ: سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ عَنْ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[البقرة: ٢٥٦] قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ خَاصَّةً، قُلْتُ: خَاصَّةً؟ قَالَ: خَاصَّةً، قَالَ: كَانَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَتْ مِقْلَاتًا تَنْذِرُ إِنْ وَلَدَتْ وَلَدًا تَجْعَلُهُ فِي الْيَهُودِ تَلْتَمِسُ بِذَلِكَ طُولَ بَقَائِهِ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ وَفِيهِمْ مِنْهُمْ، فَلَمَّا أُجْلِيَتْ بَنُو النَّضِيرِ قَالُوا: يَا رَسُولَ الله: أَبْنَاؤُنَا وَإِخْوَانُنَا مِنْهُمْ، قَالَ: فَسَكَتَ عَنْهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَيِّرُوا أَصْحَابَكُمْ، فَإِنِ اخْتَارُوكُمْ فَهُمْ مِنْكُمْ، وَإِنِ اخْتَارُوهُمْ فَهُمْ مِنْهُمْ**»، قَالَ: فَأَجْلَوْهُمْ مَعَهُمْ.

فَاخْتَلَفَ شُعْبَةُ وَأَبُو عَوَانَةَ عَلَى أَبِي بِشْرٍ فِي إِسْنَادِ هَذَا الْحَدِيثِ، فَتَجَاوَزَ بِهِ شُعْبَةُ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وَأَوْقَفَهُ أَبُو عَوَانَةَ عَلَى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَهُمْ خِلَافُ يَهُودِ خَيْبَرَ الَّذِينَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَامَلَهُمْ عَلَيْهَا بِشَطْرِ مَا تُخْرِجُ نَخْلُهَا وَأَرْضُهَا، وَأَقَامُوا فِيهَا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَجْلَاهُمْ عُمَرُ رضي الله عنه مِنْهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمُزَارَعَةِ بِشَطْرِ مَا تُخْرِجُ الْأَرْضُ فِيمَا قَدْ تَقَدَّمَ مِنَّا فِي كِتَابِنَا هَذَا.

ثُمَّ تَأَمَّلْنَا الْحَدِيثَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْبَابِ، فَوَجَدْنَا إِطْلَاقَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِبَنِي النَّضِيرِ عِنْدَ إِجْلَائِهِ إِيَّاهُمْ أَنْ يَضَعُوا بَعْضَ دُيُونِهِمُ الْآجِلَةِ، وَيَتَعَجَّلُوا بَقِيَّتَهَا، وَكَانَ هَذَا الْبَابُ مِمَّا قَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهِ، فَأَجَازَهُ بَعْضُهُمْ، مِنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما.

كَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْكُوفِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ سُفْيَانَ بْنَ عُيَيْنَةَ يَقُولُ: عَنْ عَمْرٍو، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّهُ كَانَ لَا يَرَى بَأْسًا أَنْ يَقُولَ: «**عَجِّلْ لِي وَأَضَعْ عَنْكَ**».

وَكَرِهَهُ بَعْضُهُمْ، وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنهم.

كَمَا قَدْ حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَنَّ مَالِكًا، أَخْبَرَهُ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حَفْصِ بْنِ عُمَرَ بْنِ خَلْدَةَ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ: أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما «سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَكُونُ لَهُ الدَّيْنُ عَلَى رَجُلٍ دِينَ إِلَى أَجَلٍ فَيَضَعُ عَنْهُ صَاحِبُ الْحَقِّ، وَيُعَجِّلُ لَهُ الْآخَرُ، فَكَرِهَ ذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما وَنَهَى عَنْهُ».

وَكَمَا حَدَّثَنَا يُونُسُ، قَالَ: أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ أَنَّ مَالِكًا، أَخْبَرَهُ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ عُبَيْدٍ أَبِي صَالِحٍ مَوْلَى السَّفَّاحِ أَنَّهُ قَالَ: بِعْتُ بَزًّا (الثيابُ أو مَتاعُ البيتِ من الثياب ونحوِها) لِي مِنْ أَهْلِ دَارِ نَخْلَةَ وَمِنْ أَهْلِ السُّوقِ إِلَى أَجَلٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ الْخُرُوجَ إِلَى الْكُوفَةِ، فَعَرَضُوا عَلَيَّ أَنْ أَضَعَ عَنْهُمْ وَيَنْقُدُونِي، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ رضي الله عنه، فَقَالَ: «**لَا آمُرُكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَنْ تُوكِلَهُ**».

وَكَمَا حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ الْحَسَنِ أَنَّهُ سَمِعَ سُفْيَانَ يَقُولُ: أَبُو الزِّنَادِ، عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَكَرِهَهُ وَقَالَ: «**لَا تَأْكُلْهُ وَلَا تُوكِلْهُ**»، وَلَمْ يَذْكُرْ أَحْمَدُ فِي حَدِيثِهِ عُبَيْدًا أَبَا صَالِحٍ.

وَكَمَا حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ الْمُرَادِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلَالٍ: حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ يَعْنِي ابْنَ مُحَمَّدٍ، عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّ رَجُلًا سَأَلَهُ، فَقَالَ: إِنَّ لِي دَيْنًا عَلَى رَجُلٍ إِلَى أَجَلٍ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَضَعَ عَنْهُ، وَيُعَجِّلَ الدَّيْنَ لِي، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ رضي الله عنه: «**لَا تَفْعَلْ**».

فَقَالَ قَائِلٌ: أَفَتَجْعَلُونَ حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ الَّذِي ذَكَرْتُمُوهُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْبَابِ حُجَّةً لِمَنْ أَجَازَ الْمَعْنَى الْمَذْكُورَ فِيهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ؟

فَكَانَ جَوَابَنَا لَهُ فِي ذَلِكَ: أَنَّهُ لَا حُجَّةَ فِيهِ عِنْدَنَا لِمَنْ ذَهَبَ إِلَى إِطْلَاقِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ ذَهَبَ إِلَى كَرَاهَتِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَانَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ ذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ اللهِ عز وجل الرِّبَا، ثُمَّ حُرِّمَ الرِّبَا بَعْدَ ذَلِكَ فَحُرِّمَتْ أَسْبَابُهُ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِي الْفِقْهِ جَلِيلَةُ الْمِقْدَارِ مِنْهُ، يَجِبُ أَنْ تُتَأَمَّلَ حَتَّى يُوقَفَ عَلَى الْوَجْهِ فِيهَا إِنْ شَاءَ اللهُ، وَهِيَ حَطِيطَةُ الْبَعْضِ مِنَ الدَّيْنِ الْمُؤَجَّلِ، لِيَكُونَ سَبَبًا لِتَعْجِيلِ بَقِيَّتِهِ، فَكَرِهَ ذَلِكَ مَنْ كَرِهَهُ مِمَّنْ ذَكَرْنَا، وَأَطْلَقَهُ مَنْ سِوَاهُ مِمَّنْ وَصَفْنَا، وَكَانَ الْأَصْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ

لَوْ جَرَى فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَنْ هُوَ لَهُ، وَبَيْنَ مَنْ هُوَ عَلَيْهِ بِالْوَضْعِ وَالتَّعْجِيلِ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَشْرُوطٌ فِي صَاحِبِهِ، كَانَ وَاضِحًا أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ، وَأَنَّهُ كَالرِّبَا الَّذِي جَاءَ الْقُرْآنُ بِتَحْرِيمِهِ، وَبِوَعِيدِ اللهِ ﷻ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّ الْجَاهِلِيَّةَ كَانُوا يَدْفَعُونَ إِلَى مَنْ لَهُمْ عَلَيْهِمُ الدَّيْنُ الْعَاجِلُ مَا يَدْفَعُونَهُ إِلَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى يُؤَخِّرُوا عَنْهُمْ ذَلِكَ الدَّيْنَ الْعَاجِلَ إِلَى أَجَلٍ يَذْكُرُونَهُ فِي ذَلِكَ التَّأْخِيرِ، فَيَكُونُونَ بِذَلِكَ مُشْتَرِينَ أَجَلًا بِمَالٍ، فَحَرَّمَ اللهُ ذَلِكَ، وَأَوْعَدَ عَلَيْهِ الْوَعِيدَ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ، فَكَانَ مِثْلُ ذَلِكَ وَضْعُ بَعْضِ الدَّيْنِ الْمُؤَجَّلِ لِتَعْجِيلِ بَقِيَّتِهِ فِي أَنْ لَا يَجُوزَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ ابْتِيَاعُ التَّعْجِيلِ بِمَا يُتَعَجَّلُ مِنْهُ بِإِسْقَاطِ بَقِيَّةِ الدَّيْنِ الَّذِي سَقَطَ مِنْهُ، فَهَذَا وَاضِحٌ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ، وَمِمَّنْ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَبُو حَنِيفَةَ، وَمَالِكٌ، وَأَبُو يُوسُفَ، وَمُحَمَّدٌ كَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مَعْبَدٍ، أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ، عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ بِمَا ذَكَرْنَا وَلَمْ يَحْكِ بَيْنَهُمْ فِي ذَلِكَ خِلَافًا.

وَكَمَا حَدَّثَنَا يُونُسُ، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ مَالِكٍ، بِهَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا.

وَمِمَّنْ كَانَ يَذْهَبُ إِلَى خِلَافِ ذَلِكَ زُفَرُ بْنُ الْهُذَيْلِ.

كَمَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ الْجُعْفِيُّ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ، قَالَ: قَالَ زُفَرُ فِي رَجُلٍ لَهُ عَلَى رَجُلٍ أَلْفُ دِرْهَمٍ إِلَى سَنَةٍ مِنْ ثَمَنِ مَتَاعٍ أَوْ ضَمَانٍ، فَصَالَحَهُ مِنْهَا عَلَى خَمْسِ مِئَةٍ نَقْدًا: «**إِنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ**».

وَقَدْ كَانَ الشَّافِعِيُّ ﷺ قَدْ أَجَازَ ذَلِكَ مَرَّةً، كَمَا ذَكَرَهُ لَنَا الْمُزَنِيُّ عَنْهُ، قَالَ: وَلَوْ عَجَّلَ الْمُكَاتَبُ لِمَوْلَاهُ بَعْضَ الْكِتَابَةِ عَلَى أَنْ يُبَرِّئَهُ مِنَ الْبَاقِي لَمْ يَجُزْ، وَرُدَّ عَلَيْهِ مَا أَخَذَ، وَلَمْ يُعْتَقْ؛ لِأَنَّهُ أَبْرَأَهُ مِمَّا لَمْ يَبْرَأْ مِنْهُ، قَالَ الْمُزَنِيُّ: قَدْ قَالَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: ضَعْ وَتَعَجَّلْ لَا يَجُوزُ، وَأَجَازَهُ فِي الدَّيْنِ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْوَضْعُ وَالتَّعْجِيلُ لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا مَشْرُوطًا فِي صَاحِبِهِ، وَلَكِنَّهُ عَلَى وَضْعِ مَرْجُوٍّ بِهِ التَّعْجِيلُ لِبَقِيَّةِ الدَّيْنِ، فَذَلِكَ بِخِلَافِ الْبَابِ الْأَوَّلِ، وَلَا يَجُوزُ فِي الْمَعْقُولِ، إِبْطَالُهُ بِالْحُكْمِ، وَلَكِنَّهُ مَكْرُوهٌ غَيْرُ مَحْكُومٍ بِإِبْطَالِهِ، كَمَا يُكْرَهُ الْقَرْضُ الَّذِي يَجُرُّ مَنْفَعَةً، وَلَا يُحْكَمُ بِإِبْطَالِهِ لِذَلِكَ، فَهَذَا وَجْهُ هَذَا الْبَابِ بِإِيقَاعِ الصُّلْحِ عَلَى اشْتِرَاطِ التَّعْجِيلِ فِي الْوَضْعِ، وَفِي الْوَضْعِ الْمَرْجُوِّ بِهِ تَعْجِيلُ بَقِيَّةِ الدَّيْنِ بِغَيْرِ اشْتِرَاطٍ لَهُ فِي ذَلِكَ الْوَضْعِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ». [**تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٥/ ٦٥٥-٦٦٢**].

١٠ ـ غنائم بني النضير والحكم العام في الغنائم كلها:

يقول الشيخ أبو زهرة: «كانت غنائم بني النضير هي أول غنائم من أهل القرى من أرض ونخيل، وحصون، فهي التي سنت ما يتخذ من حكم الاستيلاء على الأراضي أتوزع على المحاربين أم تكون محبوسة على مصالح المسلمين، فيكون لهم غلاتها، وتبقى تحت أيدي أصحابها على ألا تكون أيديهم أيدي ملاك رقبة، بل ملاك منفعة على خراج يؤدونه.

ويقول الفقهاء إن ذلك الخراج هو بمثابة أجرة للأرض قد استأجروها به، وإليكَ النص الذي جاء في هذه الأراضي:

قال الله تعالى عقب إجلاء بني النضير: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[الحشر].

ونجد هذا النص الكريم قسم ما أفاء الله ـ تعالى ـ به على رسوله ﷺ والمؤمنين معه قسمين:

أحدهما: ما لا يُعد شيئًا نابتًا أو أرضًا، بل هو مال غير ثابت، فالأمر فيه إلى رسول الله ﷺ يوزعه كما شرع الله ـ تعالى ـ له، وقد أشار إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾، ويوزعه النبي ﷺ بمقتضى أمره في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ إلى آخر الآية [الأنفال: ٤١].

والقسم الثاني: هو ما أفاء الله ـ تعالى ـ به من أهل القرى، وهو الأموال الثابتة من نخيل قائم وأرض زراعية.

وهذه قد جعلها الله ـ تعالى ـ لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

وهنا يجيء البحث فيه: أتقسم الأرض بين الغانمين وتخمس كما تخمس الغنائم، فيكون لله وللرسول ﷺ وذي القربى واليتامى والمساكين الخمس وأربعة الأخماس للمجاهدين.

وقد بدا ذلك الخلاف عند الاستيلاء على أرض سواد العراق، وقد جمع عمر ﷺ الصحابة ﷺ خارج المدينة المنورة، وأخذ يجادلهم ويجادلونه ثلاث ليال سويًّا، هو يحتج بألا يكون المال دُولة بين الأغنياء، وقال: إن الله سيفتح فارس ومصر والشام، فلو قُسمت فماذا يبقى لسد الثغور وماذا يبقى للذرية.

وهم يعارضون بأنها غنائمهم، وأشد من يعارضه بلال ﷺ وصحب له، فكان عمر الفاروق ﷺ يقول: **اللهم اكفني بلالًا وصحبه.**

وبعد ثلاث ليال أراد أن يُحكِّم بينه وبين مخالفيه طائفة من الأنصار خمسة من الأوس وخمسة من الخزرج، فلما التقوا به ذكر لهم أنه ما أزعجهم إلا ليحكموا بينه وبين مخالفيه، وبعد أن عرض وجهة نظره من الوجهة المصلحية الاجتماعية، ذكر لهم أنه وجد قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ إلى آخر الآيات [الحشر: ٧].

وفصل القول ووزع الأقسام التي تشتمل عليها الآية، وذكر أن الغلات أولًا للمهاجرين، ثم للذين أووا ونصروا، ثم للذين اتبعوهم، ثم للذين جاؤوا من بعدهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[الحشر: ١٠].

ولما تلا عليهم الآيات انقطع الخلاف، وصار الإجماع على أن تكون الأرض محبوسة لمنافع المسلمين بحكم هذه الآية: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

وأن رسول الله ﷺ أعطى ثمرات أرض بني النضير للمهاجرين ليرفع بذلك مؤونتهم عن الأنصار، إذ كانوا قد ساهموهم في الأموال والديار، ولم يعط مع المهاجرين من الأنصار إلا أبا دجانة وسهل بن حنيف رضي الله عنهما لحاجتهما.

ومؤدى ذلك أنه وزع الأموال والثمرات على ذوي الحاجات وذوي القربى واليتامى والمساكين وفعل ذلك مع الذين اتبعوا من مهاجرين وأنصار، ثم مَنْ جاؤوا بعدهم، والله سبحانه وتعالى أعلم».
[خاتم النبيين ﷺ لأبي زهرة ٢/ ٧٥٥-٧٥٧].

١١ ـ حكم الفيء:

يقول د/ البوطي: «اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم بدون قتال (وهو الفيء) يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تُقسم عليهم الغنائم التي غنموها بعد قتال وحرب، مستدلين على ذلك بسياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، فقد خص به ـ كما رأيت ـ المهاجرين دون الأنصار، وقد نزل القرآن تصويبًا في الآيتين اللتين ذكرناهما.

ثم اختلفوا في الأراضي التي غنمها المسلمون بواسطة الحرب: فذهب مالك إلى أن الأرض لا تُقسم مطلقًا، وإنما يكون خراجها وقفًا لصالح المسلمين، إلا أن يرى الإمام أن المصلحة تقضي القسمة فإن له ذلك، ويذهب الحنفية قريبًا من هذا المذهب.

أما الشافعي فذهب إلى أن الأرض المأخوذة عنوة تجب قسمتها كما تجب قسمة غيرها من الغنائم، وهو الظاهر من مذهب الإمام أحمد.

ودليل ما ذهب إليه الشافعي أن تصرف النبي ﷺ بأموال بني النضير على خلاف ما تقتضيه

القسمة بين الغانمين في الحرب، إنما كان بسبب عدم وجود أي قتال تَسَبَّب عنه الحصول على تلك الغنائم، وقد نصت الآية على ذلك في معرض تعليل حكمه ﷺ في فيء بني النضير، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾ [الحشر].

وإذا كان هذا هو مناط جواز عدم القسمة لأراضي الفيء فمن الواضح أنه إذا ارتفع مناط الحكم، ارتفع الحكم معه، وعاد الحكم المنصوص عليه في حق الغنائم، سواء في ذلك الأراضي وغيرها.

ودليل ما ذهب إليه مالك وأبو حنيفة أمور كثيرة، من أهمها عمل عمر ﷺ حينما امتنع عن تقسيم سواد العراق، وجعلها وقفًا يجري خراجها ريعًا للمسلمين، وليس المجال هنا متسع لأكثر من هذا العرض المجمل في الموضوع.

إنما الذي ينبغي أن نتنبه إليه من هذا البحث هنا، هو التعليل الذي ذكره الله تعالى في الآيتين اللتين أوضحتا سياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير إذ اختص به أناسًا دون آخرين، فقد ذكر الله تعالى في تعليل ذلك بقوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، أي كي لا يكون تداول المال محصورًا فيما بين طبقة الأغنياء منكم فقط.

والتعليل بهذه الغاية يؤذن بأن سياسة الشريعة الإسلامية في شؤون المال قائمة في جملتها على تحقيق هذا المبدأ، وإن كل ما تفيض به كتب الشريعة الإسلامية من الأحكام المتعلقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبتغى من ورائه إقامة مجتمع عادل تتقارب فيه طبقات الناس وفئاتهم، ويُقضى فيه على أسباب الثغرات التي قد تظهر فيما بينهم، والتي قد تؤثر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طُبقت أحكام الشريعة الإسلامية وأنظمتها الخاصة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزكاة، ومنع للربا، وقضاء على جميع مظاهر الاحتكارات لعاش الناس كلهم في بحبوحة من العيش، قد يتفاوتون في الرزق ولكنهم جميعًا مكتفون، ليس فيهم كَلٌّ على آخر، وإن كانوا جميعًا يتعاونون.

والمهم أن تعلم أن الله تعالى لما جعل غاية شريعته في الدنيا إقامة هذا المجتمع، شرع لذلك وسائل وأسبابًا معينة ألزمنا باتباعها وعدم الخروج عليها، أي أن الله تعالى تَعَبَّدَنَا بكل من الغاية والوسيلة معًا، فلا يجوز أن يقال: إن الغاية من الإسلام إقامة العدالة الاجتماعية، فلنسلك إلى ذلك ما نراه من الأسباب والسبل، بل إن هذا يُعد خروجًا على كل من الغاية والوسيلة معًا، فلن تتحقق الغاية التي أمرنا الله تعالى بتحقيقها إلا باتباع الوسيلة التي شرعها لنا سبيلًا إلى تلك الغاية، والتاريخ أعظم دليل، والوقائع أكبر شاهد.

هذا وجدير بك أن تعود إلى سورة الحشر بكاملها، لتتأمل التعليق الإلهي العظيم على هذه الحادثة بمجموعها وعامة ملابساتها: اليهود، المنافقون، سياسة الرسول في المال والحرب وغير ذلك... فهذه السورة من أهم ما يُمَكِّنك من الوقوف على دروس هذه القصة وعظاتها». [فقه السيرة للبوطي ٢٠٥-٢٠٦].

١٢ ـ حكم الأرض المفتوحة:

يقول د/ العيساوي: «سبق وأن قسمنا الغنيمة إلى أربعة أقسام وهي: (الأسرى، والسَّبي، والأَرَضُون، والأموال) وتكلمنا عن حكم الأسرى والأموال وكيفية قسمتها في فقه غزوة بدر الكبرى.

والآن نتكلم عن حكم الأراضي.

لقد عرفنا من خلال عرضنا لأحداث الغزوات الماضية أن المسلمين غنموا أراضي خيبر وأراضي بني النضير، وبني قريظة، وقينقاع، وهذه الأراضي التي استولى عليها المسلمون تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أرض ملكت عفوًا لجلاء أهلها.

الثاني: أرض استولي عليها صلحًا.

الثالث: أرض ملكت عنوةً وقهرًا. [آثار الحرب ص ٥٣٣، والجزية والإسلام ـ دانيل دينت ص ٣٧].

أولاً: الأرض التي ملكت عفوًا لجلاء أهلها عنها: هذا النوع من الأرض هو المعروف عند الفقهاء بالفيء: والفيء هو المال الذي يؤخذ من الحربيين من غير قتال، أي بطريق الصلح كالجزية والخراج.

[المبسوط ١٠/ ٧، وتفسير القرطبي ٨/ ١، ومعجم البلدان ١/ ٣٥-٣٧، وبداية المجتهد ١/ ٤٨٩، والمهذب ٢/ ٢٤٧، ونهاية المحتاج ٥/ ١٠٥، وأحكام أهل الذمة ص ١٠٦].

هذه الأموال في الإسلام تنتقل ملكيتها إلى بيت المال بالاستيلاء عليها، وتصير أملاك دولة.

وقد عبر الفقهاء عن ذلك بأنها تصير وقفًا أي ملكًا للأمة الإسلامية بمجرد الاستيلاء عليها، ويضع ولي الأمر عليها خراجًا يؤخذ كأجرة ممن يعامل عليها من مسلم أو معاهد، وصيرورتها وقفًا لأنها ليست غنيمة، فكان حكمها حكم الفيء يكون للمسلمين كلهم.

[فتح القدير ٤/ ٣٥٣، والخراج ص ٢٣، والقوانين الفقهية ص ٦٦].

ولم يختلف في ذلك فقهاؤنا بالنسبة للعقار، إلا أن الشافعية والحنابلة قالوا: إن وقفها يحتاج إلى صيغة من الإمام لتصبح هذه الأرض وقفًا. [الأحكام السلطانية للماوردي ص ١٣٣، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٣٢، ومغني المحتاج ٣/ ٩٩، وشرح السير الكبير ٤/ ٢٤٨].

أما المنقول في الفيء فيوقف أيضًا عند الجمهور، ويصرفُ لمصالح المسلمين، أي الأمر فيه للإمام يفعل ما يراه مصلحة.

وأما عند الشافعية: فَيُخَمَّس المنقول كالغنيمة؛ لأن آية الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الحشر: ٦] مطلقة، وآية الغنيمة ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٤١] مقيدة، فحمل المطلق على المقيد جمعًا بينهما لاتحاد الحكم، فإن الحكم واحد، وهو رجوع المال من الحربيين للمسلمين وإن اختلف السبب بالقتال وعدمه. [ينظر: مغني المحتاج ٣/ ٩٣، وزاد المعاد ٣/ ٢٢، والقوانين الفقهية ص ١٤٨].

والدليل يرجح مذهب الجمهور، فَعَنْ عُمَرَ ﷺ، قَالَ: «كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، مِمَّا لَمْ يُوجِفْ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ بِخَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ (الإيجاف هو الإسراع، أي لم يعدوا في تحصيله خيلًا ولا إبلًا، بل حصل بلا قتال، والركاب هي الإبل التي يسافر عليها لا واحد لها من لفظها واحدة راحلة، وكذلك الخيل لا واحد لها من لفظها واحده فرس)، فَكَانَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً، فَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَةٍ (أي يعزل لهم نفقة سنة، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السنة في وجوه الخير فلا تتم عليه السنة)، وَمَا بَقِيَ يَجْعَلُهُ فِي الْكُرَاعِ (أي الدواب التي تصلح للحرب) وَالسِّلَاحِ، عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ (هي ما أعد للحوادث أهبة وجهازًا للغزو)». [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٧)، شرح مسلم للنووي ١٢/ ٧].

فقوله: كانت للنبي ﷺ خاصة: يؤيِّد مذهَبَ الجمهور في أنه لا يخمسُ الفيء، إذ من المعروف أن فدك والعوالي (أموال بني النضير في المدينة) [سيرة ابن هشام ٢/ ٣٣٧]، وكانت للرسول ﷺ خاصة، ولمن بعدَه من الأئمة، لقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [الحشر: ٦]، أراد أن ذلك لا يقسم كالغنائم بدليل قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الحشر: ٧]، وإذا أراد الإمام تفريق الفيء بين المسلمين اتخذ ديوانًا يحفظُهم ويرتبهم، ويجعل العطاء على حسب ما يتيسر له شهريًّا أو غير ذلك.

[البحر الزخار ٥/ ٤٤٢، والمذهب ٢/ ٢٤٨].

ثانيًا: الأرض التي فُتحت صلحًا: يتحدد حكم هذا النوع من الأراضي بموجب عقد الصلح، فهو إما أن يقع الصلح على أن تكون الأرض للمسلمين، وإما أن يقع على أن تكون الأرض لأصحابها.

[آثار الحرب في الفقه الإسلامي ص ٥٥٣].

ففي الحالة الأولى: تصبحُ الأرض وقفًا للمسلمين كأرض العَنْوة وتعتبرُ من بلاد الإسلام كالأرض التي جلا عنها أهلُها؛ لأن النبي ﷺ فتح خيبر، وصالح أهْلَها على أن يعمروا أرضَها ولهم نصفُ ثمرتها، فكانت للمسلمين دونهم، روى البخاري والبيهقي وأبو داود عن ابن عمر ﷺ قال: عامل النبي ﷺ خيبر بشطر ما يخرجُ منها من ثمر أو زرع.

[صحيح البخاري ٣/ ١٠٥، و٥/ ١٤٠، وسنن أبي داود ٣/ ٣٥٧، وسنن البيهقي ٦/ ١١٣].

وصالح النبي ﷺ بني النضير على أن يُجليَهم من المدينة ولهم ما أقلَّت الإبلُ من الأمتعة والأموال إلا الحلقة (يعني السلاح)، وكانت مما أفاء الله على رسوله ﷺ. [الشرح الكبير ١٠/ ٥٤٢].

ويوضع على هذه الأرض الخَراج ويكون تابعًا، فإذا اشترى مسلم بعضًا منها ظلَّ ملتزمًا بدفع الخراج؛ لأنه يعتبر أجرةً في نظير الانتفاع، وهذا أمرٌ متفق عليه بين الفقهاء.

[المدونة ٣/ ٢٦، والمنتقى على الموطأ ٣/ ٢١٩].

وفي الحالة الثانية: تكونُ الأرضُ ملكًا لأهلها بموجب الصُّلح باتفاق الفقهاء، ويلتزم المسلمون بتنفيذ شروط الصلح كاملةً ما داموا قائمين على الصلح، ولكن يوضعُ الخراج على الأرض يؤدونه عنها ويكون لبيت المال. [ينظر: الخراج ص ٦٣، وتبيين الحقائق ٣/ ٢٧٤، وحاشية ابن عابدين ٢/ ٣، ٥٣، والأم ٤/ ١٠٣-١٠٩، والشرح الكبير ١/ ٥٤٣، وأحكام أهل الذمة لابن القيم ص ١٠٥].

ثالثًا: الأرض التي فُتحت عنوة: هذا النوع من الأراضي حكمه حكم سائر الأموال التي تغنم وأن خمسها لأهل الخمس وأربعة أخماسها للغانمين، بدليل ما بينته السُّنة بقوله ﷺ وفعله، **قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَيُّمَا قَرْيَةٍ أَتَيْتُمُوهَا، وَأَقَمْتُمْ فِيهَا، فَسَهْمُكُمْ فِيهَا، وَأَيُّمَا قَرْيَةٍ عَصَتِ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ خُمُسَهَا لله وَلِرَسُولِهِ، ثُمَّ هِيَ لَكُمْ»**. [مسلم في الجهاد والسير (١٧٥٦)، وأبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٣٦)، والأموال ص٥٧].

فالمرادُ بالقرية الأولى الفيء، ويصرف مصارفه، والمراد بالقرية الثانية ما أُخِذَ عَنْوَةً فيكون غنيمةً يخرجُ منها الخمس وباقيه للغانمين، وهو معنى قوله ﷺ: «**ثُمَّ هِيَ لَكُمْ**» أي باقيها [آثار الحرب ص ٥٣٧]، وقد ثبت أن الرسولَ ﷺ قسم خيبرَ بينَ الغُزاة بعد أن فُتحت عَنْوَة.

[شرح مسلم ١٢/ ١٦٤، وسنن أبي داود ٢/ ٢١٧، ونيل الأوطار ٨/ ١٢].

وقسم أيضًا أموال بني قُريظة وبني النَّضيَر. [شرح مسلم ١٢/ ٩١، وزاد المعاد ٢/ ٦٨].

وقال عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ: «**أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ أَنْ أَتْرُكَ آخِرَ النَّاسِ بَبَّانًا** (المُعدم الذي لا شيء له) **لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ، مَا فُتِحَتْ عَلَيَّ قَرْيَةٌ إِلَّا قَسَمْتُهَا كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ، وَلَكِنِّي أَتْرُكُهَا خِزَانَةً لَهُمْ يَقْتَسِمُونَهَا**. [صحيح البخاري ٤/ ٨٦].

فكان رأي سيدنا عمر ﷺ أن يترك الأرضَ مفتوحةً ولا يقسمها بين الفاتحين، وكانت هذه سياسَتَهُ في أرض السواد وغيرها.

والفقهاء متفقون على جواز قسمة الأراضي بين الغانمين، وذلك لعموم قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١].

إلا أنهم اختلفوا في اعتبار القسمة أمرًا ملزِمًا لوليِّ الأمر، أم أن له الخيار في خصال أخرى.

والثابت أن حكمَ هذه الأراضي المفتوحة، متروكٌ للإمام: له أن يقسمها إن رأى ذلك صلاحًا للمسلمين، وله أن يتركها، وقد فعل ذلك عمرُ ﷺ في أرض السَّواد ووافقه الصحابة ﷺ على ذلك بعد أن اختلفوا عليه لكنه ظلَّ يُجاريهم حتى اتفقوا جميعًا.

وقد علق الطحاوي على قسمة الرسول ﷺ نصفَ خيبرَ نصفها لنوائبه وحاجته، فقال: «فعلمنا من ذلك أنه قَسَمَ، وله أن يقسِمَ، وتَرَكَ وله أن يتركَ». [القسطلاني ٥/ ٢٠٠]. [فقه الغزوات للعيساوي ١٧٧-١٨٠].

١٣ ـ توزيع الثروة توزيعًا عادلاً وتنشيطًا للحركة الاقتصادية عند المسلمين:

يقول د/ أبو فارس: «لقد حرص الرسول ﷺ أن يوزع الفيء على المهاجرين دون الأنصار ـ كما مر معك سابقًا ـ لحكمة ربانية باهرة، وهي تحقيق العدالة في توزيع الثروة، فلا تتكدس الثروة في أيدي فئة قليلة من الناس، يكون مصير الكثرة بأيديهم، إذ يترتب على هذا اختلال في التوازن الاقتصادي والمالي في المجتمع، مما يسبب كثيرًا من الاضطراب والتضخم في الحياة الاقتصادية، ولقد أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ عن هذه الحكمة في القرآن الكريم فقال ﷻ: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٣].

١٤ ـ قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد:

يقول د/ الصلابي: «بعد بيان العلة في توزيع أموال الفيء عقَّب سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرسول ﷺ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه، وأن هذا من لوازم الإيمان، وأمرهم بالتقوى، فإن عقابه شديد وأليم للعصاة، قال تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر]، أي: ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمركم بكل خير وصلاح، وينهى عن كل شر وفساد، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا ربكم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ أي فإن عقابه أليم وعذابه شديد لمن عصاه وخالف ما أمره به، قال المفسرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء إلا أنها عامة في كل ما أمر الله به النبي ﷺ أو نهى عنه من واجب، أو مندوب، أو مستحب، أو محرم، فيدخل فيها الفيء وغيره.

وقد جاءت آيات كثيرة تربي الأمة على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله ﷺ، وذلك في كل الأمور، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء].

وقال ﷺ: «**مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ**». [مسلم في الفضائل (١٣٣٧)]. [السيرة للصلابي ٢/ ٢١٣-٢١٤].

ويقول صاحب الظلال: «فأما قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ﴾، فهي تمثل النظرية الدستورية الإسلامية، فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول ﷺ قرآنًا أو سنة.

والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول ﷺ، فإذا شرَّعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان؛ لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان، وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات، بمعنى أن للأمة أن تشرِّع لنفسها ما تشاء، وكل ما تشرِّعه فهو ذو سلطان، فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع الله الذي جاء به الرسول ﷺ والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها ـ والإمام نائب عن الأمة في هذا ـ وفي هذا تنحصر حقوق الأمة، فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول ﷺ في أي تشريع.

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول ﷺ بخصوص أمر يَعْرِض للأمة فسبيلها أن تشرِّع له بما لا يخالف أصلًا من أصول ما جاء به الرسول ﷺ، وهذا لا ينقض تلك النظرية، إنما هو فرع عنها، فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول ﷺ إن كان هناك نص، وألا يخالف أصلًا من أصوله فيما لا نص فيه، وتنحصر سلطة الأمة ـ والإمام النائب عنها ـ في هذه الحدود، وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية، وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله، وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه الله له والقانون الذي يحكم البشر وهو من الله ﷻ؛ كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون، فيشقى الإنسان أو يتحطم، أو تذهب جهوده أدراج الرياح!».
[الظلال لقطب ٦/ ٣٥٢٥].

وعلى الدعاة وجماعتهم المسلمة رفع هذا الشعار وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ سواء كان هذا الإيتاء والنهي يتعلقان بنفس المسلم وشؤونه الخاصة أو ما يتعلق بعلاقاته مع غيره، وسواء كان ذلك ما تعلق بالدعاة وبجماعتهم أو ما تعلق بغيرهم. [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٩٠].

١٥ ـ قاعدة التنظيم الاقتصادي:

يقول صاحب الظلال: «وقاعدة التنظيم الاقتصادي، تمثل جانبًا كبيرًا من أسس النظرية الاقتصادية في الإسلام، فالملكية الفردية معترف بها في هذه النظرية، ولكنها محددة بهذه القاعدة، قاعدة ألا يكون المال دُولة بين الأغنياء، ممنوعًا من التداول بين الفقراء، فكل وضع ينتهي إلى أن يكون المال دُولة بين الأغنياء وحدهم هو وضع يخالف النظرية الاقتصادية الإسلامية، كما يخالف هدفًا من أهداف التنظيم الاجتماعي كله.

وجميع الارتباطات والمعاملات في المجتمع الإسلامي يجب أن تُنظَّم بحيث لا تخلق مثل هذا الوضع أو تُبقي عليه إن وجد.

ولقد أقام الإسلام بالفعل نظامه على أساس هذه القاعدة، ففرض الزكاة، وجعل حصيلتها في العام اثنين ونصفًا في المائة من أصل رؤوس الأموال النقدية، وعشرة أو خمسة في المائة من جميع الحاصلات، وما

يعادل ذلك في الأنعام، وجعل الحصيلة في الركاز وهو كنوز الأرض مثلها في المال النقدي، وهي نسب كبيرة، ثم جعل أربعة أخماس الغنيمة للمجاهدين فقراء وأغنياء، بينما جعل الفيء كله للفقراء، وجعل نظامه المختار في إيجار الأرض هو المزارعة ـ أي المشاركة في المحصول الناتج بين صاحب الأرض وزارعها ـ وجعل للإمام الحق في أن يأخذ فضول أموال الأغنياء فيردها على الفقراء، وأن يوظف في أموال الأغنياء عند خلو بيت المال، وحرَّم الاحتكار، وحظَر الربا، وهما الوسيلتان الرئيستان لجعل المال دُولة بين الأغنياء.

وعلى الجملة أقام نظامه الاقتصادي كله بحيث يحقق تلك القاعدة الكبرى التي تعد قيدًا أصيلًا على حق الملكية الفردية بجانب القيود الأخرى. [يراجع فصل سياسة المال في كتاب: العدالة الاجتماعية في الإسلام].

ومن ثم فالنظام الإسلامي نظام يبيح الملكية الفردية، ولكنه ليس هو النظام الرأسمالي كما أن النظام الرأسمالي ليس منقولًا عنه، فما يقوم النظام الرأسمالي إطلاقًا بدون ربا وبدون احتكار، إنما هو نظام خاص من لدن حكيم خبير، نشأ وحده، وسار وحده، وبقي حتى اليوم وحده، نظامًا فريدًا متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات متناسقًا تناسق الكون كله، مذ كان صدوره عن خالق الكون، والكون متناسق موزون!». [الظلال لقطب ٦/ ٣٥٢٤-٣٥٢٥].

١٦ ـ السياسة المالية الجديدة للدولة الإسلامية:

يقول د/ قلعجي: «إن قسمة أموال بني النضير بين المهاجرين وفقراء الأنصار أوجدت تطورًا كبيرًا في السياسة المالية للدولة الإسلامية، فقد كانت الغنائم الحربية قبل هذه الغزوة تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدولة الإسلامية خُمسها لتصرف في مصارف معينة حددها القرآن الكريم، واليوم بعد غزوة بني النضير، أوجدت هناك سياسة مالية جديدة فيما يتعلق بالغنائم، وخلاصتها: أن الغنائم الحربية أصبحت حسب السياسة الجديدة على نوعين:

(١) غنائم استولى عليها المجاهدون بحد سيوفهم، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدولة خُمسها لتصرفه في مصارفه الخاصة.

(٢) غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتال، وهذا النوع يختص رئيس الدولة الإسلامية بالتصرف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك، يعالج به الأوضاع الاقتصادية في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم، أو يشتري به سلاحًا، أو يبني به مدينة، أو يصلح به طرقًا أو... وهذا يعني أنه قد أصبح لرئيس الدولة الإسلامية ميزانية خاصة يتصرف فيها تصرفًا سريعًا حسب مقتضيات المصلحة.

هذه السياسة المالية الجديدة أوجدت كثيرًا من المرونة التي تفتقر إليها كل دولة في تشريعها؛ لأن تحجر القانون لا يجدي في معالجة المشكلات الطارئة إلا الإمعان في صعوبة حلها أو استحالته.

وبهذه السياسة الجديدة أصبحت أموال بني النضير وأراضيهم وبساتينهم في يد رسول الله ﷺ باعتباره رئيس الدولة الإسلامية ليتصرف فيها على ضوء المصلحة كما يشاء، فماذا فعل رسول الله ﷺ بهذه الأموال؟

إنه ﷺ نظر فوجد أن المشكلة المالية للمهاجرين ما زالت قائمة، رغم ما بذله إخوانهم الأنصار من تعاون مع رسول الله ﷺ لحلها، والمهاجرون هم المشتغلون الأول في الجهاد، فهم ما زالوا فقراء، والأراضي والبساتين بيد الأنصار، ولما كان رسول الله ﷺ يعنى عناية فائقة بالأمور الداخلية، ويعتبرها الأساس في بناء الدولة، فقد توجه أول ما توجه ـ بعد أن أصبحت أموال بني النضير في يده ـ إلى حل مشكلة الأوضاع المالية للمهاجرين خاصة وللفقراء عامة؛ ليُشعر هؤلاء بأن الدولة الإسلامية قد أنصفتهم فعلًا، فجعل ما وقع في يده ﷺ من أراضٍ وعقارات لبني النضير لفقراء المدينة ـ وجلهم من المهاجرين ـ لأن من أولى واجبات الدولة أن تعمل على إيجاد الظروف التي تفرض التوزيع العادل للثروة بين المواطنين، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ حين جعل الله تعالى توزيع غنائم بني النضير إليه.

ولما تكلم بعض المنافقين بعدم عدالة هذا التوزيع كان جواب رسول الله ﷺ أن منطق العدالة يقتضي بأن لا يكون المال دُولة بين الأغنياء منكم دون الفقراء، وانصاع الجميع لأمر رسول الله ﷺ، واقتنعوا بالسياسة المالية الجديدة للدولة الإسلامية». [قراءة سياسية للسيرة النبوية لقلعجي ١٦٩-١٧٠].

١٧ ـ حُكْمُ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضَعُهُ فِي ذَوِي قُرْبَاهُ:

قال الإمام الطحاوي: «تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي **حُكْمِ مَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَضَعُهُ فِي ذَوِي قُرْبَاهُ فِي حَيَاتِهِ، كَيْفَ حُكْمُهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ ﷺ؟**

فَقَالَ قَائِلُونَ: هُوَ رَاجِعٌ مِنْ قَرَابَتِهِ إِلَى قَرَابَةِ الخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ لِبَنِي هَاشِمٍ، وَلِبَنِي المُطَّلِبِ خَاصَّةً.

وَقَالَ آخَرُونَ: وَهُمْ الَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَى أَنَّ مَا كَانَ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ لِمَنْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ وَضْعَهُ فِيهِ مِنْ قَرَابَتِهِ هُوَ مُنْقَطِعٌ عَنْهُمْ بِوَفَاةِ رَسُولِ الله ﷺ.

فَنَظَرْنَا فِي هَذِهِ الأَقْوَالِ، لِنَسْتَخْرِجَ مِنْهَا قَوْلًا صَحِيحًا، فَرَأَيْنَا رَسُولَ الله ﷺ كَانَ فِي حَيَاتِهِ فِي المَغْنَمِ، سَهْمُ الصَّفِيِّ لَا اخْتِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ العِلْمِ فِي ذَلِكَ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْهُ فِيهِ، مَا حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ المُرَادِيُّ، قَالَ: ثَنَا أَسَدُ بْنُ مُوسَى، قَالَ: ثَنَا أَبُو هِلَالٍ الرَّاسِبِيُّ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ القَيْسِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَك هَذَا الحَيُّ مِنْ مُضَرَ، وَإِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيَك إِلَّا فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ، فَمُرْنَا بِأَمْرٍ نَأْخُذُ بِهِ، وَنُحَدِّثُ بِهِ مَنْ بَعْدَنَا.

قَالَ ﷺ: «**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنْ تُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَتُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَتُعْطُوا سَهْمَ اللهِ مِنْ الغَنَائِمِ وَالصُّفَّي، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الحَنْتَمِ، وَالدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالمُزَفَّتِ**».

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ دَاوُد بْنِ مُوسَى، قَالَ: ثَنَا أَبُو الوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ، قَالَ: ثَنَا ابْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تَنَفَّلَ سَيْفَهُ ذَا الفَقَارِ يَوْمَ بَدْرٍ».

حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ يَحْيَى الهَمْدَانِيُّ، قَالَ: ثَنَا أَبُو النَّضْرِ، قَالَ: ثَنَا الأَشْجَعِيُّ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: «سَأَلْتُ الشَّعْبِيَّ عَنْ سَهْمِ النَّبِيِّ ﷺ كَسَهْمِ رَجُلٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ الصَّفِيُّ يُصَفَّى بِهِ إِنْ شَاءَ عَبْدًا، وَإِنْ شَاءَ أَمَةً، وَإِنْ شَاءَ فَرَسًا».

حَدَّثَنَا رَوْحُ بْنُ الفَرَجِ، قَالَ: ثَنَا يُوسُفُ بْنُ عَدِيٍّ، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «تَنَفَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَيْفَهُ ذَا الفَقَارِ يَوْمًا، وَهُوَ الَّذِي رَأَى فِيهِ الرُّؤْيَا، يَوْمَ أُحُدٍ».

حَدَّثَنَا يُونُسُ، قَالَ: ثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ اللَّيْثِيِّ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ فِيمَا يَحْتَجُّ بِهِ: «كَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ثَلَاثُ صَفَايَا، بَنِي النَّضِيرِ، وَخَيْبَرَ، وَفَدَكَ، فَأَمَّا بَنُو النَّضِيرِ، فَكَانَتْ، فَجَزَّأَهَا ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ، فَقَسَمَ مِنْهَا جُزْءًا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَبَسَ جُزْءًا لِلنَّفَقَةِ، فَمَا فَضَلَ عَنْ أَهْلِهِ، رَدَّهُ إِلَى فُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ».

حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ يَحْيَى الهَمْدَانِيُّ، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الوَهَّابِ بْنُ عَطَاءٍ، قَالَ: أَخْبَرَنَا الجُرَيْرِيُّ، عَنْ أَبِي العَلَاءِ، قَالَ: «بَيْنَمَا أَنَا مَعَ مُطَرِّفٍ بِأَعْلَى المِرْبَدِ، فِي سُوقِ الإِبِلِ إِذْ أَتَى عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ مَعَهُ قِطْعَةُ أَدِيمٍ، أَوْ قِطْعَةُ جِرَابٍ ـ شَكَّ الجُرَيْرِيُّ ـ فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَقْرَأُ؟ فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَأُ، قَالَ: هَا، فَاقْرَأْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَتَبَهُ لَنَا، فَإِذَا فِيهِ: «**مِنْ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، لِبَنِي زُهَيْرِ بْنِ قَيْسٍ، حَيٍّ مِنْ عُكْلٍ، إِنَّهُمْ شَهِدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَفَارَقُوا الْمُشْرِكِينَ، وَأَقَرُّوا بِالْخُمُسِ فِي غَنَائِمِهِمْ، وَسَهْمِ النَّبِيِّ ﷺ وَصَفِيِّهِ، فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللهِ**».

فَقَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ: هَلْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا تُحَدِّثُنَا؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَذْهَبَ عَنْهُ وَحَرُ الصَّدْرِ، فَلْيَصُمْ شَهْرَ الصَّبْرِ، وَثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ**»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ القَوْمِ: أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَلَا أَرَاكُمْ تَرَوْنَنَا، أَنِّي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ لَا حَدَّثْتُكُمْ اليَوْمَ حَدِيثًا، فَأَخَذَهَا، ثُمَّ انْطَلَقَ».

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: وَأَجْمَعُوا جَمِيعًا أَنَّ هَذَا السَّهْمَ لَيْسَ لِلخَلِيفَةِ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ كَالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا كَانَ الخَلِيفَةُ لَا يَخْلُفُ النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا كَانَ لَهُ، مِمَّا خَصَّهُ اللهُ بِهِ دُونَ سَائِرِ الْمُقَاتِلِينَ مَعَهُ، كَانَتْ قَرَابَتُهُ

أَحْرَى أَنْ لَا تَخْلُفَ قَرَابَةَ النَّبِيِّ ﷺ، فِيمَا كَانَ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ مِنْ الفَيْءِ وَالغَنِيمَةِ، فَبَطَلَ بِهَذَا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إنَّ سَهْمَ ذَوِي القُرْبَى بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ لِقَرَابَةِ الخَلِيفَةِ مِنْ بَعْدِهِ.

ثُمَّ رَجَعْنَا إلَى مَا قَالَ النَّاسُ، سِوَى هَذَا القَوْلِ مِنْ هَذِهِ الأَقْوَالِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي هَذَا الفَصْلِ.

فَأَمَّا مَنْ خَصَّ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي المُطَّلِبِ، دُونَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ ذَوِي قُرْبَى رَسُولِ الله ﷺ، وَجَعَلَ سَهْمَ ذَوِي القُرْبَى لَهُمْ خَاصَّةً، فَقَدْ ذَكَرْنَا فَسَادَ قَوْلِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ، فِي كِتَابِنَا هَذَا، فَأَغْنَانَا ذَلِكَ عَنْ إعَادَتِهِ هَا هُنَا.

وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَهُ لِفُقَرَاءِ قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ دُونَ أَغْنِيَائِهِمْ، وَجَعَلَهُمْ كَغَيْرِهِمْ مِنْ سَائِرِ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، فَقَدْ ذَكَرْنَا أَيْضًا فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الكِتَابِ، فَسَادَ قَوْلِهِ، فَأَغْنَانَا عَنْ إعَادَتِهِ هَاهُنَا.

وَبَقِيَ قَوْلُ الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ لَهُ أَنْ يَضَعَهُ فِيمَنْ رَأَى وَضْعَهُ فِيهِ، مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ وَأَنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ لَا يَسْتَحِقُّ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى يُعْطِيَهُ إيَّاهُ رَسُولُ الله ﷺ، قَدْ كَانَ لَهُ أَنْ يَصْطَفِي مِنْ المَغْنَمِ لِنَفْسِهِ مَا رَأَى، فَكَانَ ذَلِكَ مُنْقَطِعًا بِوَفَاتِهِ، غَيْرَ وَاجِبٍ لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِهِ.

فَالنَّظَرُ عَلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، مَا لَهُ أَنْ يَخُصَّ بِهِ مَنْ رَأَى مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ، دُونَ مَنْ سِوَاهُ مِنْ ذَوِي قُرْبَاهُ فِي حَيَاتِهِ، إلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إلَى أَحَدٍ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِهِ، وَلَمَّا بَطَلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إلَى أَحَدٍ بَعْدَ وَفَاتِهِ، بَطَلَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ السَّهْمُ لِأَحَدٍ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ، بَعْدَ وَفَاتِهِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: فَقَدْ أَبَى ذَلِكَ عَلَيْكُمْ عَبْدُ الله بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، ثُمَّ ذَكَرَ: حَدَّثَنَا إبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي دَاوُد، قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الله بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَسْمَاءَ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمِّي، جُوَيْرِيَةُ بْنُ أَسْمَاءَ، عَنْ مَالِكٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ هُرْمُزَ حَدَّثَهُ أَنَّ نَجْدَةَ، صَاحِبُ اليَمَامَةِ، كَتَبَ إلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، يَسْأَلُهُ عَنْ سَهْمِ ذَوِي القُرْبَى، فَكَتَبَ إلَيْهِ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «إنَّهُ لَنَا، وَقَدْ كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ دَعَانَا لِيُنْكَحَ مِنْهُ أَيِّمُنَا، وَيُقْضَى مِنْهُ غَارِمُنَا، فَأَبَى أَنْ يُسَلِّمَهُ لَنَا كُلَّهُ، وَرَأَيْنَا أَنَّهُ لَنَا». [شرح معاني الآثار للطحاوي ٣/ ٣٠١-٣٠٢].

المطلب الرابع

الدروس الاجتماعية

١ ـ الوقوف على صورة المجتمع المسلم:

ولننظر إلى مجتمع المدينة ومدى حب الصحابة واتباعهم لرسول الله ﷺ، فها هو حُيَيُّ بن أَخْطَبَ زعيم بني النضير يرسل أخاه جُدَيَّ بن أَخْطَبَ برسالتين:

الأولى: إلى محمد ﷺ يؤكد فيها نقض اليهود العهد.

والثانية: إلى عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول ـ زعيم المنافقين ـ يستحثه فيها على نصرتهم التي وعدهم بها.

ويرى جُدَيُّ بن أَخْطَبَ العجبَ، فحينما بَلَّغَ الرسالة الأولى كبر رسول الله ﷺ مبتهجًا، وكبر الصحابة من حوله، وكأنه واثق من النصر ومن إخراج هؤلاء اليهود.

وحينما ذهب ليبلغ الرسالة الثانية رأى أعجب من ذلك، فقد رأى عبد الله بن أبي لا يعنيه شيء مما يحدث بين رسول الله ﷺ وبين بني النضير، أو قُل إنه جَبُنَ عن نصرتهم والوقوف أمام رسول الله ﷺ، ولا عجب أن يرى جُدَيُّ بن أَخْطَبَ ابنًا لعبد الله بن أبي ـ ويسمى أيضًا عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سَلُول ـ وهو يتجهز للقتال مع رسول الله ﷺ، فابن زعيم المنافقين من أنشط المسلمين استجابة لأمر رسول الله ﷺ، فسبحان الله العظيم لا يدري أحد من أين يأتي الخير.

ويعود جُدَيُّ بن أَخْطَبَ إلى بني النضير وهو ينقل إليهم أخبار المجتمع المسلم وحرصه على اتباع رسول الله ﷺ، ونكوص المنافقين عن نصرتهم، كما هي طبيعة المنافقين في كل عصر.

٢ ـ لون من العدالة الاجتماعية في غزوة بني النضير:

يقول الشيخ أبو خوات: «لما خرج بنو النضير من حصونهم ومزارعهم اعتبرت في حكم الإسلام فيئًا أفاءه الله على النبي ﷺ والمسلمين، يعني فضلًا وزيادة أكرم الله به المسلمين ولم يكن غنيمة تُقسم أخماسًا تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[الأنفال: ٤١]؛ لأن شرط التقسيم فيما يأخذه المسلمون من أعدائهم، أن يباشر الجيش قتالًا فعلًا، وهذه الغزوة لم يحدث فيها قتال؛ ولذلك فإن الله يعلل عدم القسمة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر:٦] وبذلك صار ما تركه بنو النضير فيئًا لا غنيمة، فماذا فعل النبي ﷺ في هذا المال الجديد؟

نظر النبي ﷺ إلى مجتمع المدينة المكون من المهاجرين الفقراء الذين تركوا ديارهم وأموالهم بمكة بسبب إيمانهم بدين الله ورسوله وهجرته إلى المدينة، ومن الأنصار أهل الديار ومن يملكون الزرع والضرع والتجارة، نظر إلى هذا المجتمع وقرر أن يقسم ما فتح الله به عليهم على المهاجرين فقط، حتى تتعادل كفتا الميزان بين المهاجرين والأنصار، وذلك بأمر الله سبحانه معللًا بقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، أي إنما يُعطى المهاجرون هذا المال وحدهم حتى لا يكون المال والفيء متداولًا بين يدي الأغنياء وهم الأنصار دون الفقراء وهم المهاجرون، أي أن هنا مالًا اشترك الجميع في تحصيله فكل منهم له فيه نصيب، وعند القسمة يُعطى فريق ممن حصلوه دون فريق، رعاية للعدل الاجتماعي وتقريبًا للفوارق بين أغنياء المجتمع وفقرائه.

ولم تكن المسألة مسألة مهاجرين وأنصار وإنما كانت مشكلة فقراء وأغنياء بدليل أن سهل بن حنيف وأبا دجانة الأنصاريين رضي الله عنهما ذكرا لرسول الله ﷺ فقرهما، فأعطاهما النبي ﷺ كما يعطي كلًّا من المهاجرين.

وهذا الصنيع «عدالة اجتماعية» و«تكافل اجتماعي» و«مساواة في الفرص بين أبناء المجتمع الواحد» ... «اشتراكية» [(١)].

ومنه أخذ الباحثون في مدى تلاقي مبادئ الاشتراكية مع الإسلام النص الذي يجيز لولي الأمر أن يتخذ من الإجراءات ـ متى سنحت الفرصة في حدود العدل ـ ما يقرب بين دخول أفراد المجتمع بما لا يثير الفتن والأحقاد مراعاة للعدل الاجتماعي وحتى لا يظل الغنى غنيًّا والفقير فقيرًا، ولنقرأ الآية معًا: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾[الحشر].

ولعلنا نلاحظ تقديم وصف الفقر على وصف الهجرة في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وهذا واضح.

بقي أن نسأل: ماذا أحدث هذا الصنيع في نفوس الأنصار؟ هل انشقوا وألَّفوا حزبًا رجعيًّا يشغب على رسول الله ﷺ والمهاجرين؟ هل ظهر في تصرفاتهم ما يدل على ما في قلوبهم من حقد مثلًا أو حياء يخشون إظهاره وهم عن هذا الصنيع غير راضين؟

وتجيب الآية التالية للآيتين السابقتين من نفس السورة سورة الحشر عن ذلك كله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[الحشر].

ألا فليسمع الناس وليؤمنوا أن أعدل العدل وأكفى الكفاية جاء به الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا؛ مما يجعل المذاهب التقدمية كلها تنظر إليه باستحياء.

يقول ابن إسحاق: «وَخَلَّوْا الْأَمْوَالَ لرَسُولِ الله ﷺ، فَكَانَت لِرَسُولِ الله ﷺ خَاصَّةً، يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، فَقَسَّمَهَا رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، إلَّا أَنَّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْن خَرَشَةَ رضي الله عنهما ذَكَرَا فَقْرًا، فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ الله ﷺ». [السيرة لابن هشام ٢/ ١٩٢].

---

(١) سقطت النظرية الاشتراكية سقوطًا ذريعًا، ولكن الكاتب كتب هذا الكلام تحت ضغط التأثير الإعلامي للاشتراكية في مصر في فترة الستينيات من القرن العشرين، وقد تَراجَع الدكتور مصطفى السباعي عن كتابه (اشتراكية الإسلام)، كما تولى كثير من علمائنا نقض النظرية الاشتراكية، من أمثال سيد قطب، والمودودي، والسباعي، والغزالي، وينظر على سبيل المثال: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، والإسلام والمناهج الاشتراكية للشيخ محمد الغزالي، وكذلك كتاب: موقف الإسلام من الاشتراكية للدكتور مناع القطان، وغيرها الكثير. غريب.

هذه دروس نتعلمها، وكم في حياة الرسول ﷺ وفي غزواته من دروس وعظات».
[دروس من غزوات الرسول ﷺ لأبي خوات ٧٢-٧٦].

٣ ـ تقريب الإسلام بين الطبقات:

يقول د/ فيض الله: «تكوَّن المجتمع المسلم الأول في المدينة من طائفتين كبيرتين من المسلمين: المهاجرين والأنصار، وكان المهاجرون من الفقراء، الذين أُخرجوا من ديارهم في مكة وأموالهم، وافدين على المدينة، أما الأنصار فكانوا سكان يثرب الأصليين، لهم كل ما فيها من مال صامت وناطق، ويدهم عليه ملك يمين، فكان البون شاسعًا بين الطائفتين، والإسلام يهدف دائمًا إلى تحقيق التوازن بين الطبقات، ولا يقر تضخم الثروات، وتركزها في أيدٍ قليلة، بالشكل الذي نجده في بعض النظم المادية والاقتصادية.

ذلك، ومع أن الأنصار المالكين الواجدين، كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية، وبسماحة وسخاء ظاهِرَيْن، وكانوا ـ كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩].

ومع أنه انعقدت بينهم وبين المهاجرين أُخُوَّة فوق الأخوة من النسب، وهي أخوة الإسلام كما رأينا من قبل، ومع أن الأنصار أيضًا، وَفُّوا هذه الأخوة حقها من البذل والعطاء، وربما اقترحوا على النبي ﷺ قسمة النخيل بينهم وبين المهاجرين، كما في الصحيح، فرفض ذلك تقديرًا للعواقب، مع ذلك كله، بقى الفارق المادي ظاهرًا بين الطائفتين.

لهذا انتهز النبي الكريم ﷺ أول فرصة سنحت له؛ لإزالة هذا الفارق الذي لا يرضاه الإسلام، وقد تَمَثَّل في أموال بني النضير، التي كانت تسمى فيئًا، فخصَّ قسمها بين المهاجرين؛ إغناءً لهم؛ وليرتفع بمستواهم المادي إلى ما يُقَرِّب به من مستوى الأنصار.

قال ابن إسحاق في أموال بني النضير: «فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً، يَضَعُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، فَقَسَّمَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ، إِلَّا أَنَّ سَهْلَ بْنَ حُنَيْفٍ وَأَبَا دُجَانَةَ سِمَاكَ بْنَ خَرَشَةَ رضي الله عنهما ذَكَرَا فَقْرًا، فَأَعْطَاهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١٩٢].

وقد كان هذا التصرف بوحي من العزيز الحكيم، وهو في غاية الحكمة والمصلحة الاجتماعية والاقتصادية؛ لأن الفيء ـ في الاصطلاح الفقهي ـ اسم لما رده الله تعالى على أهل دينه من أموال مَنْ خالفهم في الدين بلا قتال، إما بالجلاء ـ كما هنا ـ أو بالمصالحة على جزية أو غيرها، بخلاف الغنيمة، فإنها: المأخوذ بقوة الغزاة وقهر الكفرة؛ ولهذا تُخَمَّس الغنائم، ثم تقسَّم بين المحاربين، دون الفيء، فإنه كله لأمر الإمام حاكم المسلمين، يضعه حيث تُحَقَّق به المصلحة، ولم يكن ثمة مصلحة أهم من سد حاجة المهاجرين، ورفع مستواهم المادي، وتقريبهم فيه من إخوانهم الأنصار.

إنه التصرف العادل الحكيم، الذي لا سطو فيه على ما في أيدي الأغنياء، فيثيرهم، وفيه استغلال فيء مَنَّ الله به على المسلمين، بلا قتال ولا قعقعة سلاح، ووضعه في فئة فقيرة صادقة صالحة، على وجه يسُدُّ عَوَزَهَا، ويقيم أَوَدَها، ويحقق لها قسطًا من الحياة المادية الفاضلة.

إنه تصرف الطبيب الحصيف اليَقِظ، الذي يشخِّص العلة، ويصف لها العلاج الكافي، الذي من شأنه أن يحصل الشفاء ـ بإذن الله ـ، ويستأصل الداء، ويفيض على المجتمع الأمن والراحة، والبرء والسلامة، ويزيل الفوارق، ويسوِّي الخلجان.

إنه التصرف النزيه الحكيم النابع من صميم العدل الذي قامت به الشرائع السماوية: لم يسلب الواجدين ما في أيديهم من حق، فلم يبتعث فيهم حقدًا، ولم يورثهم ضغينة، وأنصف ذوي الفاقة في أقرب طريق، وأيسر سبيل، فحقق العدالة بالأُخُوَّة والإيمان، والمحبة والسلام، لا بالعداء والدماء، ولا بالحقد والموجدة، ولا بتمزيق المجتمع، وتفريق الصف، وتشتيت الأمة الواحدة المتماسكة:

دَاوَيْتَ مُتَّئِدًا وَدَاوَوْا طَفْرَةً وَأَخَفُّ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ

ثم إنه التوجيه الإلهي الراشد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تتطاول إليه إصلاحات ولا تقنينات ولا تنظيمات مهما تجردت، إن كان لها إلى التجرد سبيل، والذي أرسى القاعدة الصلبة الأولى، التي ينبغي أن تقوم عليها لَبِنَات العدالة الأولى، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾[الحشر: ٧].

تلك القاعدة الكبرى، التي تَرِدُ ـ في الوقائع ـ قيدًا في الإسلام، على الملكية الفردية، التي أباحها الإسلام، تمشيًا مع الفطرة الإنسانية، والغريزة الإنسانية، في حب التملك، لكنه حددها بقيود، منها تحريم الربا والاحتكار، والغش والرشوة، ومن أهمها هذه القاعدة التي ترتد إليها تلك القيود جميعًا: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

فكل وضع من شأنه أن يَقْصر تداول المال بين الأغنياء فقط، وحبسه عمن سواهم، ليس من الإسلام، وما يكون للإسلام أن يقره.

ذلكم شرع الله، ودينه الوحيد المتميز، في كل شيء، في عقيدة التوحيد، وفي منهج الحياة، وأسلوب العبادة، ونظام المال والاقتصاد، الشرع الفريد الذي لا يدانيه نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية؛ لأنه متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات، موائم بين الغرائز الفطرية، والتكاليف الشرعية المالية». [صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة لفيض الله ١٦٤-١٦٧].

٤ ـ معاناة مجتمع الإسلام في المدينة:

في محاولات اليهود اغتيال رسول الله ﷺ، وتآمرهم مع المشركين والمنافقين ضد رسول الله ﷺ، وغير ذلك من مكر اليهود بالإسلام والمسلمين، في كل هذا بيان لحجم المعاناة التي واجهها مجتمع الإسلام.

يقول د/ الحميدي: «فقد ظهر في هذه الغزوة وصف ما تعرض له المسلمون في المدينة بعد هجرتهم من قيام زعماء الكفر بمكة بتأليب الوثنيين في المدينة من الأوس والخزرج الذين لم يدخلوا في الإسلام على حرب المسلمين من داخل المدينة، وكان عبد الله بن أبي بن سلول آنذاك لم يسلم هو ومجموعة من قومه، وكاد أن يقوم هو وأتباعه بمحاربة المسلمين لولا أن النبي ﷺ نجح في إقناعهم بمخاطر قيام حرب داخل المدينة فأحجموا عن ذلك.

ولما أظهر ابن أبي الإسلام بعد غزوة بدر هو وأتباعه يئس الكفار منهم فكتبوا لليهود يهددونهم بمواجهتهم بحرب مفنية إن لم يقوموا بمحاربة رسول الله ﷺ وأصحابه، وصادف ذلك هوى في نفوسهم فعزموا على الحرب ونقضوا العهد، ولكن لما كانوا عاجزين ـ لجبنهم ـ عن مواجهة المسلمين قتاليًّا فإنهم لجأوا إلى سلاحهم الذي يتقنونه ولا يكلفهم مشقة كبيرة ولا ثمنًا باهظًا، حيث عزموا على الغدر برسول الله ﷺ والقيام باغتياله، وفي بالهم أنه لو تَمَّ ذلك لتفرق أصحابه وانتهت دولة الإسلام.

وفي هذا بيان لحجم المعاناة التي واجهها مجتمع الإسلام في أول نشوئه وفي حال قلة أفراده، وحينما يكون العدو من داخل البلد فإن عداوته تكون أنكى ومشكلته تكون أكثر تعقيدًا؛ لأن الأعداء من الخارج تكون المواجهة معهم ليوم واحد أو أيام معدودة ثم ينتهي الأمر، أما الأعداء من الداخل فإن المصيبة بهم دائمة، والحذر منهم يجب أن يكون دائمًا.

ومن هذه المعاناة الشديدة ندرك حجم المخاطر التي واجهها رسول الله ﷺ وهو يقود مجتمعه الصغير بين أعداء من الخارج يصرفون طاقاتهم وأموالهم في تأليب القبائل العربية على حرب المسلمين، ويقومون بغزو المدينة بجيوش ضخمة، وبين أعداء من الداخل أيديهم على أكبادهم من الغيظ الشديد والحنق الأثيم، إلى جانب ما يملكه اليهود من أموال كثيرة يبخلون بها عن المكارم ولكنهم يسخون بها في مواجهة المسلمين في حرب يرونها مصيرية». [التاريخ الإسلامي للحميدي ٦/ ٥٤-٥٥].

المطلب الخامس

الدروس السياسية

١ ـ رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود:

يقول د/ حبيشي: «اتضح الحديث حول المعاهدة التي كانت بين النبي ﷺ ويهود المدينة على اختلاف طوائفهم.

ونحن جميعًا نعلم من خلال هذه المعاهدة أنها كانت معاهدة وطنية، أبرمها النبي ﷺ مع اليهود كي يعلم كلٌّ حدوده داخل هذا الوطن، ويتعرف كلٌّ على مسؤولياته، يباشرها كلما دعا داع يحتم هذه المباشرة.

والشيء الذي ينبغي أن لا يغيب عن البال، هو أن هؤلاء اليهود من بني النضير كغيرهم من أبناء يهود الذين استوطنوا يثرب، قد دخلوا في هذه المعاهدة مختارين غير مضطرين، والتزموا بها التزامًا يجعل كل من يعمل على خلافها يكون خائنًا.

وانطلاقًا من هذه الحقائق نطرح هذا السؤال: (وماذا عن يهود بني النضير، هل اقترفوا ما اقترفه إخوانهم من بني قينقاع من الآثام التي تجعل النبي ﷺ في حِلٍّ من معاهدتهم، وتجعل التاريخ يحكم عليهم بأنهم قد نقضوا العهد وأخلوا بالوعد، وأعلنوا حالة الحرب ضد النبي ﷺ والمسلمين معه، أم أنهم قد التزموا بالمعاهدة وبنودها، وحافظوا على العهود لا يسمحون لأنفسهم أن يمسوها بسوء، حتى يعيش المجتمع كله آمنًا مطمئنًا، حتى ولو اختلفت فيه الديانات وتعددت فيه العقائد؟).

ونحن لن نحاول أن نجيب على هذا السؤال من خلال افتراضات نفترضها ثم نختبرها، وإنما سنحاول أن نترك المجال بكل اتساعه للتاريخ يحكي وقائعه، ويسوق أحداثه ثم نستنتج نحن منه العظة والعبرة؛ لتكون هذه الأحداث المعبرة عن العلاقة بين النبي ﷺ وبين يهود بني النضير رسالة أخرى تبعث بها روح النبي ﷺ إلى أمته في عام ألفين، وفي ذكرى الإسراء والمعراج من رجب المحرم في هذه السنة، لعلها تنزل بردًا وسلامًا على قلب كل أب فقد ولده أو ابنته، أو لعلها تنزل بالسكينة على قلب كل أم رضعت وليدها على أرض فلسطين ودفعت به إلى بيت المقدس أعزل بغير سلاح في وجه هذه الطغمة الآثمة التي دنست أرض بيت المقدس، وهي تُقبل جبينه قائلة له: اذهب يملأ قلبك الإيمان فإما أن تعود إليَّ ببشرى تحرير المسجد الأقصى، أو تذهب شهيدًا ألقاك يوم القيامة في الفردوس الأعلى، ويوقظ دمك قلوبًا في صدور إخوانك من المسلمين، وعيونًا قد آمنت بالله ربًّا وبالنبي محمد ﷺ إمامًا، ولكنها استسلمت للكرى يداعب عيونها، فدنس المسجد الأقصى في غيبة منها.

نسوق هذه الأحداث كلها لتكون رسالة ترسل بها روح الحبيب محمد ﷺ إلى كل إمام ومسؤول من أئمة المسلمين وخاصتهم تنعش فؤادهم بالإيمان، فيتجه كل واحد منهم إلى الله يسأله أن يريه الحق حقًّا ويرزقه اتباعه، وأن يريه الباطل باطلًا ويرزقه اجتنابه.

إني أسوق هذه الأحداث من التاريخ لتكون رسالة تبعث بها روح الحبيب محمد ﷺ إلى كل مفكر وعالم في جميع العلوم الإنسانية لكي يخف إلى أوراقه، فيسكب عليها ما يشاء أن يسكبه من التحليلات لشخصية أبناء يهود وصفاتهم الملازمة لهم، ثم يتقدمون جميعًا بتحليلاتهم واقتراحاتهم إلى أصحاب المعالي والسيادة من قومهم كي تساعدهم على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب من غير خطأ يُعرِّض أمتهم للضياع، ومن غير زلل يندمون عليه، أو تندم أمتهم عليه حين يشعرون بسوء آثاره.

إننا نسوق هذه الأحداث من التاريخ منطلقين من عصر المبعث لتكون رسالة تبعث بها روح الحبيب محمد ﷺ إلى كل مجادل أو مناقش أو مفاوض، وإلى كل متكلم أو متحدث أو سياسي؛ كي تكون عاصمة لهم تعصمهم من الخطأ في التفكير، ومن الزلل في القول.

إننا نسوق هذه الأحداث من التاريخ تحمل عبق الماضي وآلامه وتشير إلى أصناف من البشر تحدد صفاتهم فترفع بعضهم في نشوة حتى يرى الناس، وتشير إلى بعضهم وهو يتوارى خلف ستار كثيف من مخازيه، قد ضربت على أفراده الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله.

إنا نصنع ذلك ليكون رسالة تبعث بها روح النبي ﷺ إلى أفراد وجماعات أمة الإسلام تعينهم على تصور أعدائهم، وتعينهم على أن يربطوا التاريخ بعضه ببعض، وتعينهم على أن يأخذوا العبرة من وقائع التاريخ، فما التاريخ إلا ذاكرة الشعوب وضمير الأمم.

وإني لفاعل ذلك وأنا حريص كل الحرص على أن أترك التاريخ يحدثك بسجله الثبت، وحديثه الصادق، وظلال وقائعه التي لا تخطؤك». [رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٧٧-٧٩].

٢ ـ تحالف الباطل:

يقول د/ حبيشي: «ما كان النبي ﷺ ـ فيما أرى ـ يعلم أن اليهود من بني النضير بخيانتهم ونبذهم للعهد سيحملونه على أمور لم يكن يفكر فيها.

وما كان الله الحَكَم العدل يترك اليهود يعبثون كما يشاؤون بمقادير الناس دون أن يتدخل بأسبابه التي خلقها، وبإرهاصاته التي ينشئها أمام المؤمنين من عباده حتى يستعدوا للدخول في معركة مع اليهود، ينال فيها اليهود جزاء خيانتهم، ويتلقون ما يكافئ نبذهم للعهد، وخلفهم للوعد.

وأنا أرى في بعض آي القرآن الكريم ما ينبه المسلمين بغير تصريح واضح إلى هذه الخلائق من أخلاق اليهود، وإلى هذه الطباع التي جُبلوا عليها.

ولكي نفهم عن الله قوله في هذا الموقف من المواقف التي ستدفع بالمسلمين على غير إرادة منهم ولا من نبيهم، أن يدخلوا في علاقة من نوع جديد مع يهود بني النضير، يجب أن نعلم علم اليقين أن يهود قد راسلوا قريشًا وراسلتهم قريش، وتفاهموا جميعًا في شأن محمد ﷺ والمسلمين معه، فرغبت قريش إلى اليهود أن يخفوا إلى قتال النبي ﷺ والمسلمين معه فيكسروا شوكتهم، ويذهبوا بهيبتهم إلى آخر الدهر، ولهم عند قريش ما يشاؤون، وما يشاؤه اليهود ليس بكثير عليهم تدفعه قريش مهما كان قدره، خصوصًا إذا علمنا أن المدينة على الطريق بين مكة والشام، وتجارة قريش تمر من هذا الطريق وهم على خلاف مع النبي ﷺ خلافًا قد دفع بالطرفين إلى سلسلة من الحروب قد وقع بعضها وخرج منها النبي ﷺ منتصرًا، وتجارة قريش مهددة، يهددها النبي ﷺ والمسلمون معه، فإذا قام اليهود بحماية مصالحهم مقابل جزء يأخذونه من أموالهم، أو مقابل الدخول في حلف معهم يحمونهم من غوائل الدهر، وعاديات الزمان، فإن ذلك ليس بكثير على اليهود أن يأخذوه، المهم رعاية مصالح قريش في المدينة حين تمر تجارتهم بها، وحين تفتح المدينة لهم أبوابها سوقًا كبيرة يبيعون تجارتهم بها.

أما اليهود فمصالحهم عند القرشيين أن قريشًا عرب لهم مكانتهم الدينية والاجتماعية في جزيرة العرب، ولهم كذلك تميزهم الاجتماعي والاقتصادي الذي لم يتوفر لغيرهم، فهم مسموعو الكلمة، وهم قادرون على تحريك الشعوب العربية وتوجيههم إلى حيث يريدون، واليهود أقلية يقيمون وسط بحر من البشر، لهم منهم جيران يشاطرونهم الأرض والوطن، وعلى بُعد قريب أو بعيد من أقوام آخرون يمكن للأوس والخزرج أن يستنفروهم وأن يستعدوهم على اليهود، ومنهم من يخف لنجدتهم، واليهود فوق أنهم أقلية فهم غرباء عن المنطقة أتوا إليها نازحين طامعين في وقت واحد، فاحتلوا الأرض واستعمروها، ومكثوا فيها واستثمروها، وبنوا فيها حصونهم التي تحصنوا بها، وبنوا حولهم الجدر داخل ترسانة حربية إذا لم تكن تقلق جيرانهم الآن فسوف يلتفتون إلى خطرها فيما بعد، واليهود فوق ذلك شتات من البشر، وشراذم من الناس، لا يجمعهم جامع فوق أنهم يهود، ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾[الحشر: ١٤].

ولأسباب الضعف هذه مجمعة أو مفترقة وجد اليهود مصالحهم في أحلاف ومعاهدات، يبرمونها مع أعداء هذا الدين الجديد وتابعيه؛ كي يأمنوا على بقائهم ومصالحهم لا ينال منها نبي هذا الدين الجديد ولا تابعوه.

من أجل هذا كله وجدنا اليهود قد راسلوا قريشًا وغيرهم تطلب منهم النصرة، أو الدخول معهم في عهد وأمان، ووجدنا قريشًا تراسل اليهود تطلب منهم القضاء على محمد ﷺ ودينه وصحبه رعاية لمصالحهم، وحفاظًا على سمعتهم وهيبتهم.

يا الله ما أشبه الليلة بالبارحة!

ويا الله هذه خلائق اليهود والكافرين تجمعها المصالح وتفرقها، فيجتمعون إذا لاحت لهم أسباب المصالح، وينبذ بعضهم إلى بعض العهد على سواء أو على غير سواء إذا أصبحت مصالحهم مختلفة.

ولقد علم النبي ﷺ بهذه المراسلات، كما علم بأن اليهود ومعهم القرشيون قد حاولوا اختراق صفوف الأوس والخزرج من خلال جماعة ضعفت نفوسهم، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم أنفسهم وربهم، فأظهروا الإيمان واستبطنوا الكفر وعُرفوا في التاريخ باسم (المنافقون).

ولقد تجاوب المنافقون بزعامة عبد الله بن أُبي بن سلول في حركة ظن اليهودُ بادي الرأي أنهم قد تم لهم بالفعل اختراق صفوف المسلمين». [رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٨٢-٨٤].

٣ ـ مؤامرة يهودية لاغتيال القادة:

يقول أ/ فتح الباب: «لقد انكشف الغطاء وكادت الصحف التي تضمنت معاهدات الرسول ﷺ مع اليهود أن تتحول إلى ألفاظ جوفاء، فليعرض عليهم آخر عروضه وضعًا للأمور في نصابها، فإذا أبوا فلا يلومون إلا أنفسهم.

وهكذا ذهب النبي ﷺ إلى يهود بني النضير في حيهم على حدود المدينة ليكشف بنفسه عن طويتهم بعد أن تواترت أخبار ائتمارهم به، فأظهروا حسن استعدادهم للتعاون معه، ولكنه ارتاب في سلوك بعضهم، ولا سيما أن أحدهم دخل البيت الذي كان مستندًا إلى جواره، فانسحب من مكانه تاركًا أصحابه الذين ما لبثوا أن عادوا إلى المدينة وأدركوه في المسجد». [القيم الخلقية لفتح الباب ٢١٧].

ويقول د/ حبيشي: «ولعل عبارة حيي بن أخطب: «**فَمَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصْنَعُوا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَمِنَ الآنَ**» تشعرك بأن يهود بني النضير قد احتالوا لقتل النبي ﷺ والتخلص منه أكثر من مرة، وما واقعة استدراج النبي ﷺ ومعه ثلاثون رجلًا يخرج إليهم ثلاثون من بني النضير، طلبوا إلى النبي ﷺ بعدها أن يُنزل العدد من كلا الطرفين فيكون ثلاثة من كل منهما عنا وعنكم ببعيد.

وليست قصة الثلاثين رجلًا هي الخيانة الوحيدة التي اصطنعها اليهود للتخلص من النبي ﷺ، ولكنهم بعد بدر وانتصار المسلمين فيها لم تنقطع مراسلتهم لقريش، ولا تحريضهم لزعمائهم إلى أن كانت وقعة أُحد، فتقدم يهود بني النضير سرًّا بجميع المعلومات التي تدل على نقاط الضعف في صفوف المسلمين والطرق المؤدية إلى استغلالها، وقدموها إلى أبي سفيان زعيم المشركين يومئذ، فماعت بسببهم معركة أُحد فيما يرى بعض المؤرخين.

ولكن المؤرخين يجمعون ـ استنادًا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب المؤرخين ـ على أن المسلمين خرجوا من غزوة أُحُد فيهم بعض الانكسار حقًّا، لكن القرآن رباهم على كيفية صنع القرار والالتزام به،

وعلى سلوك الجندي داخل المعركة وعلاقته بقائده فيها، الأمر الذي جعل اليهود لا تهدأ ثائرتهم، ولا تنطفئ نيران العداوة والبغضاء في صدورهم، بعد أن رأوا محاولاتهم تفشل الواحدة بعد الأخرى، من أجل هذا كانت عبارة حيي بن أخطب: «**فَمَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصْنَعُوا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَمِنَ الآنَ**».

وأما حديث حيي كله فكانت له آثار مختلفة في نفوس القوم، ومنهم غِرِّيُّون وعقلاء.

فمن الغِرِّيِّين الذين لا بصر لهم بالعواقب، رجل يقال له: عمرو بن جَحَّاش ـ بفتح الجيم وتشديد الحاء مع فتحها وآخره شين معجمه ـ وهو النضري، فقام إلى حيي منفعلًا وقال له: أنا صاحب هذا الرجل، وأنا الذي سألقي عليه الرحى.

ومن العقلاء الذين لهم اهتمامات بالأمور وعواقبها، وبقومه ومصالحهم رجل يقال له: **سَلَّامُ بْنُ مِشْكَم**، حيث قام إلى جمهرة المؤتمرين داخل البيت بهذا الكلام المقنع العاقل الرصين: «**يَا قَوْمِ أَطِيعُونِي هَذِهِ الْمَرَّةَ، وَخَالِفُونِي الدَّهْرَ، وَاللهِ إِنْ فَعَلْتُمْ لَيُخْبَرَنَّ بِأَنَّا قَدْ غَدَرْنَا بِهِ، وَإِنَّ هَذَا نَقْضُ العَهْدِ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ، فَلا تَفْعَلُوا، أَلا فَوَاللهِ لَوْ فَعَلْتُمُ الَّذِي تُرِيدُونَ لَيَقُومَنَّ بِهَذَا الدِّينِ مِنْهُمْ قَائِمٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ يَسْتَأْصِلُ اليَهُودَ وَيُظْهِرُ دِينَهُ**». [المغازي للواقدي١/ ٣٦٥].

وضاعت أصوات الحمائم وأوشكت أصوات الصقور أو الغربان أن تنتصر.

لم ينصت القوم في جملتهم إلى سلام بن مشكم، وإنما أنصتوا إلى حيي بن أخطب، وانتقل الجميع من النقاش والحوار إلى محاولة التنفيذ.

وتحمس عمرو بن جحاش النضري إلى تنفيذ الخيانة وحده، فقام إلى صخرة يدحرجها ويدفعها أمامه فوق سطح المنزل الذي يسند النبي ﷺ وصحبه ظهورهم إلى حائطه، وبينما عمرو يدحرج الحجر وما أن وصل به إلى ظهورهم الذي يعلو النبي ﷺ، حتى وجد النبي ﷺ يشتد في المشي، ويجد في السير وقد غادر المكان بسبب غير مفهوم أو معلوم لا للذين يجالسونه من نحو أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم، ولا إلى ابن جحاش النضري.

فأصحاب النبي ﷺ يرون أن هذه الهيأة في المشي وهذا الانصراف بغير استئذان من النبي ﷺ، ليس له عندهم إلا تفسير واحد هو أن النبي ﷺ قد ألجأته الحاجة إلى ذلك فقام إلى قضاء حاجته.

وأما ابن جحاش النضري فقد وقف يعض على أنامله من الغيظ أن قام النبي ﷺ قبل أن يدركه، ولكنه هون الأمر عليه أنه رأى أصحاب النبي ﷺ جالسين لم يصحب النبي ﷺ في انصرافه منهم أحد، وهو أمر يوحي بأن النبي ﷺ عائد لا محالة.

وطال انتظار ابن جحاش، وطالت غيبة النبي ﷺ، فنزل يسأل حيي بن أخطب: أين ذهب النبي ﷺ؟

وطال انتظار المسلمين لرسول الله ﷺ وأخذوا يتساءلون عن النبي ﷺ: أين ذهب، ولماذا تأخر؟

وبينما هم يقلِّبون الأمر إذا بحيي يخرج إليهم تأخذه اعتمالات النفس وتنوع مشاعره واختلاط أفكاره يسأل في دهشة: أين ذهب أبو القاسم، هل انصرف لأنه قد استشعر أنا قد أبطأنا عليه؟! إن كان الأمر كذلك فهو غير محق في استشعاره مثل هذا البطء منا، فهو ليس ضيفًا عاديًّا، وهو ليس رجلًا كسائر الرجال، إنا قد أبطأنا لأنا نعد له ضيافته، ونصلح من شأننا حتى نلبي له طلبه.

إنا قد حملتنا الرغبة على أن نبالغ في ضيافته بما يناسب مكانته، وأن نقدم له من القِرى ما يليق به وبالوفد المرافق له، هذا وإنا مع ذلك لعلى حرص شديد أن نلبي له طلبه الذي جاء من أجله، وهو أن ندفع له من المال ما يستعين به على دفع دية الكلابيين من بني عامر ريثما نتصل بهم نهدئ من ثورتهم إن كانوا ثائرين لما بيننا وبينهم من العهد.

وما أن انتهى حيي من حديثه إلى المسلمين حتى قال الصدِّيق أبو بكر ﷺ: إنَّ تأخر النبي ﷺ عنا في ذلك الوقت وانصرافه عنا بغير استئذان، أمور ليست له بعادة وما هي له بخلق، وأرى أن انصراف النبي ﷺ وتأخره لم يكن إلا لأمر قد حدث، فهيا بنا ننصرف.

وعاد حيي إلى الدار كاسف البال قليل الرجاء، يضرب كفًّا على أخرى تحسرًا على ما فاته من أمر النبي ﷺ وخيانته.

والجالسون يرون في عين حيي تلك الحسرة، ويلمحون تلك الحيرة، وحال حيي ينطق بما في نفسه: إن هذه هي المرة الثالثة نُحْكِم الأمر في كل مرة ويصبح الهدف قريبًا منا ثم يفلت من أيدينا، دبرنا له يوم الثلاثين وعدلنا في الخطة كي لا ينفلت منها وانفلت.

ودبرنا له يوم أُحد وأطلعنا أعداءه على عوراته وأسباب الضعف عنده، وهيجناهم ضده بما يكفي حتى أصبح الهدف بين أيدينا وضاع الهدف منا.

وقلنا في هذا اليوم، إن الرجل عندنا، والفرصة مواتية، وليس هناك من عقل يقدر أن يحكم بإمكان انفلات الفرصة من أيدينا وقد أصبح الهدف قريب المنال، واشتد قربه منا اشتدادًا عظيمًا، وفجأة ضاع الهدف من أيدينا.

أي شيطان أحمق ذلك الذي يخطط لنا معشر يهود؟! وأي حظ وافر هو ذلك الحظ الذي يحيط بمحمد؟! هذا هو حديث النفس الذي دخل به حيي الدار على قومه يقرأه الناس في وجهه، ويلمحون آثاره عليه وهو يضرب كفًّا على كف مرة، ويعض على أنامله من الغيظ مرة أخرى.

ولقد خف إليه عمرو بن جحاش النضري وهو يقول: أين محمد أيها الحاخام الأكبر، أقد عاد؟ أتأمرني أن أذهب الآن إلى سقف البيت أطرح عليه فلقة الرحى لنتخلص منه ومما جاء به؟ فرفع حيي بصره ثم قال: انتظر أيها المأفون الأحمق لا تعجل إنه عائد، وإنا سنبلغ منه ما نريد.

وما كان لصمت حاخامات اليهود أن يطول حيث مزق الصمت أحدُ عقلائهم، أو قل أحد حمائمهم وهو: كنانة بن صويراء فقال موجهًا حديثه لجمع أصحابه ما مر ذكره.

وحديث كنانة على هذا النحو إن كان قد بلغ من القوم مبلغًا يحملهم على الموافقة، أو يحملهم على الرضا ببعض ما يقول، فإن حديثه نفسه قد شجَّع سلام بن مشكم على أن يستأنف حديثه ينصح لقومه، وإن كان قبل قد عزف عن النصح لهم، بعد أن رآهم لا يلتفتون إلى نصحه، لقد شجع كلام كنانة سلام على أن يتحدث من جديد، فقال لقومه كلامًا يطابق من بعض وجوهه ما قاله كنانة، ختمه بشيء من التأنيب لحيي، ونصحه على أن لا يعود للمجازفة من جديد.

والذي يظهر لي من تقليبي للنصوص والنظر فيها أن حيي بن أخطب ظل على أمله هو وتابعوه في أن يعود النبي ﷺ وأنهم سيتمكنون من قتله، وأن أحاديث كنانة وسلام وأمثالهما إنما هي من باب الاحتمالات العقلية، أو هي من باب الشطط في التفكير الذي يصدمه الواقع، ويكذبه الحال.

ظل حيي وأصحابه على هذا الأمل يسكرون بنشوته، ويتعلقون بأذياله».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ٩٢-٩٧].

٤ ـ اليهود بين الأمس واليوم:

يقول أ/ دروزة: «لقد ابتُلي العرب والمسلمون في هذا العصر باليهود في بلادهم، ومع أن المسلمين فتحوا معهم صفحة جديدة بعد النبي ﷺ، فعاملوهم في ظل السلطان الذي مارسوه أمدًا طويلًا في مشارق الأرض ومغاربها أحسن معاملة، وآووهم وحموهم ومنحوهم الحرية في دينهم ومعابدهم وتجارتهم ومعايشهم شأن ما كان من النبي ﷺ نحو يهود الحجاز في حين أنهم أوذوا أشد الأذى وحرموا أشد الحرمان وسيموا أشد الخسف في البلاد الأخرى، فقد قابلوا العرب والمسلمين بالكفر والجحود والشر والمكر والكيد والبغي والعدوان كما فعل يهود الحجاز من قبل استمرارًا في الجبلة الخلقية الفاسدة التي جُبلوا عليها، والنحيزة الشريرة الآثمة التي توارثوها وتشربوها، وطمعوا في السيطرة على فلسطين أولًا، فتكًا وتشريدًا وتدميرًا وانتهاك حرمات ومقدسات وتغيير معالم، دون أن يرعوا ذمة ولا أخلاقًا ولا إنسانية ولا قانونًا، ثم أخذوا يفعلون مثل ذلك في البلاد المجاورة لفلسطين مما هو ماثل للعيان، وتقشعر لهوله الأبدان متضامنين متواثقين في ذلك مع الدول الاستعمارية الطامعة

في ثروات البلاد العربية والهيمنة عليها والهادفة إلى إبقائها من أجل ذلك ضعيفة واهنة، والتي صارت الولايات المتحدة الأمريكية على رأسها، وصاروا نتيجة لذلك الهم المقيم المقعد للعرب والمسلمين بحيث لا يكون لهم أمان ولا استقرار ولا طمأنينة، ولا ازدهار ولا وحدة ما دامت جرثومة الشر المسماة (إسرائيل) قائمة في سرة بلادهم وعلى الأرض المقدسة من أوطانهم، فصار من أوجب الواجبات الدينية والقومية عليهم أن يقتدوا برسول الله ﷺ الذي جعل فيهم لهم الأسوة الحسنة، وأن يستعدوا ويتضامنوا، ويجاهدوا جهادًا لا هوادة فيه حتى يجتثوا تلك الجرثومة الخبيثة ويطهروا فلسطين وبلاد العرب من رجسها وشرها كما فعل رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

ويهتف رجال الدولة المجرمة بالسلام، ويظن بعض المسلمين خداعًا أو ضلالًا أن الاستجابة لهتافهم واجب عملًا بقول القرآن الكريم: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال]، وهذا خطأ بل إثم ديني وسياسي عظيم؛ لأن حالة الحرب بينهم وبين العرب ليست كما هي بين دولة ودولة وبلاد وبلاد لأسبابٍ ما يصح أن تزول بمعاهدة صلح، فإن أربعة أخماس الأراضي والمدن والقرى والمنازل والحوانيت والبساتين والحقول والكروم التي قامت عليها دولتهم المجرمة في سنة ١٩٤٨م هي ملك للعرب، استولوا عليها عنوة بالحديد والنار وطردوا منها أهلها بعد أن قتلوا الآلاف ومثلوا بالمئات من رجال ونساء وأطفال، والمطرودون منها ذلك الوقت يعيشون خارج وطنهم في شتات وحرمان وعوز ومخيمات، ويبلغ عددهم الآن نحو مليونين بينما المجرمون المغتصبون يتمتعون بكل ما تركوا من المزارع ووطنوا محلهم مئات الآلاف الذين جمعوهم من كل أنحاء الدنيا.

والسلم الذي يهتفون به يريدون به أن ينسى العرب كل ذلك ويقبلوا ببقاء كل الأراضي والمدن والقرى والمزارع والبساتين والمنازل والحوانيت في أيديهم، وببقاء أصحابها مشردين خارج وطنهم يعيشون حياة البؤس والحرمان والمخيمات والشتات، ثم أن يعقدوا صلحًا مع الدول العربية على أساس ذلك يمكنهم بالإضافة إلى ما استولوا عليه وغصبوه من فلسطين من الرتع في البلاد العربية الأخرى سياسيًّا واقتصاديًّا وثقافيًّا وفسادًا وتجسسًا.

وحقوق أهل فلسطين في تقرير مصيرهم وإنشاء دولة مستقلة لهم في وطنهم وعودة المشردين إلى منازلهم وممتلكاتهم مقرر في عشرات القرارات الصادرة من هيئة الأمم المتحدة فضلًا عن كونها حقوقًا طبيعية، والمجرمون يرفضون التسليم بذلك منذ قيام دولتهم إلى الآن ويقابلون كل مسعى بالعنف والنار والتعطيل والاستهتار، وليس من سبيل إلا بمجاهدتهم باستمرار حتى يسترد المغصوب وتتطهر الأرض المقدسة من رجسهم أسوة بما فعله رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم.

والعرب من ورائهم المسلمون بل مئات الملايين من الدول الأخرى قادرون على ذلك إذا صدقوا في الجهاد والاستعداد له، وقد وعد الله بنصر من ينصره وهو القوي العزيز الذي لا يخلف الميعاد».

[معركة النبوة مع أهل الكتاب ـ أ/ محمد عزة دروزة، ضمن البحوث والدراسات المقدمة للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية (الدوحة ١٤٠٠هـ) ٦/ ٥٤٦ ـ ٥٤٩ ـ عني بطبعه ومراجعته أ/ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ـ المكتبة العصرية ـ بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م].

٥ ـ شهادات غربية على غدر اليهود:

يقول د/ بركات أحمد: «في ٧ شوال سنة ٣ من الهجرة ٢٢مارس سنة ٦٢٥م وقعت غزوة أُحُد التي كانت غزوة غير حاسمة، وخسر الرسول ﷺ المعركة وقُتل سبعون مسلمًا مقابل اثنين وعشرين من قريش، وعلى الرغم من أن المكيين لم يستغلوا هزيمة المسلمين استغلالًا كاملًا إلا أن هيبة المسلمين هوت بهذه الهزيمة إلى أدنى مستوياتها.

وبعد غزوة أُحد بقليل قُتل في بئر معونة أربعون إلى سبعين مسلمًا، ولم ينج من المذبحة غير مسلم واحد هو عمرو بن أمية الضمري ﷺ، وقد التقى عمرو في طريق عودته برجلين من بني عامر ولم يكن لهم دور مباشر في المذبحة، فقتَلهما وهما نائمان ثأرًا لأصحابه، ولما كان الرسول ﷺ وقبيلة بني النضير اليهودية مُلزمين بناء على العهد المبرم مع بني عامر بدفع الدية، ذهب رسول الله ﷺ بصحبة عدد من كبار أصحابه إلى مجلس النضير يستعينهم في دفع الدية، ووافق المجلس على الإسهام في دفعها، وطلب من الرسول ﷺ وأصحابه الانتظار، وحين كان الرسول ﷺ قاعدًا جنب الدار لاحظ تحركات أرابته، فإنه لم يحدث له قط أن كان قريبًا إلى هذا الحد من اليهود، وها هو الآن في حيهم وكان قتل عصماء بنت مروان، وأبي عفك، وكعب بن الأشراف بيد المسلمين في ظروف متشابهة ما يزال عالقًا بالأذهان، وغادر الرسول ﷺ المكان بهدوء وتبعه أصحابه، وأكدت الأنباء بعد ذلك أسوأ مخاوف الرسول ﷺ، فقد كان اليهود قد دبروا مؤامرة لاغتياله، وكان قد سبق لرسول الله ﷺ أن علم باتصال بني النضير بقريش في مكة.

وقد حققت (نابييه أبوت) في بحث بعنوان (دراسات للأدب العربي في أوراق البردي) [(١)] فقرة ورد فيها بيان الأسباب التي أفضت إلى غزوة الرسول ﷺ لبنى النضير، وأعاد (كستر) بحث هذه الفقرة وأثبت بعد تحليل مستفيض أن مؤلفها هو ابن لهيعة الذي عاش في مصر وتولى القضاء من سنة ١٥٥/ ٧٧١ إلى سنة ١٦٤/ ٧٨٠، ومؤدَّى الفقرة أن بني النضير بعثت سرًّا إلى قريش حين

(١) «Campaigns of Muhammad» p.67. Document 5, (Chicago,1957) (شيكاغوا، ١٩٥٧) الوثيقة ٥، غزوات محمد ﷺ» ص ٦٧.

نزلت بأُحُد لقتال محمد ﷺ تحضها على قتال المسلمين وتدلها على مواطن ضعفهم [١].

وهذه الرواية التي تأتي من مصدر يكاد يكون معاصرًا لابن إسحاق تُلقي مزيدًا من الضوء على الدور الذي لعبه بنو النضير. [**ابن هشام ص ٥٤٣، وللزرقاني رواية مماثلة عن موسى بن عقبة في شرح المواهب اللدنية ـ القاهرة ١٣٢٥ هـ الجزء الثاني ص٨١، على أن النص الوارد في ورق البردي يماثل الحديث الذي رواه عروة بن الزبير في دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني (حيدر آباد ١٣٢٠) ص١٧٦**].

وفى مناسبة سابقة كان سلَّام بن مشكم سيد بني النضير بعد نحو ثلاثة أشهر من غزوة بدر قد زود أبا سفيان بن حرب ومائتي راكب مكي بالطعام والميرة، كما زود أبا سفيان بمعلومات سرية عن المسلمين [**ابن هشام ص ٥٤٣**]، وقد أُطلق على هذه المحاولة المكية الفاشلة للهجوم على المدينة كما يقول أبو الفرج اسم غزوة السويق نسبة إلى الخمر التي قدمها سلام بن مشكم للمكيين بهذه المناسبة [**الأغاني، الجزء السادس، ٣٣٦**]، والسويق شراب يُصنع من القمح والشعير، وقال أبو سفيان في مدح سلام على كرمه بهذه المناسبة شعرًا [كما سبق بيانه].

ويقول (رودنسون) بصدد المؤامرة التي حاكها بنو النضير أن هذا في مجموعه ليس افتراضًا خاطئًا، وهو افتراض كان من المنتظر أن يتوقعه أي شخص أوتي أدنى حظ من الفراسة السياسية، ولو كان أقل ذكاء من محمد [٢].

لقد فقد المسلمون خلال أربعة أشهر أكثر من مائة رجل في أُحُد وفى بئر معونة، وكانوا بحاجة إلى السلم في الداخل، وكان يهمهم أن يأمنوا جانب جيرانهم في المدينة واتصل الرسول ﷺ ببني قريظة وبني النضير في شأن تجديد الاتفاق الذي كان بينه وبينهم، وجدد بنو قريظة الاتفاق أما بنو النضير فقد رفضوه [**أبو داود، الجزء الثالث، ص ١١٦ ـ ١١٧**]، ولم يكن المسلمون في مركز قوة ولكنهم قرروا استخدام الحزم في أخذ القرار، وأرسل الرسول ﷺ محمد بن مسلمة ﷺ وهو أنصاري من قبيلة متحالفة مع بني النضير ليوجه إليهم إنذارًا، وحدد لهم عشرة أيام لمغادرة المدينة. [**ابن سعد، الجزء الثاني، ص٥٧**].

وهَمَّ بنو النضير بقبول الإنذار إلا أن عبد الله بن أُبي، ووديعة، ومالك بن أبي قوقل، وسويد، وداعس أشاروا عليهم بالمقاومة [**ابن هشام، ص ٦٥٣**]، وكانوا يتوقعون أن يخف لنجدتهم ابن أُبي

---

(١) **M.J.Kister, «Notes on the Papyrus Text About Muhammad's Cambaign Against thl B.alNadir «,Archiv Orientalni, 32, 1964, p.234**. «م.ج. كستر»، «مذكرات عن نص البردي المتعلق بغزوة محمد ﷺ لبني النضير»، ٣٢، ١٩٦٤، ص ٢٣٤.

(٢) **Maxime Rodinson, Muhammad,tr.Anne Carter(New York,1971)p.191-192** مكسيم رودنسون «محمد ﷺ» ترجمة آن كارتر (نيويورك، ١٩٧١م)، ص ١٩١ ـ ١٩٢.

فضلًا عن بني قريظة وبني غطفان [ابن سعد، الجزء الثاني، ص٥٧]، وتحصن بنو النضير في حصونهم وأوصدوا عليهم أبوابها وانتظروا وصول المعونة.

وتكررت معهم قصة بني قينقاع، وذهب الرسول ﷺ وجلس مع أصحابه حتى استسلموا، ولم يتحرك أحد للأخذ بناصية بني النضير، وقد ورد في سورة الحشر التي نزلت في هذه المناسبة ذِكر لهذه الواقعة. [ابن هشام، ص ٦٥٤، الطبري: جامع البيان (القاهرة ١٩٥٤) الجزء الثامن والعشرون، ص ٢٧-٤٠، الزمخشري، الكشاف، الجزء الرابع ص ٧٩ ـ ٨٢ البيضاوي، الجزء الثاني ص ٣٣٢ -٣٣٣].

وجاء في القرآن الكريم بشأن ما صدر لبني النضير من وعود بتقديم العون: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾[الحشر: ١١].

واستمر الحصار أسبوعين ثم استسلم بنو النضير، وقد أُمروا بالجلاء ولكن سُمح لهم بأخذ ما حملت الإبل من أموالهم ما عدا السلاح (فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به ستمائة من الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف (العتبة التي بأعلى الباب) بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به)، وكان الخشب متاعًا ثمينًا، فقد كانوا بحاجة إليه لبناء بيوتهم في مقرهم الجديد.

إن عددًا كبيرًا من العوامل قد تحالف، فيما يبدو، في السنة الثانية من الهجرة، على خلق ظروف لا يُستبعد أن تكون قد جعلت من بني قينقاع ضحية لمؤامرة لم تدر لهم بخلد من جانب المنافقين، ولكن مثل هذا العذر لا يمكن أن يتلمس لبني النضير، لقد كان بنو قينقاع في الظاهر هم الذين أثاروا الخصومة مع الرسول ﷺ في وقت كان بوسع المسلمين فيه أن يتصدوا لهم من موقف قوة وأن يعاملوهم بالتالي بكرم وسماحة، أما بنو النضير فقد اتخذوا موقفًا عدائيًّا من المسلمين في وقت كان الرسول ﷺ وأصحابه غارقين فيه في مياه عميقة؛ ولذلك فإن معاملتهم بالرفق الذي عومل به بنو قينقاع كان من الممكن أن تؤول على أنها دليل على الضعف وأن تنال كثيرًا من هيبة المسلمين».

[محمد ﷺ واليهود لبركات أحمد ١١٦-١١٩].

٦ ـ الرسول ﷺ يخشى غدر اليهود ويختبرهم ليكشف نواياهم:

يقول أ/ دويدار: «كانت غزوة بني النضير أثرًا من آثار غزوة أُحُد؛ لأنها وقعت في تلك الفترة العصيبة التي جاءت في أعقابها، والتي كان المسلمون فيها لا يزالون يعانون من آثار الهزيمة في تلك الغزوة، كانوا لا يزالون في شعث من أمرهم، وكان كل ما يحيط بهم ثائرًا عليهم، فاليهود والمنافقون الذين يساكنونهم في المدينة، والأعراب الذين يجاورونهم في البادية، والمشركون الذين يناوؤونهم في مكة، كل أولئك كانوا

يشتركون في شعور واحد، هو شعور البغض والعداوة للمسلمين، ويتعاونون على فكرة واحدة هي الخلاص من محمد ﷺ وصحبه، ويرمون إلى هدف واحد هو القضاء على الإسلام ودعوته.

وفي مثل هذه الظروف يكون العدو القريب أشد خطرًا من العدو البعيد، ويكون الخطر الداخلي أبعد أثرًا من الخطر الخارجي، ويكون الجو مهيأ كل التهيؤ للكيد والدسيسة، وكشف العورات وانتهاز الفرص.

وقد كان اليهود والمنافقون هم العدو القريب من غير شك، وكانت مظاهر العداوة تنضح بها نفوسهم وتنطق بها ألسنتهم، ولم يكن من المستحيل عليهم أن ينتهزوا أي فرصة ليطعنوا المسلمين من ورائهم، فقد كان المسلمون في هذه الفترة الحرجة يتوقعون الغدرة من كل عدو، ويترقبون الطعنة من كل جانب، ولا سيما بعد أن ظهرت بوادر الغدر في واقعتي **الرجيع وبئر معونة**، وذهب ضحية الغدر فيهما هذا العدد الجم من الأصحاب والقراء.

لم يكن النبي ﷺ إذن بحيث يأمن غدرة اليهود والمنافقين في المدينة، ولم يكن بحيث يطمئن إلى وفائهم وإخلاصهم.

أما المنافقون فقد استتروا بستار الإسلام، فلم يكن للنبي ﷺ ولا للمسلمين أن يكشفوا ستر الإسلام عنهم، وأما اليهود فقد كانوا على عهد مع النبي ﷺ أن يتركوه ودينه ويتركهم ودينهم، وألا يمالؤوا عليه عدوًّا ولا يظاهروا عليه أحدًا، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا يؤمَنون، فقد بدت مظاهر الغدر منهم في كثير من الحالات، وكاشف فريق منهم بالعداوة فأجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وسعى أفراد منهم بالغدر فأوقع المسلمون بهم.

وقد كان ذلك والمسلمون في فورة النصر بعد غزوة بدر، فكيف والمسلمون في زعزعة الهزيمة بعد أُحُد؟ أليس الغدر في مثل هذه الحال أقرب ما يكون احتمالًا وأكثر ما يكون توقعًا؟ لم يكن ذلك أمرًا بعيد الوقوع من اليهود، لا سيما وهم على ترة من النبي ﷺ وأصحابه، بعد أن أخرجوا إخوانهم بني قينقاع، وبعد أن قتلوا زعيمهم وشاعرهم كعب بن الأشرف.

والقرآن الكريم يحذر منهم: وقد كشف الله للمؤمنين عن سرائر اليهود في هذه الفترة، وحذرهم أن يثقوا بهم أو يطمئنوا إليهم، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ

﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران]، فكان المؤمنون أجدرَ أن يحذروهم في هذه الآونة، وكان لابد أن ينتهز الرسول ﷺ فرصة ما ليختبرهم ويكشف عن نواياهم في هذا الظرف العصيب، فانتهز فرصة القتيلين اللذين أصابهما عمرو بن أمية ﷺ من بني عامر، فذهب إلى بني النضير ليستعين بهم في دِيَة هذين القتيلين، وكان بنو عامر حلفاء بني النضير.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى بَنِي النَّضِير يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِك القَتِيلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ اللَّذَيْنِ قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ، لِلجِوَارِ الَّذِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ عَقَدَ لَهُمَا، كَمَا حَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ رُومَانَ، وَكَانَ بَيْنَ بَنِي النَّضِير وَبَيْنَ بَنِي عَامِرٍ عَقْدٌ وَحِلفٌ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ القَتِيلَيْنِ قَالُوا: «**نَعَمْ يَا أَبَا القَاسِمِ نُعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ، مِمّا اسْتَعَنْتَ بِنَا عَلَيْهِ**»، ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَقَالُوا: «**إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ - وَرَسُولُ الله ﷺ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بُيُوتِهِمْ قَاعِدٌ - فَمَنْ رَجُلٌ يَعْلُو عَلَى هَذَا البَيْتِ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيُرِيحُنَا مِنْهُ؟**»، فَانْتَدَبَ لِذَلِكَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشِ بْنِ كَعْبٍ - أَحَدَهُمْ - فَقَالَ: «**أَنَا لِذَلِكَ**»، فَصَعِدَ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ صَخْرَةً كَمَا قَالَ، وَرَسُولُ الله ﷺ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ، رِضْوَانُ الله عَلَيْهِمْ.

فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ الخَبَرُ مِنْ السَّمَاءِ بِمَا أَرَادَ القَوْمُ، فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى المَدِينَةِ، فَلَمَّا اسْتَلبَثَ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابُهُ قَامُوا فِي طَلَبِهِ، فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنْ المَدِينَةِ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ: «رَأَيْتُهُ دَاخِلًا المَدِينَةَ»، فَأَقْبَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُمْ الخَبَرَ، بِمَا كَانَتْ اليَهُودُ أَرَادَتْ مِنْ الغَدْرِ بِهِ، وَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ بِالتَّهَيُّؤِ لِحَرْبِهِمْ وَالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ. [السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٩٠-١٩١].

هكذا يقول ابن إسحاق، وبمثله أو قريب منه يقول غيره من كتاب السيرة النبوية، فالكل مجمعون على أن بني النضير هموا باغتيال النبي ﷺ في هذه الفرصة، فعلم النبي ﷺ بما دبروا له من الغدر، ففوت عليهم غرضهم، ثم أنذرهم بأن يخرجوا من البلد الذي يساكنونه فيه فأبوا، فأعلن الحرب عليهم، وحاصرهم في مساكنهم حتى أجلاهم عن المدينة. [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٣٨٧-٣٨٩].

٧ - إرهاص يحتاج إلى تأمل:

يقول د/ حبيشي: «القرآن الكريم يواكب هذه الأحداث جميعها، فيقدم بين يديها إرهاصًا للمسلمين ونبيهم مقرونًا بالتوجيه المناسب لمثلها، أو راصدًا لها، ومخبرًا بها بعد وقوعها لتكون رسالة أو جزء رسالة يرسل بها النبي ﷺ الموحى إليه لأتباعه من الأجيال القادمة الذين ستكون لهم علاقات مع اليهود وخياناتهم عبر التاريخ.

وسواء قلنا إن القرآن يرصد واقعة بني النضير، أو يضع بين يديها إرهاصًا، فإنك تستطيع أن تقرأ هذه الآيات من سورة الأنفال، ثم تقرأ بعدها سورة الحشر بتمامها التي كان يحلو لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن يسميها بسورة بني النضير.

أما آيات سورة الأنفال فهي أقرب عندي إلى أن تكون إرهاصًا بين يدي الأحداث، وهي تذكر أصنافًا لا تسميهم وإنما تصفهم، وتوجه المسلمين من حين إلى آخر إلى ما ينبغي عليهم أن يفعلوه، كما توجه نبيهم وقدوتهم إلى أن ينفض عنه مشاعر الخوف من كل خيانة رخيصة، وينهض إن خاف من قوم خيانة بينه وبينهم عهد إلى إن يتحلل من عهودهم حين يعلم الخيانة منهم، ولا يبادلهم خيانة بخيانة، وإنما إذا وجدهم ينقضون العهد أعلن لهم أنه هو الآخر قد تحلل من معاهدات السلام ما داموا لم يلتزموا بها، ويعود الطرفان على سواء في نسبتهم إلى معاهدات السلام، كأنه يقول لهم: ما دمتم قد نقضتم العهد بالخيانة، وأعلنتم الحرب علينا فإننا ننبذ إليكم العهد لنكون جميعًا على سواء: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾[الأنفال].

أما الآيات بتمامها التي ترهص إلى خيانة قادمة وشيكة، وهي التي أنقلها الآن بين يديك: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[الأنفال].

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ٨٤-٨٥].

٨ ـ نقض المعاهدة مع الأعداء إذا أخلُّوا بشروطها:

يقول د/ حبيشي: «أقبل المسلمون الذين تركهم النبي ﷺ في المدينة ووقفوا من النبي ﷺ على حقيقة الأمر، وهو أن اليهود من بني النضير قد نقضوا العهد، وخرجوا من السلم إلى الحرب على طريقتهم التي أملاها الشيطان عليهم، ووسوس إليهم بها، وهي طريقة الخيانة.

والسؤال الآن الذي يبدو في أعين المسلمين وعلى وجوههم، ولا يجاهرون النبي ﷺ به هو: إذا كان اليهود قد خرجوا بالخيانة من معاهدة السلام، فما الذي يمكن أن يفعله النبي ﷺ ليكافئ به هذا الخروج؟

أما النبي ﷺ فقد كان عنده الجواب وحيًا أُوحي إليه من ربه، ذلك أنه لما توجس من اليهود خيفة أن يخونوه في وطنه وفي أصحابه، وأن يتعاهدوا مع أعدائه عليه، أنزل الله ﷻ عليه النص الذي يشبه

أن يكون قاعدة عامة في كل موقف مشابه، وهو قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[الأنفال].

وعلم النبي ﷺ أن هذه الآية التي تمثل القاعدة العامة، تنطبق أول ما تنطبق على اليهود بجميع طوائفهم، إذ الخيانة متوقعة منهم كلما لاح الظرف الذي يمكنهم من الخيانة ويتيح لهم أسبابها.

وأنت خبير معي أن النبي ﷺ بمقتضى أخلاقه أولًا، وبمقتضى هذا النص التكليفي ثانيًا، لا يجوز له أن يقابل خيانة بخيانة، وإنما الشيء الوحيد المتاح له هو أن أعداءه إذا خرجوا من معاهدة السلام بالخيانة، فعليه أن يتخلص من قيودها بالإعلان الظاهر، والإخطار المعلن.

ألا فلينبذ النبي ﷺ إلى بني النضير بعهدهم، ويلقي إليهم بقيوده ردًّا على ما نبذوه إليه منها بالخيانة.

هذا هو الموقف الوحيد المتاح للنبي ﷺ أن يباشره، والنبي ﷺ لا يعرف جوابًا لهذا السؤال الذي قرأه في أعين أصحابه وعلى وجوههم، إلا أن ينبذ إلى بني النضير على سواء.

ولم يشأ النبي ﷺ أن يلقي بأصحابه في متاهات من الحيرة، وهم يحاولون أن يجيبوا على هذا السؤال الذي حيرهم لكثرة دورانه في أفئدتهم، واعتماله في صدورهم.

لم يشأ النبي ﷺ أن يتركهم على هذا الحال طويلًا، فأرسل إلى محمد بن مسلمة ﷺ أن يأتيه ولا يبطئ، فأتى محمد بن مسلمة ﷺ ووقف بين يدي النبي ﷺ وقفة المنصت يسمع أمره، والنشط الذي لا يحب أن يتلكأ في تنفيذ أمره.

أما النبي ﷺ فقد ألقى إليه بأمره: أن اذهب إلى يهود بني النضير فقل لهم: **إن رسول الله ﷺ، أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلدي.**

وحمل محمد بن مسلمة ﷺ رسالة النبي ﷺ إلى اليهود من بني النضير، لم يخيرهم فيها بين شيئين أو أشياء، وإنما طلب حقه المشروع وهو أن القائم في أرض قوم يتعايش منها، ويجاورهم فيها، إذا لم يلزم نفسه بالانتماء إلى هذه الأرض والدفاع عنها بالاشتراك مع أصحابها والتعايش سلمًا مع أصحاب الأرض الأصليين، فلا أقل من أن يخرج من هذه الأرض ويتركها لأصحابها، دون أن يكون هناك من ملام على أصحاب الأرض الأصليين، إن هم قد طلبوا من الذين أقاموا معهم في أرضهم بغير سند شرعي أن يخرجوا منها.

فإن هم تلكأوا ورفضوا أن يخرجوا، وأعلنوا الحرب على أصحاب الأرض الأصليين، فليس على أصحاب هذه الأرض من لوم، إن هم اصطنعوا الوسيلة التي يرونها مناسبة لإجلاء الغريب المخادع، الذي تحول إلى عدو خائن عن أرضهم لتستريح منه البلاد والعباد». [رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٩٨-١٠٠].

ويقول د/ الوكيل: «وحين تيقن رسول الله ﷺ من غدر ونقض اليهود للعهود استجاب ﷺ لأمر ربه ﷻ في قوله ﷻ: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال].

كان رسول الله ﷺ يستطيع ـ بعد أن تيقن من خيانتهم ـ أن يباغتهم في ديارهم ويقضي عليهم، ولكنه أرسل إليهم محمد بن مَسْلَمَةَ الأوسي ﷺ برسالة صريحة: **أن اذهب إلى يهود بني النضير فقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلدي.**

لقد كان في هذا الإنذار كما نرى حزمًا لا يقبل التردد، وتوضيحًا للأمر الذي استحقوا به ذلك الموقف وحدد لهم فيه أجلًا لمغادرة البلاد، فالمسألة لا تقبل التفاوض، وليس لها حل سوى إجلائهم من بلاد خانوا أهلها، ودبروا المؤامرات لأصحابها، وهذا الإنذار يحمل في طياته مبدأ إسلاميًّا من مبادئ الحرب، وهو الذي بينته الآية الكريمة السابقة.

لقد كان باستطاعة الرسول ﷺ أن يبيتهم وهم آمنون، أو يبغتهم وهم غارون (غافلون)، ولاسيما وهم الذين نقضوا العهد، وغدروا برسول الله ﷺ، ولكن الإسلام هو الإسلام في ساعة الرضا والغضب، ومع العدو والصديق، ومبادئه هي مبادئه لا يجوز مخالفتها مهما كانت الظروف والأسباب».

[**تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٤**].

٩ ـ الصرامة مع الأعداء:

يقول د/ أبو خليل: «لقد طرح الإسلام في لحظاته الأولى في المدينة مبدأ عامًّا ثابتًا على مر الزمن، ألا وهو الموآخاة والتسامح والعيش معًا مع الأديان الأخرى، مع الاحترام الكامل لعقائدها، ولم يجعل ذلك شعارًا مرفوعًا، بل منهجًا أثبتته الوقائع والأعمال.

الإسلام معتقد قوي ومتسامح معًا، ولكنه ما جعل التسامح موقفًا مهتزًّا يتلقى بسببه الضربات والمؤامرات من قريش واليهود، بل جعل للتسامح قوة تحميه، وهذا ما صنعه ﷺ مع قتلة الأنبياء؟! (ورد أن اليهود قتلوا أكثر من سبعين نبيًّا، ومن جملة من قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام، قال ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ ﴾ [النساء])». [**غزوة الخندق لأبي خليل ٣٤-٣٥**].

ويقول د/ أبو فارس: «إن الباحث في السيرة النبوية وأحداثها، وفي علاقة الرسول ﷺ باليهود بشكل عام، وفي غزوة بني النضير بشكل خاص يخلص إلى أن الرسول ﷺ قد سلك طريقًا واحدًا في معاملة اليهود والخونة القادرين، لقد كان ﷺ صارمًا معهم، يحاصرهم ويضيِّق عليهم ويُلقي الرعب في قلوبهم، ومن ثم يستسلمون ملقين سلاحهم طالبين النجاة، تاركين ديارهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.

إن التجارب الوفيرة، والشواهد الكثيرة تؤكد أن ملاينة اليهود لا تجدي فتيلًا، وهي مضيعة للجهد، وهدر للوقت.

وإذا كان لنا أن نستنبط من هذا درسًا يستفيد منه المسلمون اليوم في واقع حياتهم، وفي علاقتهم مع أعدائهم وفي مقدمتهم اليهود الحاقدون الغادرون، المحتلون لأرضنا، المدنِّسون لمقدساتنا، فهذا الدرس هو اتباع النبي ﷺ واتباع سنته في علاجه ليهود النضير وغيرهم، إنه أسلوب القتال والمحاصرة والتدمير وتخريب البيوت، وهدمها على رؤوسهم حتى يستسلموا صاغرين.

إن على العرب المسلمين في عالمنا المعاصر أن يكونوا رجالًا، وأن يختطوا لأنفسهم خطة رشد حازمة، لا تردد فيها ولا تسويف، عليهم أن يحشدوا الطاقات ويعبؤوا النفوس تعبئة جهادية، وبذل أقصى ما في الوسع لمصارعة عدو لئيم غادر خائن، لا يرقب في مؤمن ولا مؤمنة ولا طفل ولا شيخ إلًّا ولا ذمة.

إن على المسؤولين في بلاد المسلمين أن يكفوا أنفسهم وغيرهم عن المناداة بالحلول الاستسلامية، وعليهم أن ينأوا بأنفسهم عن هذه المخاطر المهلكة لهم ولأمتهم.

إن المناداة بمثل هذه الحلول يُعد من قبيل الجري وراء السراب، والنفخ في رماد، والحراثة في البحر، ومحاولة يائسة لجني العنب من الشوك، وصرخة في واد لا تنتهي إلى قرار ولا أصحابها إلى استقرار.

لقد آن لنا أن ندرك الحقيقة، وأن نكون رجالًا بكل ما في هذه الكلمة من معانٍ، إن الذي يُخجل هذه الأيام أن نذهب إلى هيئة الأمم وإلى الدول الكبرى، كأمريكا وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي نستجدي حلولًا لقضايانا، ونحن نعلم علم اليقين أن هذه الدول ضالعة مع اليهود تقول بقولهم، وتتحالف معهم في السر أو العلن أو كليهما معًا.

لا أدري إلى متى لا يستيقظ هؤلاء الذين يغطون في سباتهم العميق، ويدفنون رؤوسهم في الرمال، ويتخبطون في الأوهام، ويتلبطون في الوحل، ويتعامون عن الحقيقة، إلى متى هؤلاء يبقون على هذه الحالة المخزية من الجهالة والتيه والضياع، إلى متى يتوقفون عن هذه المهازل، ويكفون عما هم فيه من السذاجة والغفلة والحمق؟

أما آن لهؤلاء أن تهزهم هذه الحوادث الجسام من هؤلاء اللئام، الذي هتكوا سترهم وستر أمتهم، وأعراضهم، أما آن لهم أن يتعلموا المواقف الصحيحة الجازمة من رسول الله ﷺ في معاملته لليهود، تلك المعاملة الحازمة الصارمة، أما آن لهم أن يقفوا موقفًا حازمًا ولو لمرة واحدة، وينظروا ماذا تكون النتائج.

إن على الأمة الإسلامية أن تعد نفسها لهذا الموقف، وأن تتجاوز عن تخرصات المتخرصين، ووهم

المتوهمين، وأن تحزم أمرها، ولا تلتفت إلى شيء من الصيحات المنكرة التي أعلنت يأسها في سياستها وفشلها في قيادة السفينة إلى بر الأمان.

إن عليها أن تتجاوز هذه التيارات التي جرَّت عليها الويلات والهزائم ولا زالت تمهد لهزائم أخرى إن بقيت على الطريق، طريق الاستسلام والذل والهوان». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٦-١٧٨].

ويقول د/ أبو فارس أيضًا: «لقد كان رسول الله ﷺ حازمًا في علاج يهود بني النضير الخونة الغادرين، فلم يلاينهم وقد ارتكبوا ما ارتكبوا من تآمر، بل أصدر أمره النبوي بطردهم من المدينة، وأعطاهم مهلة بعدها تُضرب عنق من كان موجودًا في المدينة منهم.

ومما يجدر ذكره هنا أن هذا الأمر ليس من قبيل التهديد الذي ليس وراءه شيء من الحقيقة أو الرغبة في تطهير المدينة من رجز اليهود، بل كان أمرًا صارمًا تدعمه القوة، وهذا ما لاحظناه حين امتنع يهود بني النضير عن الخروج، إذ حاصرهم وأرغمهم على الخروج صاغرين.

ونحن اليوم بحاجة إلى أن تكون تصريحاتنا وقراراتنا في علاقتنا مع أعدائنا اليهود وغير اليهود ليست للاستهلاك المحلي والدعاية الرخيصة، والكسب الجماهيري ليس إلا، نحن بحاجة إلى أن نتخذ القرارات المشفوعة بالجدية والتطبيق، فيكون لقراراتنا معنى في نفوس الأعداء والأصدقاء على حد سواء.

إن مما نعانيه اليوم في كثير من البلاد الإسلامية أن نسمع جعجعة ولا نرى طَحْنًا، كم تعرضت بلادنا وشعوبنا لاعتداءات المعتدين، وسُفكت فيها دماء المسلمين، وانتهكت مقدسات، وديست حرمات، واعتدي على أعراض، فلم نحرك ساكنًا، واكتفينا باحتجاجات شديدة اللهجة، لا تبلغ قيمتها الورق الذي كُتب عليها، أليس هذا هو العبث واللهو والهزل؟!». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٢-١٧٣].

١٠ ـ الدكتور ولفنسون يحامي عن اليهود:

يقول أ/ دويدار: «مع ما سبق عرضه من أقوال المؤرخين في محاولة اغتيال اليهود للرسول ﷺ، ولكن الدكتور إسرائيل ولفنسون يحاول في كتابه «تاريخ اليهود في بلاد العرب» أن يبرئ بني النضير من هذه التهمة، ويتلمس الأسباب تلمسًا لا ليبرئ بني قومه فحسب، بل ليلقي التبعة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين في كل ما وقع بهذه الغزوة، فقد زعم أن النبي ﷺ غضب على يهود بني النضير؛ لأنهم لم يشاركوه في واقعة أحد، فأراد لهذا أن ينتقم منهم، فأنذرهم بأن يخرجوا من آطامهم ويَنْزَحوا عن يثرب في مدة عشرة أيام، وذلك حيث يقول في كتابه ص ١٣٥: «وكان إنذار الرسول ﷺ لهم بذلك بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في واقعة أحد، وكأن الرسول كان يعتبرها كغزوة موجهة إلى مدينة يثرب، فكان على بني النضير أن يخرجوا للقاء العدو كما تقضي شروط المعاهدة».

وكأنما أحس المؤلف أنه قد أحرج نفسه بهذا التعليل؛ لأن هذا الوضع ينطبق تمام الانطباق على يهود بني قريظة، فاستدرك بعد هذا مباشرة يقول: «ثم يظهر أن بني قريظة كانوا مرتبطين بعهد آخر غير عهد بني النضير، وأن الشروط كانت غير شروط عهد بني النضير، إذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في واقعة أُحُد كما طالب بني النضير، ولم يثأر منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثأر من بني النضير».

مغالطة: ثم أراد أن يجعل هذا الفرض حقيقة واقعة وأمرًا مسلمًا به، فأردف يعلله بقوله: «وليس معقولًا أن يغضب الرسول من بني النضير لعدم خروجهم إلى الوَغَى في واقعة أُحُد، دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها».

فقد افترض المؤلف أن رسول الله ﷺ طالب بني النضير في الاشتراك معه في واقعة أحد، وأنه كانت هناك معاهدة بين الرسول ﷺ وبين بني النضير تلزمهم بالاشتراك في هذه الواقعة، وأخرى بينه وبين بني قريظة لا تلزمهم بالاشتراك كما تلزم بني النضير، وأنه لو لم تكن معاهدة بني النضير مُلزمة لما غضب الرسول ﷺ على بني النضير دون غيرهم من اليهود.

وهذا زعم يحتاج إلى سند تاريخي يؤيد صحته، وليس يكفي فيه مجرد الظن، ولا تغني الفروض المنطقية عنه شيئًا، فعلى أي سند تاريخي اعتمد المؤلف في زعمه هذا؟

لم يذكر أحد من كُتَّاب السيرة ـ لا تصريحًا ولا تلميحًا ـ أن رسول الله ﷺ طالب بني النضير أو غيرهم من اليهود بالاشتراك مع المسلمين في واقعة أُحُد، أو أنه ـ حتى ـ لامهم أو عاتبهم على عدم خروجهم معه، بل الروايات كلها مجمعة على عكس ما ذهب إليه المؤلف، ومنها ما صرح بذلك تصريحًا لا يقبل التأويل.

دوران ولف: ولكن الدكتور إسرائيل يأبى إلا أن يصل إلى غرضه بأي وسيلة، سواء أبت عليه الروايات التاريخية أم طاوعت، وسواء أجمع المؤرخون على خلافه أم لم يجمعوا، وله في ذلك طريقة ملفوفة، وأسلوب دوَّار، يحوم به ثم يحوم حول الغرض، ثم لا يزال كذلك حتى يخيَّل إليه أو يخيِّل هو إلى القارئ أنه قد أصابه: فهو يعمد أولًا إلى الرواية التي تتأبى عليه فيكذبها أو يضعِّفها أو يشكك فيها، ثم يتخذ من ذلك أساسًا يبني عليه قاعدة، ثم يتجه بهذه القاعدة طردًا أو عكسًا كما يتطلب الغرض الذي يرمي إليه.

أما الرواية الأخرى فهو يعمد إليها فيلويها ليًّا أو يحرفها تحريفًا حتى تصل به إلى مراده، وهو مذهب جرى عليه المؤلف كثيرًا في كتابه، وأسلوب استخدمه كلما بدا له أن يخالف إجماع المؤرخين في رأي، أو يذهب غير ما ذهبوا إليه في موضوع.

وفي موضوعنا هذا استخدم المؤلف ثلاثًا من الروايات التاريخية، أولاها لابن إسحاق، والثانية لابن هشام ـ فيما يقول المؤلف ـ والثالثة لابن سعد صاحب الطبقات الكبرى.

فأما رواية ابن إسحاق فقد ذكر فيها ابن إسحاق من حديث مخيريق: «وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ مُخَيْرِيقٍ، وَكَانَ حَبْرًا عَالِمًا، وَكَانَ رَجُلًا غَنِيًّا كَثِيرَ الأَمْوَالِ مِنَ النَّخْلِ، وَكَانَ يَعْرِفُ رَسُولَ الله ﷺ بِصِفَتِهِ وَمَا يَجِدُ فِي عِلْمِهِ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ إلفُ دِينِهِ، فَلَمْ يَزَل عَلَى ذَلِكَ حَتَّى إذَا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَكَانَ يَوْمُ أُحُدٍ يَوْمَ السَّبْتِ، قَالَ: «**يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! وَالله إنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ نَصْرَ مُحَمَّدٍ عَلَيْكُمْ لَحَقٌّ**»، قَالُوا: «**إنَّ اليَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ**»، قَالَ: «**لَا سَبْتَ لَكُمْ**»، ثُمّ أَخَذَ سِلَاحَهُ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ الله ﷺ بِأُحُدٍ، وَعَهِدَ إلَى مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ قَوْمِهِ: «**إنْ قُتِلْتُ هَذَا اليَوْمَ فَأَمْوَالِي لِمُحَمَّدٍ ﷺ يَصْنَعُ فِيهَا مَا أَرَاهُ اللهُ**»، فَلَمّا اقْتَتَلَ النَّاسُ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ ـ فِيمَا بَلَغَنِي ـ يَقُولُ: «**مُخَيْرِيقُ خَيْرُ يَهُودِ**». [السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥١٨، ٢/ ٨٩-٩٠].

وأما رواية ابن هشام ـ فيما زعم المؤلف ـ فملخصها أن الأنصار سألوا النبي ﷺ يوم أُحُد: ألا نستعين بحلفائنا من اليهود؟ فقال: «**لا حاجة لنا فيهم**».

وأما رواية صاحب الطبقات فمضمونها أن النبي ﷺ خرج بالمسلمين إلى أُحُد، حتى إذا كان بالشيخين التفت فنظر إلى كتيبة خشناء لها زجل [أصوات وضوضاء]، فقال: ما هذه؟ قالوا: حلفاء ابن أُبي من يهود، فقال: «**لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك**».

ولما كانت الروايتان الأخيرتان صريحتين كل الصراحة في معارضة رأي المؤلف، فقد عمد إلى إحداهما ـ وهي رواية ابن سعد ـ فضعَّفها وغض النظر عنها؛ لأنها تتناقض مع ما قصه عن ابن إسحاق، ثم عمد إلى الأخرى ـ وهي رواية ابن هشام فيما زعم ـ فشكك فيها وقال بأنها زعم منسوب لغير ابن إسحاق، ثم عقَّب عليها بقوله: «غير أن المستشرقين يرتابون في صحة هذا الحديث كما هو شأنهم في كل ما يرويه ابن هشام عن غير ابن إسحاق، ويستدلون على عدم صحته بأن الرسول غضب من بني النضير بسبب عدم اشتراكهم معه في يوم أحد، واتخذ من امتناعهم عن ذلك سببًا لإعلان الحرب على بني النضير».

منطق عجيب: فما دام ابن هشام يروي عن غير ابن إسحاق فحديثه موضع الشك، وما دام حديثه موضع الشك فهو غير صحيح، وما دام غير صحيح فعكسه صحيح، وإذن فالرسول ﷺ لم يقل يوم أحد: «**لا حاجة لنا في اليهود**»، وما دام لم يقل ذلك فهو في حاجة إليهم، وما دام في حاجة إليهم فلابد أن يخرجوا معه، وما داموا لم يخرجوا معه فقد غضب عليهم، وما دام قد غضب عليهم «فقد اتخذ من امتناعهم عن الخروج معه سببًا لإعلان الحرب على بني النضير»..

هذا هو منطق الدكتور إسرائيل ومنطق المستشرقين الذين أراد أن يستشهد بأقوالهم، وإلا، فأي علاقة بين عدم صحة الرواية وبين غضب الرسول ﷺ وانتقامه من بني النضير؟ على أن الرواية مع هذا ليست لابن هشام ولكنها للزهري، كما ذكر ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية».

أما رواية ابن إسحاق فقد جعل المؤلف يعتصرها ويلويها حتى استطاع أن يخرج منها بأن الرسول ﷺ أثنى على مخيريق، وما دام قد أثنى على مخيريق لأنه قد خرج معه، فقد غضب على غيره ممن لم يخرجوا معه، وما دام قد غضب على من لم يخرجوا معه فقد اتخذ من امتناع بني النضير سببًا لإعلان الحرب عليهم، وهذا ما أراده المؤلف حين قال في ص ١٣٢ من كتابه: «ويؤيد صدق نظر المستشرقين في هذا الزعم ما نقلناه عن ابن هشام نفسه، من ثناء الرسول ﷺ على مخيريق وقوله: «**مُخَيْرِيقُ خَيْرُ يَهُودِ**»، فإنه لم يقل ذلك إلا لأن مخيريقًا لم يتخلف عن تلك الموقعة كما تخلف بقية اليهود».

تحريف: ولكي يموه المؤلف على قارئيه بأن مخيريق ظل من اليهود ـ حتى بعد إيمانه بأن نصر محمد ﷺ حق، وبعد استشهاده في سبيل نصرة الدين الذي جاء به محمد ﷺ وبعد وَصَاته بأن يكون ماله لمحمد ﷺ يصنع فيه ما أراه الله ـ عمد إلى عبارة ابن إسحاق فغير منها وبدَّل، فحذف منها ما أراد وحرَّف منها ما أراد، وفرَّق بين أجزائها وباعد بين معانيها؛ حتى تصل به إلى مراده، ويحسن بنا أن نذكر نص العبارة كما أوردها المؤلف في كتابه، لكي يقارن القارئ بين النصين، ويرى بعينه مدى الفرق بين الاتجاهين:

قال المؤلف: «ولم يشترك أحد من اليهود في موقعة أحد إلا رجل اسمه مخيريق، كان رجلًا غنيًّا كثير النخيل، وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه، وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد».

ثم فصل بفقرة من كلامه هو ذكر فيها سبب امتناع بني النضير عن الخروج، ثم عاد إلى النص فأورد بقيته هكذا: «ولكن مخيريق اليهودي قال: لا سبت لكم، فأخذ سيفه وعدته وقال: إن أُصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتل، فقال الرسول ﷺ: مخيريق خير اليهود».

ثم حذف من العبارة أولها ـ وهو قول ابن إسحاق «كان حبرًا عالمًا» ـ ليوهم القارئ أن مخيريق كان فردًا عاديًّا وليس من أهل العلم والتبحر في الدين، ثم حذف منها ثانيها كلمة «إذا» ليقف بالكلام عند كلمة «أحد» فانقلب المعنى إلى عكس ما أراد ابن إسحاق.

فأنت ترى أن المؤلف بدأ كلامه عن غير مخيريق بالتصغير من شأنه، ثم حرف في كلام الرسول ﷺ نفسه فزاد الألف واللام في كلمة «يهود»، مع أن السهيلي صاحب «الروض الأنف» وقف طويلًا عند هذه الكلمة يحللها، حتى انتهى منها إلى أن مخيريق قُتل مسلمًا لا يهوديًّا.

وهكذا يدور المؤلف ثم يدور حول الغرض الذي يرمي إليه حتى يُجهد القارئ ويُعنته، ثم يتركه حائرًا بين الشك واليقين، ولكن هذا اللف والدوران قد يجهد المؤلف نفسه حتى ينسى ما كتب، فيكتب بعده ما يعارضه، فيناقض نفسه بنفسه.

تناقض: فقد قال المؤلف قبل ذلك في ص ١٣٢ من كتابه، مبررًا عدم اشتراك اليهود في أُحُد: «وكانت موقعة أُحُد يوم سبت، فأبى اليهود أن يحملوا السلاح في ذلك اليوم، ورفضوا الاشتراك مع الرسول ﷺ في غزوة أحد، معتمدين على أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول ﷺ تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيدًا عن المدينة كما ذكرنا سابقًا».

ثم قال بعد ذلك في ص ١٣٥، مبررًا غضب الرسول ﷺ عليهم لعدم اشتراكهم: «وليس معقولًا أن يغضب الرسول من بني النضير لعدم خروجهم إلى الوَغَى في وقعة أُحُد، دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها».

فالمعاهدة في رأي المؤلف غير ملزمة لليهود بالاشتراك في الحرب خارج المدينة، حين يريد أن يبرر بها قعودهم عن الخروج يوم أُحُد، وهي في الوقت نفسه ملزمة لهم، حين يريد أن يبرر بها غضب الرسول ﷺ على بني النضير.. أليس هذا تناقضًا؟ أليس هذا التناقض وحده كافيًا لهدم الفكرة من أساسها؟

ثم أليس من التناقض أيضًا أن يكون العهد الذي بين الرسول ﷺ واليهود ملزمًا لبني النضير في الدفاع عن المدينة، وغير ملزم لبني قريظة؟ أليس الجميع أبناء ملة واحدة وأبناء وطن واحد؟.. ولكن الدكتور إسرائيل لا يبغي إلا الوصول إلى غرضه، وأن يضع في رأس القارئ ـ بأي وسيلة ـ أن رسول الله ﷺ غضب على بني النضير وأجلاهم عن المدينة؛ لأنهم لم يشاركوه في واقعة أُحُد، وإن خالفه في ذلك كل المؤرخين، وإن نقض هو ما قرره بنفسه من قبل من «أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين الرسول تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيدًا عن المدينة».

على أنه كان ينبغي للدكتور إسرائيل أن يعلم أن الله نهى المؤمنين في كتابه أن يتخذوا من اليهود بطانة، وكشف لهم عن دخيلتهم كشفًا صريحًا واضحًا لا يدع مجالًا للشك في عداوتهم للإسلام وأهله، فلم يكن من المعقول أن يخالف الرسول ﷺ عن أمر ربه فيشرك معه اليهود في حربه، وإلا فأي موقف غير موقف الحرب كان أجدر أن يحذر فيه الرسول ﷺ والمؤمنين هذه البطانة؟

مكابرة: وكما أراد الدكتور إسرائيل أن يثبت أن النبي ﷺ أعلن الحرب على بني النضير لأنهم لم يشاركوه في غزوة أُحُد، أراد أن ينفي عن بني النضير أنهم هموا باغتيال النبي ﷺ، فقال في ص ١٣٦ من

كتابه: «ويَذكر مؤرخو العرب سببًا آخر لإعلان الحرب على بني النضير غير امتناع اليهود عن الاشتراك في يوم أُحُد واعتذارهم بيوم السبت، فيقول ابن هشام...».

ثم ساق الرواية السابقة على أنها لابن هشام لا لابن إسحاق، ثم عقَّب عليها بقوله: «لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية، ويستدلون على كذبها بعدم ذكر لها في سورة الحشر التي نزلت بعد إجلاء بني النضير».

وكأنما أحس المؤلف أن هذا الاستدلال ليس كافيًا لتكذيب كل مؤرخي العرب وإنكار صحة الرواية العربية، فاستدرك قائلًا: «على أننا لو سلمنا بصحة هذه الرواية فإننا لا نجدها كافية لإشهار الحرب على جميع بطون بني النضير، إذ نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود، أن كل جُرم من جهة فرد أو عدة أفراد، يقع عقابه على فاعليه وأهل بيتهم، دون أن يمس غيرهم بشيء من الأذى».

فأما أن سبب إعلان الحرب على بني النضير لم يُذكر في سورة الحشر بالشكل الذي يريده المستشرقون فهو صحيح؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ يعرض الحوادث «عرضًا تاريخيًّا مسلسلًا بقصد التسجيل، إنما هو يعرضها للعبرة والتربية، واستخلاص القيم الكامنة وراء الحوادث، ورسم سمات النفوس، وخلجات القلوب، وتصوير الجو الذي صاحبها، والسنن الكونية التي تحكمها، والمبادئ الباقية التي تحققها» [في ظلال القرآن ١/ ٤٦٧]، فهو لا يعرض للحوادث إلا بمقدار ما يلفت النظر، أو يمس القلب، أو يوقظ الوجدان.

على أن السبب الذي ينكر المستشرقون وجوده قد ذُكر في سورة الحشر ولكن على طريقة القرآن لا على طريقة المؤرخين، وذلك حيث يقول الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر]، ثم أشير إليه مرة أخرى في سورة المائدة، وذلك حيث يقول عز وجل، مذكرًا رسوله والمؤمنين بنعمته عليهم ووقايته لهم من كيد أعدائهم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة]، فقد ذكر ابن إسحاق ـ كما ذكرت طائفة من أئمة التفسير ـ أنها نزلت في شأن بني النضير حين هموا بقتل رسول الله ﷺ.

طابع الجريمة ونتائجها: وأما أن الرواية العربية على فرض صحتها غير كافية لإشهار الحرب على جميع بطون بني النضير، كما تنص المعاهدة الكبيرة بين الرسول ﷺ واليهود، فأمر فيه نظر، ذلك أن الذي هَمَّ بقتل الرسول ﷺ لم يكن فردًا ولا أفرادًا بصفتهم الشخصية، إنما كانوا زعماء بني النضير الذين بيدهم الحَل والعقد فيها، والذين ذهب إليهم الرسول ﷺ ليفاوض في أشخاصهم القبيلة

بجميع بطونها وعشائرها، فهم حين يهمون بأمر إنما يهمون به باسم القبيلة كلها لأنهم كبراؤها وسادتها، وليس ينفي عن القبيلة تهمة الجريمة أن يقوم بها فرد أو أفراد من هؤلاء، فالجريمة إذن ليست جريمة فردية حتى يؤاخذ بها الأفراد الذين هموا بها دون غيرهم.

ثم إنه ينبغي أن يُوضع في الميزان ما كان ينتج عن الجريمة لو تمت، فهي لم تكن جريمة عادية واقعة على فرد عادي، إنما كان جُرمها واقعًا على المؤمنين جميعًا في شخص رسولهم ﷺ، فكانت نتائجها أخطر النتائج وأسوأها عاقبة؛ لأنها القضاء على دين الله الذي جاء به رسوله نورًا وهدى للناس كافة، فهم بهذا إنما ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[التوبة]، ومن أجل هذا عبَّر القرآن عن هذه الجريمة على أنها جريمة جماعية، همَّت فيها جماعة بالاعتداء على جماعة، فلو أنها كانت جريمة فردية كجريمة كعب بن الأشرف لكان للمؤلف أن يقول ما قال.

على أن النصوص التي يشير إليها المؤلف في المعاهدة الكبيرة إنما جاءت بألفاظ العموم التي تتسع للفرد وللجماعة معًا: «**مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ... وَإِنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ فَتَكَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ... لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَى نَفْسِهِ... مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ**».
[السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٥٠٣-٥٠٤].

لا شك إذن في أن العقاب الذي أنزله الرسول ﷺ ببني النضير كان مكافئًا للجريمة التي هموا بها، ولا شك في أنه ﷺ لم يكن ليخرجهم من المدينة، إلا بعد أن تأكد له أنهم قد بيتوا نية الغدر، وأن بقاءهم في المدينة قد غدا خطرًا عليه وعلى دعوته، ولا شك في أنه لم يكن يريد أن ينتقم إلا لدين الله الذي أرادوا أن يهدموه بقتل رسول الله ﷺ.

وهذه شنشنة عُرف بها اليهود من قديم، وشهد الله بها عليهم في كتابه حيث يقول سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[المائدة].

هذه غلطة تاريخية ـ بل سقطة تاريخية عظيمة ـ كان لابد أن نقف عندها حتى نصححها، فإن وجه الحق فيها كاد أن يطمسه المؤلف ويعميه على ناشئتنا ومُحْدَثينا». [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٣٨٩-٣٩٧].

ويقول د/ الوكيل: «والحق أن ولفنسون يغالط في هذه الاعتراضات والمبررات مغالطة واضحة، بينها الدكتور جاد رمضان في المحاضرة التي ألقاها في الموسم الثقافي للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، حيث يقول: إن الجريمة لم تدبر من أفراد عاديين، ولكن مدبريها هم رؤوس بني النضير وزعماؤها الذين يعتبر رأيهم تعبيرًا عن رأي شعبهم كله، ومثلهم في ذلك كمثل الدولة التي تعلن الحرب على دولة أخرى، فإن الذين يعلنون الحرب هم الزعماء، والشعب يتحمل كل تبعات الحرب ونتائجها؛ لأنه هو الذي يختار زعماءه، وهم يعبرون عن إرادته ورأيه». [المدينة المنورة للوكيل ٢/ ٩٠-٩١].

ويقول د/ أبو خليل: «ويواصل ولفنسون دفاعه حيث يقول في نفس الكتاب: «إن هدم البيوت لم يكن القصد منه التخريب وأخذ الأخشاب، بل إن هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة، وهي أن كل يهودي يعلِّق على نجاف بيته صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني إسرائيل، أن يحتفظوا بالإيمان بإله واحد ولا يبدلوه ولو عُذبوا وقُتِّلوا، فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم، وهي عادة متبعة عند اليهود إلى يومنا هذا، ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يضعون تلك الصحيفة في داخل النجاف خوفًا من إتلاف الهواء أو مس الأيدي، فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها».

ومناقشة سريعة لهذا القول تجعلنا نقول ـ إن سلمنا أن هدم البيوت لم يكن القصد منه التخريب، بل عادة يهودية جاءت من التلمود ـ: إن ذلك لا يستدعي هدم البيوت عن آخرها، وإلا كان الفرد منهم لو انتقل إلى بيت آخر في حيه هدم بيته ليأخذ الصحائف معه! فالثابت أنهم هدموا بيوتهم حتى نقضوا الجدران، فالهدف ألا ينتفع المسلمون بها.

وهي عادة معروفة إلى زمننا هذا، إلى عامنا هذا، فتدمير المدن، وتفجير البيوت، وهدم ما بقي قائمًا من جدران أمر متبع معروف، وسياسة انتهجت ذلك كله بغيًا وحسدًا وبغضًا لغيرهم من الأمم».

[غزوة الخندق لأبي خليل ٤٤-٤٥].

١١ ـ عداوة اليهود:

يقول د/ الزيد: «في عداوة اليهود الشديدة للرسول ﷺ نجد فيها مصداقًا لقول الله جل شأنه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾[المائدة]، فإن النبي ﷺ رأى من اليهود من العداوة والإيذاء ما لا يضاهيهم فيه إلا المشركون في مكة ومن سار معهم، واليهود قد تدربوا على قتل الأنبياء والرسل ومعاندة الله في أمره ونهيه، وتحريف تنزيله الذي أنزله في كتبه.

[ينظر: تفسير الطبري، تحقيق التركي ٨/ ٦٠٠].

في مقابل ما وجده الرسول ﷺ من نصارى الحبشة من الإيواء والنصرة للمهاجرين إلى الحبشة خوفًا من إيذاء المشركين في مكة، ولما أرسل الرسول ﷺ كتبه إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى من أحسنهم ردًّا، فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام فلم يستطع، فاكتفى بالرد الحسن، وضن بملكه، والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه ردًّا، وإن لم يكن أحسن منه ميلًا للإسلام، وأرسل للنبي ﷺ هدية حسنة، ثم لما فُتحت الشامُ ومصرُ وعرف أهلها الإسلام أسرعوا إلى الدخول فيه» **[تفسير المراغي ٧/ ٦]**». **[فقه السيرة للزيد ٣٦١-٣٦٢]**.

١٢ ـ لم ينف اليهود جريمتهم:

يقول د/ أبو خليل: «ومن الملاحظ أن بني النضير لم تنف خبر الغدر برسول الله ﷺ، ولو لم يكن الأمر حقًّا لكذبوه.

وفي رأينا أن سبب عدم تكذيب اليهود لخبر غدرهم وإلقاء الصخرة على رسول الله ﷺ شيوع الخبر بينهم، وبعضهم لم يكن على رأي الغدر والنكث، وعارضوا في قتل رسول الله ﷺ، إما حفاظًا على ديارهم وممتلكاتهم، وإما قناعة بنبوته ولو لم يتبعوه، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أما قال لهم سلام بن مشكم: **لا تفعلوا، والله ليخبرن بما همتهم به؟**

بالإضافة إلى أن فعلتهم هذه عُرفوا بها على مر التاريخ، فليست أمرًا جديدًا عليهم».

[غزوة الخندق لأبي خليل ٣٩].

١٣ ـ لا مناص عن الجلاء:

يقول أ/ فتح الباب: «ولم يكن أمام الرسول ﷺ بعد أن أجمعت الشواهد على عداوة بني النضير وشروعهم في قتله لإشعال الفتنة والقضاء على الدعوة إلا أن يصدر أمره بإجلائهم عن المدينة، فبعث يطلب محمد بن مسلمة ﷺ وقال له: **اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بي، لقد أجَّلتكم عشرًا، فمن أبى بعد ذلك ضربت عنقه.**

وأسقط في يد المتآمرين ورأوا كيف كانت عاقبة مكيدتهم، فما استطاعوا لها ردًّا، وأذعنوا لقرار محمد ﷺ الصارم، وبدأوا يستعدون للجلاء عن مساكنهم، وقد تقطعت أنفاسهم حسرات، وذكروا أولاد عمومتهم من بني قينقاع في نفيهم، كما رجعوا بذاكرتهم إلى الماضي البعيد يوم كتب الله عليهم الضلال في التيه جزاء لهم بما بدر منهم من جحود ونكران وعصيان لأمر الله وأمر نبيه موسى عليه السلام، وها هم أولئك لا يتعظون بعد مرور تلك الحقب الطوال، وكلما أتى منهم جيل كان شرًّا مما سبقه، وحقت عليهم لعنة من الله بعداوتهم للإنسانية وجنايتهم على الشرائع الإلهية، وما تحض عليه من التزام بالقيم الأخلاقية». [القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٢١٨ - ٢١٩].

١٤ ـ تأديب العصاة:

يقول أ/ دويدار: «كانت غزوة بني النضير خطوة حازمة موفقة، وضربة في الصميم أصابت اليهود والمنافقين معًا، فكسرت شوكتهم وملأت قلوبهم بالرعب، فكف المنافقون عن اللغو والإرجاف وإشاعة الفتنة، وقبع بنو قريظة في عقر دارهم يترقبون في حذر وخوف، وهدأت المدينة فترة من الزمن استطاع الرسول ﷺ والمسلمون فيها أن يوجهوا جهودهم إلى تأديب ما بقي من القبائل الثائرة عليهم من أعراب البادية». [صور من حياة الرسول ﷺ لدويدار ٤٠٠].

ويقول د/ العمري: «لقد أدى إجلاء بني النضير بعد إجلاء بني قينقاع إلى كسر شوكة اليهود والمنافقين في المدينة حيث جددت قريظة المعاهدة مع المسلمين خلال حصار بني النضير، وأظهرت رغبتها في المحافظة على العهد حتى كانت غزوة الأحزاب، والمنافقون لم ينجزوا وعدهم لبني النضير بالنصر وتبين ليهود عدمُ جدوى الاعتماد عليهم، وقوي كيان الإسلام بالتخلص من بني النضير والاستفادة من أراضيهم بإقطاعها للمهاجرين الذين كانوا يعتمدون في سكناهم على أراضٍ وبيوت للأنصار». [السيرة النبوية الصحيحة للعمري ١/ ٣١٠-٣١١].

١٥ ـ الموازين الإسلامية وكيف يتم النصر؟:

يقول الشيخ الخطيب: «الميزان الإسلامي لا يتحقق إلا بالوصول إلى المستوى الإيماني اللائق بالأمة المؤمنة، هذا الميزان الذي لا يخطئ، يحدد بدقة متناهية دور الإيمان ومستواه في النفس المؤمنة.

فإذا وصل الإيمان إلى مستوى معين من اتباع لشرع الله، ولزوم لمنهج الله، وتجرد كامل لهذه الرسالة، وتوكل على الله، عندها نكون قد حققنا ما يريده المولى ﷻ، وعند ذلك يتفضل الله ﷻ على هذه الأمة بالنصر المبين والنجاح المؤزر.

والعلاقة بين الفرد والإيمان علاقة إيجابية، فبقدر ما يتوفر للمسلم من إيمان بقدر ما يتم له النصر ـ من الله، نصر على نفسه، ونصر في عالمه الذي يعيش فيه بإظهار الحق الذي يدعو إليه، ونصر على عدوه، هذا ينطبق على العاملين للإسلام بالأمس واليوم وغدًا.

ونحن إزاء موقف خالد في الدستور القرآني، بل هو بحق قاعدة هامة من قواعد الإيمان التي لا تتصدع ولا تتغير ندركها بالعين البصيرة ونحاول أن نطبقها في واقعنا تطبيقًا عمليًّا، وعند ذلك لن نضعف أبدًا ولن نذل أبدًا ولن نهزم إن شاء الله.

نحن مع مقدمة سورة الحشر التي تمدنا بفيض غامر من الإيمان وما أحوجنا إليها في عصرنا الحاضر؛ لأن الأعداء يحاصروننا في كل مكان، أعداء في الشرق ملاحدة، وأعداء في الغرب كفرة، وتيارات في داخل بلادنا من هنا وهناك.

الخيانة والغدر: وهذه المقدمة تكشف لنا الموقف الثابت لليهود على مدار التاريخ وهو الخيانة والغدر، كما تكشف عن نُصرة الله لنا إذا كنا على مستوى الإيمان، ووقعة بني النضير في السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أُحُد سببها ذهاب الرسول ﷺ إليهم مع عشرة من كبار الصحابة يطلب منهم أن يشاركوا بمقتضى المعاهدة التي بينه وبينهم في دفع دية قتيلين قُتلا خطأ، فاستقبلوه بالبِشر والترحاب ووعدوا بأداء ما عليهم، بينما كانوا في نفس اللحظة يدبرون أمر الاغتيال لرسول الله ﷺ، واختاروا من بينهم «عمرو بن جحاش» ليصعد فوق الحائط الذي يجلس الرسول ﷺ بجواره، ويلقي عليه الصخرة،

فأوحى الله إلى رسوله بما يدبرون، فقام ورجع إلى المدينة، وأمر بالاستعداد لحربهم لظهور الخيانة منهم ونقض العهد، فحاصرهم رسول الله ﷺ في حصونهم، فاعتصم اليهود وراء هذه الحصون وتزودوا بالمؤن والماء والعتاد، حتى أصبحوا في منعة من أمرهم، واستقر في أذهانهم أنهم الغالبون، وأحكم أصحاب رسول الله ﷺ حصار تلك الحصون المنيعة ستًّا وعشرين ليلة وهم في حيرة من كيفية احتلال تلك الحصون المنيعة التي لا قِبَل لهم بها.

وتعصف التيارات المتلاطمة بهؤلاء وهؤلاء، ويظهر الموقف العسكري على الشكل التالي: يهود بني النضير أخذتهم العزة بحصونهم وقوتهم وأسلحتهم المتطورة عما يعرفه العرب في ذلك الوقت، وتركز في أذهانهم أن العرب لا قِبَل لهم بحرب الحصون المنيعة ذات الأبواب الضخمة الثقيلة، وتصوروا بحماقتهم أن المحاصِرين سيَلقون الضعف والهزيمة المحققة والإعياء بعد حصار قليل، وسوف يفت في عضدهم الانتظار وهذا ظنهم وتفكيرهم وكيدهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[الحشر: ٢].

والمسلمون المحاصِرون دخل في روعهم الفتور لتصورهم أن قوة بني النضير كبيرة لا قِبَل لهم بها، وكيف السبيل لخرق تلك الحصون، إيمانهم كامل، وتصورهم سليم والموقف في غاية الصعوبة، والإنهاك أخذ بهم كل مأخذ فإلى متى يدوم الحصار، سؤال يثار في نفوسهم ولا يعرفون للجواب سبيلًا، ولنعش لحظات مع الآيات الكريمة في أول سورة الحشر لنستوعب الفكرة ولنأخذ العبرة، ولنتدبر الموقف في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾[الحشر].

ميدان القتال ونضال حِلف الإيمان وحِلف الكفر، جبهة مؤمنة تكافح من أجل إعلاء كلمة الله، وجبهة كافرة محصنة يعلو جبهتها الغرور والكبرياء والله بيده الأمر، ومتى ترجح الكفة؟ إنها بأمر الله، ومتى يتم النصر؟ حتى يأمر الله والله هو الحكيم الخبير، له من ذلك حكمة ودروس وعبرة.

كيف يتم النصر؟: والسؤال الذي يطرح نفسه في الموقف العصيب: كيف يتم النصر؟ ومتى ينصر الله عبده؟ وما معنى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾[محمد ﷺ]؟ وما قيمة الشرط ﴿إن﴾؟ ومتى تصل المعجزة من الله؟ وما وجه التشابه بين ذلك الموقف في ذلك العصر من موقفنا اليوم نحن واليهود؟ نحن وأعداء الله، نحن والتيارات الماركسية الإلحادية؟ وما هي العبرة التي يجب أن نأخذها مما أثبته القرآن العظيم؟

إن حادثة بني النضير وحصارهم في حصونهم تعلمنا حقيقة تدخُّل أمر الله في الوقت المناسب، ولتعلمنا درسًا في التربية الإسلامية، حيث إن هذا الموقف الهادف لم يحصل صدفة إنما قَدَرٌ من الله ليربي

النفوس المتعطشة للإسلام ولينميها في لبان الإيمان وليعرف المؤمنين أن النصر لا يأتي بالسلاح ولا بالقوة ولا بالعدد فحسب، وإنما هنالك ركيزة أهم ألا وهي نصر الله، هذا النصر إن جاء يغني عن القوة والسلاح، هذا النصر لا يأتي إلا إذا أصبح المؤمنون على مستوى النصر: إيمانًا ويقينًا وصدقًا واستقامة واستجابة.

سورة الحشر تُعلِّم المؤمنين دروسًا في التربية الوجدانية والإيمانية بأن نصر الله لا تقيده قيود ولا تحده حدود، ونصر الله لا يأتي اعتباطًا إنما شرطه إيمان المؤمنين وتساميهم وعلوهم بالدين.

متى يَقذف الله الرعب في قلوب الأعداء؟ ومتى يُدخل الروع في القلب الضعيف؟ هو إذن من الله، شرط الإيمان والتقوى والاستقامة؟ كان المسلمون على قدر كبير من الإيمان والاستقامة والاستجابة لله ورسوله فنصرهم الله، كانت غايتهم رضاء الله لا تأخذهم في الله لومة لائم.

هذه المواقف كلها دروس وعبر، لم تأت في القرآن الكريم عبثًا إنما هي الإرشادات والتوجيهات التي تغربل الإيمان، وتصفي القلوب مما داخَلها، وتُطهر النفوس من الغرور والكبرياء، إن ولاية ونصر الله أقوى من كل سلاح، فإن كنا على مستوى الإيمان فالله ولينا ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[البقرة: ٢٥٧].

الرعب قُذف إلى قلوب اليهود قذفًا عنيفًا فصعقوا، فتسمروا، وضعفوا وانهارت قواهم، وأصاب مركز كيانهم الخور فزاغ وعيهم، وتلجلج موقفهم واهتز، وضاعت عقولهم، وأصبح إلى انهزامية مسحوقة حتى صاروا يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

أبعد هذا النصر نصر؟ هل تصور المؤمنون أن يصل الضعف في اليهود وأن يهدموا بيوتهم بأيديهم إمعانًا في الهزيمة؟ هل تصور المؤمنون في الليالي التي قضوها أمام الحصون أن يصلوا لليهود أو أن يطؤوا بيوتهم ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾[الحشر: ٢].

ولكن أمر الله فوق كل أمر.

إن حياة رسول ﷺ، ومعاناة الصحابة من أحداث الإسلام الأولى هي المدرسة التي تربى فيها هؤلاء فأحسنت تربيتهم ليكونوا دعاة وقدوة وهداة، وصحيح أنه مجتمع فريد من نوعه لأن رسول الله ﷺ هو المعلم الأول، فكانوا نعم التلاميذ، ولكن علينا أن نستنير بهداهم وأعمالهم، وإنه الأمر من الله ﷻ: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾[الحشر]، نداء خالد من القرآن العظيم لأصحاب العقول أن يُدركوا قيمة الآية الكريمة: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[الحشر: ٢].

ونحن اليوم إزاء معارك كبرى في مختلف الاتجاهات، وإزاء تيارات متلاحقة تشد بعضها بعضًا، وكلها تريد أن تنال من جسم الإسلام، تريد أن تغمد الحربة في صدر الإسلام لتدميه وتفقده توازنه؛

لأن في نجاح المسلمين هلاك لهم، فعلينا أن ننبذ الأنانية والحقد، ونضع الدنيا وراء ظهورنا والآخرة أمامنا، أن يكون رائدنا محمد رسول الله ﷺ: «**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ...**».

[البخاري في التيمم (٣٣٥)، وفي الصلاة (٤٣٨)، وفي الجهاد والسير (٢٩٧٧)، والنسائي في الغسل والتيمم (٤٣٢). وفي لفظ لأحمد: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، فَيُرْعَبُ مِنِّي العَدُوُّ عَنْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ». أحمد عن أبي ذر الغفاري ﷺ (٢٠٧٩٢). وفي لفظ لمسلم: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ عَلَى العَدُوِّ». مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)].

والنصر بالرعب هو لأمته كذلك من بعده، وذلك إذا سارت في خطاه». [راجع ظلال القرآن ج٢٨]. [مفاهيم تربوية للخطيب ١/ ٤٩ -٥٣].

١٦ ـ جلاء بني النضير والزهو المفتعل:

يقول د/ الوكيل: «ويحدثنا ابن إسحاق عن خروج اليهود من المدينة فيقول: إنهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم... بزهاء وفخر ما رئي مثله من حي من الناس في زمانهم.

لقد حاول بنو النضير أن يستروا خروجهم مدحورين بهذا الزهو المفتعل، وليست هذه الطريقة التي اتبعوها في خروجهم إلا تعبيرًا عن حزن عميق، كما تمثل الدموع في كثير من الأحيان السرور الزائد في نفوس بعض الناس، أو لعلهم قد فعلوا ذلك فرحين فعلًا، ولكن بنجاتهم ونجاة نسائهم وأولادهم من القتل الذي توعدهم به الرسول ﷺ في إنذار محمد بن مسلمة ﷺ». [تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٥].

لقد كانوا سعداء إذ أنهم تخلصوا من الموت؛ لذا فإن الاحتفال الذي احتفلوا به قُبيل تركهم المدينة كان احتفالًا لم ير أهل المدينة مثيلًا له، وإن الإنسان ليستغرب من ذلة هؤلاء الناس والذين يحتفلون وهم على أعتاب مُفارقة موطنهم ومساكنهم، بدلًا من الإحساس بالحزن والأسى.

[النور الخالد محمد ﷺ لكولن ٢/ ٩٠].

١٧ ـ أخذ الحيطة من الأعداء:

وقد خرج زعماء بني النضير ونزلوا خيبر، وفي اعتقادي أن هؤلاء لم يقصدوا خيبر إلا ليكونوا قريبين من مجريات الأحداث، على علم بما يجري بين المسلمين وأعدائهم، حتى إذا واتتهم الفرصة لم يفلتوها، ومن جانب آخر ليتمكنوا من الاستمرار في تدبير المؤامرات ضد المسلمين لعلهم في إحداها يفلحون.

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٥].

١٨ ـ سياسة الأخذ بمبدأ الوقاية:

يقول د/ طنطاوي: «لقد كان إجلاء بني النضير تطبيقًا بارعًا لسياسة الأخذ بمبدأ الوقاية، التي سار عليها النبي ﷺ، لا سيما في أعقاب غزوة أُحد؛ لأن بقاءهم بجوار المدينة ـ بعد أن ظهر غدرهم

ـ كان سيخلق كثيرًا من الفتن داخلها، مما يتعذر معه أن تصبح قاعدة أمينة للدعوة الإسلامية، فضلًا عن أن وجودهم بجوار المدينة معناه وجود عدو آخر سوى قريش، الأمر الذي سيرغم المسلمين على قتال عدوين إذا لزم الأمر بدلًا من عدو واحد، فكان من المتحتم إجلاؤهم ليتفرغ المسلمون لعدو واحد هو قريش.

كذلك فإن إجلاء بني النضير كان خطة حكيمة، وضربة صائبة أصاب مقتلًا من اليهود والمنافقين في وقت واحد؛ لأنهما كانا يمثلان جبهة متحدة ضد المسلمين، فلما تصدعت تلك الجبهة خفت صوت المنافقين، وفترت عزيمتهم وانتكست رايتهم.

يضاف إلى ذلك أن المسلمين بهذا النصر الذي أحرزوه بدون تضحيات تُذكر، توطَّد سلطانهم في المدينة، وعمها الأمن والاطمئنان، وانتفع المهاجرون بما أفاءه الله ﷻ على رسوله ﷺ من أموال اليهود، وتمكن المسلمون من التفرغ لقمع الأعراب، الذين آذوا المسلمين بعد أحد، فقتلوا العشرات منهم، في الرجيع، وبئر معونة بنذالة وكفران، وما كان ذلك ليتم بسهولة لو بقي يهود بني النضير شوكة في جنب المدينة». [بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٢٩١].

١٩ ـ إجلاء يهود بني النضير ومرحلة الانطلاق:

ليس من العسير أن يقدر الإنسان قيمة نصر المسلمين وإجلاء بني النضير عن المدينة بعد الذي قدمنا من تقدير الرسول ﷺ لما كان يخلقه بقاؤهم من تشجيع عوامل الفتنة، ومن دعوة المنافقين إلى أن يرفعوا رؤوسهم كلما أصاب المسلمين شر، ومن التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء.

[حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٢١].

لقد كان إجلاء يهود بني النضير عن يثرب في أعقاب نقضهم عهد النبي ﷺ بعد أحد إيذانًا بمرحلة جديدة في تاريخ المسلمين بمدينة الأنصار، وتعد هذه المرحلة إحدى حلقات تثبيت الإسلام والتمكين لمبادئه في الجزيرة العربية، تمهيدًا لنشره في سائر أنحائها، ثم الانطلاق منها إلى أرجاء الدنيا الفسيحة بحكم عالمية الرسالة التي حمل أمانتها محمد ﷺ، فلقد تطهرت أرض المدينة من أخبث أعداء الإسلام وأيدهم خصومه، فأصبحت مهيأة للنجباء والازدهار دون عوائق أو موانع. [القيم الخلقية لفتح الباب ١١١].

وكذلك كان إجلاء بني النضير بهذه الصورة، وبهذه الشروط دليلًا قاطعًا على قوة المسلمين، وشدة بأسهم، كما كان فيه قضاء على الفتنة التي أوشكت أن تعم المدينة، وإزالة لما عسى أن يترتب على وجودهم من تشجيع للمنافقين على التمرد، وإثارة للأحقاد الدفينة، مما قد يسبب في نشوب حرب أهلية، وإيقاظ الإحن النائمة بين المسلمين، كما كان سيحدث بين الأوس والخزرج حين أنشدهم الفتى اليهودي أشعار حرب يوم بعاث.

وبذلك قُضي على التمرد داخل المدينة، وقبع المنافقون، ولم يحركوا ساكنًا، ووجه الرسول ﷺ همته نحو الخارج يرسل الجيوش، ويبعث السرايا، ويخرج بنفسه غازيًا.

[تأملات في سيرة الرسول ﷺ للوكيل ١٦٦].

المطلب السادس

الدروس القيادية

١ ـ هل فكر النبي ﷺ في أول الأمر في إجلاء بني النضير:

يقول د/ حبيشي: «إني لأحب في بداية التعليق على أحداث التاريخ التي عرضتها بين يديك أن أؤكد على ما أعلمه، ولا أدعي أني أؤكد على الواقع الذي كان يعلمه النبي ﷺ أو يتصوره في توالي أحداث التاريخ.

والذي أعلمه من بداية حال النبي ﷺ مع بني النضير، هو أنه لم يكن يدور في ذهن النبي محمد ﷺ، أنه سيقاتل يهود بني النضير، أو أنه سيجليهم عن الأرض التي احتلوها، لا في الآن القريب، ولا في المستقبل المنظور، أو غير المنظور.

والذي يجعلني أذهب إلى هذا الاعتقاد هو ما أعلمه من خلائق النبي ﷺ.

وما أعلمه من خلائق النبي ﷺ أنه إذا عاهد أحدًا عهدًا محدودًا بمدة، فعهده إلى مدته لا ينتقصه منها شيئًا، وإذا عاهد أحدًا أو جماعة عهدَ أمن وتعايش في وطن واحد لا يخرج من هذا العهد أبدًا ولا ينتقضه، مهما كانت الظروف التي تدعوه أن ينقضه من طرف واحد من غير جريرة أو مخالفة تقع من الطرف الآخر الذي دخل معه في هذا الحلف أو تلك المعاهدة.

وما كل مخالفة تقع من الطرف الآخر تحمل النبي ﷺ على أن يفسرها تفسيرًا يحمله على أن يفهم أن الطرف المقابل قد خرج من العهد، وألقى بنفسه خارج ارتباطه، وأعلن الحروب على النبي ﷺ والمسلمين، بل إن النبي ﷺ لا يعتبر تصرف الطرف الآخر ناقضًا للعهد، إلا أن يكون هذا التصرف قد حمل من الخطر قدرًا يهدد المجتمع وأمنه، أو اعتدى على الآداب والعوائد اعتداء يجرح المشاعر ويصيب الأفئدة بالأذى.

هذا أمر يحملني على أن أعتقد أن النبي ﷺ ما كان في أول أمره يفكر في إجلاء اليهود من بني النضير عن أرضه ووطنه، حتى ولو كانوا في عُرف التاريخ والناس محتلين لهذه الأرض مغتصبين لهذا الوطن.

وأمر آخر يحملني على أن أعتقد أن النبي ﷺ كان بعيدًا عن التفكير في إجلاء هؤلاء اليهود ولو مرحليًّا، وهذا الأمر الآخر هو أن اليهود قد أشاعوا بين الناس (والناس حديثو عهد بالإسلام)، أنه لا يجوز للنبي

ﷺ ولا للمسلمين معه أن يعتزوا بنصرتهم على قريش، إذ القرشيون ما هم إلا أناس قليلو الحيلة في الحروب، وقليلو البصر في السياسة، بالإضافة إلى أنهم لا يملكون من الأموال إلا أقلها، وعملهم في التجارة يجعلهم لا يأمنون عليها في ذهابها وإيابها من الشام وإليها، بالإضافة إلى أنهم يخشون كسادها، ويرجون من ورائها الرواج الذي يعود عليهم بالربح ونماء المال، والقرشيون لا بصر لهم بالصناعة خاصة ما يتصل منها بصناعة السلاح؛ ولذا تراهم يعتمدون على غيرهم فيه إن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم حسبما يرى هذا الغير من مصلحته الشخصية وما يخدم مواقعه الاجتماعية، ثم إن القرشيين أخيرًا، ما هم إلا أناس محدودو الثقافة لا يملكون منها إلا مجموعة الحِكم في الاجتماعيات، وإلا بناء هشًّا في العقائد، وإلا هرمًا من الوهم في التشريعات التي تنظم حياة الناس.

لقد أشاع اليهود بين المسلمين كل هذا، والمسلمون قريبو عهد بإسلام، ثم أضافوا معه الزهو بشخصيتهم، وهي شخصية قادرة على الخيانة، والخيانة في عُرفهم أمر مشروع، وهي شخصية قادرة على صنع السلاح وتدبير الاقتصاد، وإثارة جماهيرهم على قاعدة من الدين، الذي أهم ما فيه من العقائد أن اليهود هم شعب الله المختار، وأن الله يدافع عن شعبه وينصرهم على الجوايم أو الحيوانات من البشر من غير اليهود.

وأنت على وعي كامل أن اليهود قد لخصوا كل هذه المواقف في عبارة واجهوا النبي ﷺ نفسه بها، حين قالوا له: **يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قد واجهت أناسًا لا بصر لهم بالحرب، وإنك إن واجهتنا لعلمت أنا نحن الرجال**.

ومثل هذه الكلمة تُقال للنبي ﷺ بغير مقدمات، تدفعه إلى أن يستسلم للتفكير في أمر اليهود وأمر نفسه، من غير أن تكون عنده نية في إجلاء اليهود عن الأرض التي اغتصبوها.

وحين فكر النبي ﷺ في نفسه وفي الدين معه وجد أن آثار التشرذم والانقسام الذي كان ظاهرًا في المجتمع قبل وجوده بفعل اليهود، ما زالت أسبابه قريبة العهد بالأوس والخزرج، وما زالت الرغبة في الانقسام والخروج على النبي ﷺ تطل برأسها من فم كل منافق له باليهود صلة، وهم يجدون من عبد الله بن أُبي بن سلول نواتهم التي يتجمعون حولها، وعبد الله بن أُبي يجد من أسباب الحقد في قلبه وقودًا كافيًا يدفعه إلى الكيد للمسلمين والتحالف مع غيرهم ولو كانوا يهودًا، ثم إن النبي ﷺ يَظهر له من تأمل الواقع أن المهاجرين أنفسهم ما زالت أقدامهم في هذا المكان غير ثابتة ثباتًا يكفيهم إلى تحمل تبعات آثار قرار إجلاء اليهود، لو فكر نبيهم ﷺ في اتخاذ مثل هذا القرار.

لقد حملت كلمات اليهود النبي ﷺ إلى أن يفكر في هذا كله، وانتهى النبي ﷺ من التفكير إلى أنه قد رأى أن هذه الأمور كلها يمكن التعامل معها تعامل القائد الحصيف مع الشدة التي تواجهه، حين

يكون بصدد اتخاذ قرار مصيري حاسم، لكن الذي ضايق النبي ﷺ هو هذه الخليقة التي علمها من اليهود، وتأبى خلائق شخصيته التعامل معها بما يكافئها، وهذه الخليقة من خلائق اليهود هي أنهم لا يتورعون عن الخيانة، أن يصطنعوا لها أساليبها، وأن يمدوا لها أسبابها، وأن يتخذوها لهم منهجًا من غير أن يخجلهم التاريخ، ومن غير أن يلتفتوا إلى لوم اللائمين.

وعند هذا الحد من التفكير وجد النبي ﷺ نفسه يخشى ما يمارسه اليهود ضده من الخيانة؛ لأنه أسلوب رخيص مبتذل، لا يستطيع هو أن يصطنع معهم أسلوبًا يكافئه، إذ الخلائق الإنسانية والنبوية فيه تأبى عليه أن يترخص أو يتبذل.

أمور كثيرة تدعونا إلى الاعتقاد أن النبي ﷺ لم يكن يفكر في أول الأمر في إجلاء بني النضير عن الأرض التي اغتصبوها، وعن الوطن الذي احتلوه». [رسالة من النبي ﷺ لحبيشي ٧٩-٨٢].

٢ ـ أثر القائد الأناني على قومه:

يقول د/ أبو فارس: «لقد كان حيي بن أخطب قائدًا مغرورًا من قادة بني النضير، وحَبْرًا من أحبارهم، حاسدًا لرسول الله ﷺ النبوة والرسالة رغم معرفته بالحقيقة، قد منعه حسده الشنيع وحقده اللئيم الأسود عن طلب السعادة لقومه، وهو يعرف طريقها، بل أوردهم موارد الهلاك، وما أجمل قول القائل فيه: **يا حيي، أنت رجل مشؤوم تهلك بني النضير**.

أقول: ليس حيي بن أخطب فحسب هو الذي أورد قومه موارد الهلاك، وإنما كل قائد يتحلى بأخلاق حيي وصفاته من العجب والغرور والأنانية والاستبداد يقود شعبه إلى ذل الهزيمة وعارها.

والمسلمون اليوم بحاجة إلى القيادة الحكيمة الرشيدة المتواضعة المتصفة بالإقدام والشجاعة والإيثار، تستشير ولا تستبد بالرأي، وتفتح باب الحرية لكل صاحب رأي». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٥].

٣ ـ براعة القيادة السياسية:

يقول أ/ باشميل: «وعندما غادر النبي ﷺ ديار بني النضير لم يترك هؤلاء اليهود يشعرون بمغادرته تلك الديار حيث أوهمهم عندما تحرك من مكانه بأنه ذاهب لقضاء حاجته.

ويظهر أنه ﷺ قد قدر أسوأ الاحتمالات، وهو أن اليهود وقد قرروا التخلص منه عن طريق الاغتيال في ديارهم لا يستبعد أن يغتنموا فرصة وجوده منفردًا في ديارهم مع قلة من أصحابه كلهم غير متسلح فيطوقوهم إذا ما علموا بأن النبي ﷺ اكتشف المؤامرة، ثم يستعجلوا الفتك بالنبي ﷺ قبل أن يتمكن من العودة سالمًا إلى المدينة؛ ولهذا فإنه ﷺ عندما تحرك من مكانه في ظل الحائط أوهم اليهود بأنه لا يعتزم مغادرة ديارهم وإنما هو ذاهب لقضاء حاجته؛ وبهذا فوت على هؤلاء اليهود فرصة قد تكون من أثمن فرصهم للقضاء عليه». [غزوة الأحزاب لباشميل ٥٠-٥١].

ويقول د/ أبو فارس: «إن انسحاب رسول الله ﷺ دون أن يُشعر بني النضير وأصحابه بما اتفق عليه بنو النضير فيه حِكمة، ذلك لو أخبرهم رسول الله ﷺ وهو في دارهم وبين أظهرهم، ربما سوَّل لهم الشيطان وسوَّلت لهم نفوسهم الاعتداء عليه وعلى أصحابه الذين معه، خاصة وأن اليهود كثرة والمسلمين قلة، مما يُغري اليهود بهم وبالاعتداء عليهم». [الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٧٢].

٤ ـ أهمية تمتع القيادة بالوعي والذكاء:

كان كاتب سر النبي ﷺ إلى حين إجلاء بني النضير عن المدينة، من اليهود؛ ليتسنى له أن يبعث من الرسائل بالعبرية والسريانية ما يريده، فلما جلا اليهود خاف النبي ﷺ أن يستعمل في أسراره غير مسلم، فأمر فتعلم زيد بن ثابت ﷺ من شبان المدينة المسلمين اللغتين المذكورتين، وأصبح كاتب سر النبي ﷺ في كل شؤونه. [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٢٢].

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ كِتَابَ اليَهُودِ، حَتَّى كَتَبْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ كُتُبَهُ، وَأَقْرَأْتُهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ. [البخاري في الأحكام باب ترجمة الحكام (أي الترجمة لهم) وهل يجوز ترجمان واحد، تعليقًا].

وعَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ أَنَّ أَبَاهُ زَيْدًا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ لَـمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ قَالَ زَيْدٌ: ذُهِبَ بِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأُعْجِبَ بِي، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله! هَذَا غُلَامٌ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ مَعَهُ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ بِضْعَ عَشْرَةَ سُورَةً، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ: «**يَا زَيْدُ! تَعَلَّمْ لِي كِتَابَ يَهُودَ؛ فَإِنِّي وَالله مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**»، قَالَ زَيْدٌ: فَتَعَلَّمْتُ كِتَابَهُمْ، مَا مَرَّتْ بِي خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً حَتَّى حَذَقْتُهُ، وَكُنْتُ أَقْرَأُ لَهُ كُتُبَهُمْ إِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ، وَأُجِيبُ عَنْهُ إِذَا كَتَبَ.

[مسند أحمد عن زيد بن ثابت ﷺ (٢١٦١٨)، وقال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن من أجل عبد الرحمن].

وفي رواية: عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، قَالَ: «**إِنِّي وَالله مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**»، قَالَ: فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُهُ لَهُ [حَذَقْتُهُ]، قَالَ: فَلَـمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ.

[أبو داود في العلم (٣٦٤٥)، والترمذي في الاستئذان والآداب (٢٧١٥)، قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَقَدْ رُوِيَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الوَجْهِ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ، رَوَاهُ الأَعْمَشُ عَنْ ثَابِتِ بْنِ عُبَيْدٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ السُّرْيَانِيَّةَ. وقال الشيخ الألباني عنهما: حسن صحيح].

يقول د/ أبو شهبة: «وهذا ذكاء مفرط، وقوة حافظة، ومن لوازم تعلم الكتابة تعلم اللسان، وقد ثبت أنه ﷺ كان يعرف السريانية والعبرانية، وقد كان ﷺ ممن حفظ القرآن كله على عهد رسول الله ﷺ، ومن أشهر كُتَّاب الوحي بين يديه، وهو الذي تولى كتابة القرآن وحده في الصحف في عهد الصدِّيق ﷺ، وكان أحد كاتبي المصاحف في عهد عثمان ﷺ.

وأَمْرُ رسولِ الله ﷺ زيدًا ﷺ بتعلم لغة اليهود وكتابتهم يدل على أن الإسلام يحبب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم، ويتعرف على علومهم ومعارفهم ولا سيما إذا دعت لذلك ضرورة».

[السيرة النبوية لأبي شهبة ٢/ ٢٤٩].

٥ ـ بَيَانُ مُشْكِلِ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَمْرِهِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ أَنْ يَتَعَلَّمَ السُّرْيَانِيَّةَ وَقَوْلِهِ مَعَ ذَلِكَ: «إِنِّي لا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كُتُبِي»:

قال الإمام الطحاوي: «حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَرْزُوقٍ قَالَ: ثنا أَبُو الوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ (ح)، وَثَنَا فَهْدُ ابْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: ثنا عَلِيُّ بْنُ مَعْبَدٍ قَالَا: ثنا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الحَمِيدِ، عَنْ الأَعْمَشِ، عَنْ ثَابِتِ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ﷺ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**أَتُحْسِنُ السُّرْيَانِيَّةَ؟ إِنَّهُ لَيَأْتِينِي كُتُبٌ**»، قَالَ: قُلْتُ: لَا، قَالَ: «**فَتَعَلَّمْهَا**»، قَالَ: فَتَعَلَّمْتهَا فِي سَبْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا».

حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي دَاوُد قَالَ: ثَنَا خَلَفُ بْنُ هِشَامٍ البَزَّارُ قَالَ: ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كِتَابَ يَهُودَ، فَمَا مَرَّ بِي نِصْفُ شَهْرٍ حَتَّى تَعَلَّمْتُ، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنِّي مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي**»، فَلَمَّا تَعَلَّمْتُ لَهُ كُنْتُ أَكْتُبُ إِلَى يَهُودَ إِذَا كَتَبَ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْت لَهُ كِتَابَهُمْ.

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: فَتَأَمَّلنَا هَذَا الحَدِيثَ فَوَجَدْنَا مَا كَانَ يَرِدُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ كُتُبِ يَهُودَ بِالسُّرْيَانِيَّةِ، إِنَّمَا كَانَ يَقْرَؤُهُ لَهُ اليَهُودُ الَّذِينَ كَانُوا يَحْضُرُونَهُ، وَهُمْ غَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى كِتْمَانِهِ بَعْضَ مَا فِيهِ، وَغَيْرُ مَأْمُونِينَ عَلَى تَحْرِيفِ مَا فِيهِ إِلَى مَا يُرِيدُونَ، وَكَانَ مَا يَنْفُذُ مِنْ كُتُبِهِ إِلَى اليَهُودِ جَوَابًا لِكُتُبِهِمْ لَهُ بِالعَرَبِيَّةِ، فَتَحْتَاجُ اليَهُودُ الوَارِدَةُ عَلَيْهِمْ إِلَى مَنْ يُحْسِنُ العَرَبِيَّةَ لِيَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ، إِذْ كَانُوا لَا يُحْسِنُونَ العَرَبِيَّةَ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يُحَرِّفَ مَا فِي كُتُبِهِ إِلَيْهِمْ إِلَى مَا يُرِيدُ، لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مَا لَا خَفَاءَ بِهِ، وَفِي قُلُوبِهِمْ عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ مَا فِيهَا، فَأَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ زَيْدًا ﷺ أَنْ يَتَعَلَّمَ لَهُ السُّرْيَانِيَّةَ لِيَقْرَأَ كُتُبَهُمْ إِذَا وَرَدَتْ عَلَيْهِ قِرَاءَةٌ، فَيَأْمَنَ بِهَا كِتْمَانَ مَا فِيهَا، وَيَأْمَنَ بِهَا تَحْرِيفَ مَا فِيهَا، وَيَكُونَ كِتَابُهُ ﷺ إِذَا وَرَدَ عَلَى اليَهُودِ وَرَدَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ يَقْرَؤُهُ عَامَّتُهُمْ يَأْمَنُ فِيهِ مِنْ كِتْمَانِ بَعْضِ مَا فِيهِ وَمِنْ تَحْرِيفِ مَا فِيهِ إِلَى غَيْرِ مَا كَتَبَ بِهِ، فَهَذَا وَجْهُ هَذَا الحَدِيثِ عِنْدَنَا. وَاللهَ سُبْحَانَهُ نَسْأَلُهُ التَّوْفِيقَ».

[تحفة الأخيار بترتيب شرح مشكل الآثار للطحاوي ٧/ ٤٦٩-٤٧٠].

المطلب السابع
الدروس العسكرية

١ ـ خطأ الجندي يصلحه القائد:

يقول د/ حبيشي: «إن الله ﷻ إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه، ومهد له طرقه وساق إليه الإرادات، ووجه إليه الأشواق والرغبات.

وها هي وقائع التاريخ تتحدث عن نفسها: فبينما النبي ﷺ يفكر في أحواله وأحوال أصحابه، وتعالي اليهود عليه وعليهم في الحديث والسلوك، وإذا بحدث من الأحداث يقع فينذر بباب جديد يفتح من الانشغالات ربما يستولي على حيز من فكر النبي ﷺ ليس بالهين، وبيان ذلك، أن جمهرة من المؤرخين وكُتاب السير منهم، ابن إسحاق، وابن عمر، وابن سعد، وابن عائذ وكثرة غيرهم من أهل المغازي قد ذهبوا إلى أن: «عمرو بن أمية الضمري ﷺ أقبل من بئر معونة حتى إذا كان بقناة لقي رجلين من بني عامر بن صعصعة، قد كان النبي ﷺ وادعهما، فنسبهما فانتسبا، فقال (من القيلولة) معهما حتى إذا ناما وثب عليهما فقتلهما، ثم خرج حتى ورد على رسول الله ﷺ في قدر حلب شاة، فأخبره خبرهما، فقال رسول الله ﷺ: «**بئس ما صنعت، قد كان لهم منا أمان وعهد**»، فقال: ما شعرت، كنت أراهما على شركهما، وكان قومهما قد نالوا منا ما نالوا من الغدر بنا، وجاء بسلبهما، فأمر رسول الله ﷺ بسلبهما فعزل، حتى يبعث به مع ديتهما». [سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٥٢].

والتاريخ الثبت يحدثنا أن بني عامر بن صعصعة كان بينهم وبين يهود بني النضير عهد وموادعة.

وحين وقعت هذه الحادثة من عمرو ﷺ رأى النبي ﷺ أن عمرو ﷺ قد باشر أمرًا يخالف به ـ قاصدًا أو غير قاصد ـ ما كان النبي ﷺ قد عاهد عليه الرجلين.

والقتل الخطأ له في شريعة النبي ﷺ وفي عوائد العرب ما يحكمه من النظام.

فتحفَّظ النبي ﷺ سلبهما وهو أمتعتهما وسلاحهما ليرسل به مع الدية التي يودي بها الرجلين.

وما كان عند النبي ﷺ من السعة ما يجعله يخف سريعًا إلى أن يرسل بالمال إلى أهل القتيلين، ففكر مليًّا ووقع اختياره على يهود بني النضير يقترض منهم مالًا يكفي لدفع دية الرجلين.

والذي دفع النبي ﷺ إلى ذلك ـ فيما أرى ـ أمور منها:

١ ـ أن اليهود هم أكثر سكان أهل المدينة ثراء وأوفرهم مالًا.

٢ ـ وأن اليهود قد دخلوا مع النبي ﷺ في معاهدة سلام التزم فيها الجميع بأمن الوطن يحافظون عليه، وأرض الوطن يمنعونها من أن ينتقصها أحد من أطرافها، فضلًا عن أن يغزوها لينال من أهلها بالأذى، وينتهب خيراتها.

٣ ـ وقبل هذا كله ومع هذا كله محاولة النبي ﷺ إيضاح الأمر لليهود بالقدر الذي يرضي خاطرهم، فهم حلفاء بني عامر بن صعصعة كما علمت، ولا بأس بعد أن اتضح الأمر بين يدي اليهود أن يكونوا سفراء له عند حلفائهم فيشرحون الخطأ، ويبينون عن الزلل الذي وقع فيه عمرو بن أمية ﷺ عن غير وعي منه بما بين النبي ﷺ وبين الرجلين من عهد.

هكذا فيما أرى فكر النبي ﷺ في الأمر.

وهكذا فيما أرى عقد النبي ﷺ العزم على أن ينفذ ما توصل إليه من نتائج بفكره الصائب».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ٨٦-٨٨].

٢ ـ حسن تصرف القيادة مع تطور الأحداث (ما أغنى عنهم كيدهم):

يقول أ/ فتح الباب: «ورفض يهود بني النضير عرض ابن أبي وانتهى بهم الرأي إلى الأخذ بمشورة كبيرهم حيي بن أخطب، وهو عدم الخروج من المدينة مخالفة لأمر النبي ﷺ وتحديًا له، ووضعوا هذا الرأي موضع التنفيذ، فالتزموا حصونهم بعد أن أعدوا بها ما يكفيهم من الماء والطعام ردحًا من الزمن، وظلوا كذلك عشرة أيام لا يغادرونها، فما كان من المسلمين إلا أن ساروا إليهم مدججين بالسلاح، فقاتلوهم عشرين ليلة وهم محصنون في بيوتهم، ولم يكن ثمة بديل من القضاء عليهم أو إجلائهم، هنالك أصدر النبي ﷺ أمره بقطع نخيلهم وحرقه لإكراههم على التسليم، فليس أشد وقعًا عليهم من رؤيتهم أموالهم تذروها الرياح، وهم أشد الناس حرصًا على متاع الحياة الدنيا، وتضحية في سبيله بقيم الشجاعة والشرف، وهم قد لاذوا بحصونهم رافضين الجلاء تعلقًا بهذه الأموال، فالآن لا يغنيهم إصرارهم شيئًا بعد أن يأتي المسلمون على نخيلهم.

ونجح تدبير الرسول ﷺ إذ خارت عزائمهم وأدركهم الجزع فصرخوا يعلنون استسلامهم في مقابل الإبقاء على زرعهم منادين النبي ﷺ بأنه كان ينهى عن الفساد ويعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾[الحشر] ردًّا مفحمًا لليهود فيما زعموا من فساد عمل الجند حين قطعوا زروعهم».

[القيم الخلقية والإنسانية في الغزوات لفتح الباب ٢٢٠-٢٢١].

٣ ـ التدريب على قتال المدن والشوارع:

يقول ل/ خطاب: «نقل بنو النضير الحجارة إلى الشوارع، وجعلوا منها متاريس للقتال وراءها، كما دافعوا عن الشوارع والدور دفاعًا مستميتًا.

وقام المسلمون بتطهير الشوارع والدور والانتقال من شارع إلى آخر ومن دار إلى أخرى، حتى ضيقوا الحصار على يهود، وأجبروهم على الاستسلام.

إن قتال المدن والشوارع سهلٌ على المدافِع؛ لأنه يعرف الطرقات ومداخل البيوت ومخارجها، كما أن الشوارع والدور تقدم حماية للمدافعين؛ لذلك فإن مهمة قتال المدن والشوارع ليست سهلة على المهاجِم وتحتاج إلى قيادة مسيطرة وضبط متين وتدريب جيد.

إن نجاح المسلمين في قتال المدن والشوارع ضد يهود، يدل بوضوح على أن مستوى قيادتهم وضبطهم وتدريبهم كان رفيعًا جدًّا». [الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢١٨].

٤ ـ سقوط الحصون التي لا تقهر أمام الإرادة القوية:

وينطلق جيش رسول الله ﷺ فور سماعه لنقض العهد إلى ديار بني النضير، فما أن وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ في الصباح حتى نهض إليهم فصلى العصر في فضاء بني النضير، وبني له قبة أمام حصونهم التي لم يكونوا يتخيلون أن يقهرها رسول الله ﷺ ولا أن ينـزلوا منها، ولا كان المسلمون ـ أنفسهم ـ يتخيلون هذا الأمر يأتي بهذه السهولة.

وما أشبه الليلة بالبارحة فقد كان يهود اليوم يزعمون أن خط بارليف لا يُقهر، ولكن الله زلزله تحت صيحات الله أكبر بسم الله في العاشر من رمضان.

وما ذلك إلا لأن الله هو الذي يتولى نصر المؤمنين ويقذف الرعب في قلوب الكافرين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾ [الحشر].

حقًّا يأتيهم الله من داخل نفوسهم فيرعبهم من المؤمنين الصادقين فينزلون من حصونهم ويخرجون منها، وليس ذلك فقط بل ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وكأن الله كان يعنينا منذ أربعة عشر قرنًا وهو يقول: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢﴾.

اعتبروا بهذه المواقف التي يزلزل الله فيها أركان اليهود، ولكن بشرط أن يكون المسلمون تحت رايته ﷻ، ورواية رسوله ﷺ لا تحت رايات كافرة: من الشيوعية تارة، والرأسمالية تارة، والعلمانية تارة... إلخ، فلن ينصرهم الله إلا إذا كانوا تحت الراية الإسلامية.

يقول د/ آل عابد: «إن المتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن الله هو الذي أخرج يهود بني النضير من ديارهم إلى الشام، حيث أول حشرهم، في حين أن كل الأسباب المادية معهم حتى اعتقدوا أنه لا أحد يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لقوتها ومنعتها.

لكن الله خالق الأسباب والمسببات جاءهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم التي لم يتوقعوا أنهم يهزمون بها، فقذف فيها الرعب فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين.

وفي هذا الإخراج عِبر وعظات فليعتبر أولو الأفهام بما حل بهؤلاء اليهود، وبهذه الآية الكريمة بدأ الحديث عن غزوة بني النضير التي سجلها القرآن الكريم بطريقته الفريدة، حيث تكون بها تربية بالأحداث والوقائع، تختلف تمامًا عن طريقة أهل السير، وتمتاز بأنها تكشف الحقائق وتوضح الخفايا، ويربط كل الأحداث بفاعلها الحقيقي وهو الله رب العالمين، ومن ذلك أنها بينت أن الذي أخرج بني النضير هو الله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾.

إن يهود بني النضير حَسَبوا كل شيء وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضية، لكن جاءتهم الهزيمة من مكان اطمأنوا إليه وهو أنفسهم، فإذا الرعب يأتيهم من داخلهم، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظة؛ لذلك يجب على كل إنسان عاقل أن يعتبر بهذه الغزوة، وأن يعرف أن الله هو المتصرف في الأمور، وأنه لا تقف أمام قدرته العظيمة لا الأسباب ولا المسببات، فهو القادر على كل شيء، فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ويصلحوا أمرهم، فإذا اتبعوا أمر الله أصلح الله لهم كل شيء، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

وتسجيل القرآن الكريم للغزوة وما فيها من عبر جليلة تجعلها درسًا للأمة الإسلامية في جميع عصورها، تذكرهم أن طريق النصر قريب، وهو الرجوع إلى الله ﷻ والاعتماد عليه والتسليم لشريعته، وتقديره حق قدره، فإذا عرف ذلك المؤمنون نصرهم الله ولو كان عدوهم قويًّا وكثيرًا، فإن الله لا يُعجزه شيء، وأقرب شاهد واقعي لذلك هو إجلاء بني النضير، وهي عبرة فليُعتبر بها، والسعيد من اعتبر بغيره». [حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ لآل عابد ١/ ٢٧٠-٢٧١].

ولابد أن يعلم كل مسلم أن الغرب والشرق من الكافرين والمشركين لا يخشون شيئًا إلا عودة الإسلام إلى أرض الواقع قولًا وعملًا، فهو الآن عدوهم الأول الذي اجتمعوا على حربه وإبادة أهله، ولن ينصرنا الله عليهم إلا إذا اعتبرنا بأحداث الصراع مع أجدادهم، ولن ينصرنا الله عليهم كما نصر أجدادنا إلا إذا كنا على عقيدتهم وبراءتهم من الكافرين والمنافقين.

٥ ـ مراقبة العدو في تحركاته:

يقول د/ أبو فارس: «إن الدارس لأحداث غزوة بني النضير يجد أن المسلمين كانوا لعدوهم بالمرصاد، يحصون كل حركة له وسكنة، أُخذ هذا من قتل عزوك اليهودي، إذ نصبوا له كمينًا في نفر من اليهود، وقد خرج هو ليصيب ساعة غرة من المسلمين فقبض عليه المسلمون وقتلوه».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨١].

٦ ـ تفقد أحوال الجيش والأفراد المقاتلين:

يقول د/ أبو فارس: «ونلاحظ أن المسلمين كانوا يتعارفون فيما بينهم، ويتساءلون عن أحوالهم، وعن إخوانهم فإذا ما تأخر جندي أو غاب وافتقدوه سألوا عنه، ولا تطمئن لهم قلوب إلا بعد معرفة كل شيء عنه.

ويؤخذ من هذا أمران:

الأمر الأول: لم يكن تصرف علي بن أبي طالب ﷺ مع نفر من الصحابة في نصب كمين لعزوك اليهودي تصرفًا ارتجاليًّا، وإنما كان بأمر عسكري من القائد الأعلى رسول الله ﷺ، فليس لأي واحد في الجيش أن يقوم بأي تصرف من التصرفات في المعركة إلا بعلم من القائد وموافقته، هذا هو الضبط العسكري، وهكذا ينبغي أن يكون الانضباط.

الأمر الثاني: إن لجوء المسلمين إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن أخبار علي بن أبي طالب ﷺ حين افتقدوه يدل على أن القائد ينبغي أن يُعاد إليه دون سواه في أخذ الأخبار الصحيحة والتعليمات، كما يدل على أنه مصدر المعلومات الموثقة، وعنده آخر التطورات والأخبار التي قد تخفى على كثير من العسكريين، فهو أعلم الناس بتحركات الجند والأمراء، بل ربما كلفهم بمهمة عسكرية، وهو أقدر الناس على الإجابة بما يحقق المصلحة العامة، وفق الظروف الواقعة، والأحداث الجارية».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨١-١٨٢].

٧ ـ تعلم القادة من خطة النبي ﷺ في إضعاف المقاومة اليهودية:

يحاصر رسول الله ﷺ حصون بني النضير ويرسم الخطة الناجحة في قتالهم وهي الخطة الصالحة للنصر إلى اليوم، وكأنها رسالة من رسول الله ﷺ إلى أمته في القرن الواحد والعشرين يعلمنا فيها كيفية معاملة أحفاد القردة والخنازير في كل عصر ومصر، فقد كانت خطة رسول الله ﷺ تعتمد على ركنين أساسيين:

أ ـ العمليات الفدائية.

ب ـ الحرب الاقتصادية.

أ ـ العمليات الفدائية: أما عن الأولى فنرى المسلمين في هذه الغزوة يفتقدون علي بن أبي طالب ﷺ من بينهم فيسألون رسول الله ﷺ عنه فيقول: **إنه في بعض شأنكم**، وما هي إلا دقائق يسيرة حتى يأتي الإمام علي ﷺ من عملية فدائية، وهو أحق الناس دائمًا بالقيام بالعمليات الفدائية، فهو ﷺ أول فدائي في الإسلام، يأتي الإمام علي ﷺ برأس رئيس فرقة الرماة من اليهود ويدعى «عَزْوَكُ»، وكان «عَزْوَكُ» في عشرة من اليهود خرجوا لاغتيال رسول الله ﷺ ليلًا فقتله علي ﷺ وفَرَّ بقية أصحابه، ولكن رسول الله ﷺ أرسل جمعًا من صحابته إلى هؤلاء اليهود العشرة فقتلوهم وألقوا برؤوسهم في الآبار.

إن رسول الله ﷺ يَعلمُ جبن اليهود وخوفهم وهلعهم من الموت؛ ولذلك اتخذ هذا الأسلوب ليقذف الرعب في قلوب اليهود، وهو ما يحدث الآن على أرض فلسطين من الرعب من العمليات الاستشهادية التي يخشاها اليهود في فلسطين أكثر من خشيتهم من الجيوش العربية مجتمعة.

ولقد كان رسول الله ﷺ هو قدوة المسلمين في إقرار هذه الحركات الفدائية التي نراها اليوم على أرض الأقصى المغتصب، وندعو الله أن تكون بداية النصر، وألا يستطيع أحد من أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين وقفها؛ لأنها أولى الأركان الأساسية في حرب رسول الله ﷺ لبني النضير.

ب ـ الحرب الاقتصادية: المقاطعة والخسائر الاقتصادية: أما الركن الثاني في حربه ﷺ لهم فهو الحرب الاقتصادية، فالرسول ﷺ يعلم حب اليهود للمال وحرصهم عليه أكثر من دينهم وأعراضهم وكل شيء في هذه الحياة؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقطع بعض نخيل بني النضير حتى تعم الحسرة قلوبهم على هذه الأموال ويَفُتُّ في عضدهم وخاصة بعد تخلي المنافقين عنهم وتخلي بني قريظة عن إمدادهم ونصرتهم.

وقد آتت هذه الحرب الاقتصادية من رسول الله ﷺ أكلها بأن أوهنت وزعزعت قوى اليهود داخل حصونهم، وأدت إلى تسليمهم والرضوخ لأمر رسول الله ﷺ بالجلاء.

واليوم المسلمون مطالبون بأن يقتدوا برسول الله ﷺ في هذه الحرب الاقتصادية ضد اليهود وأعوان اليهود، فقد أفتى علماء المسلمين بحرمة شراء المنتجات اليهودية والأمريكية طالما أن هناك بديلًا لها من منتجات دول المسلمين، وحين نقول ذلك لا نستهين بأمر بسيط وهو مقاطعة المشروبات الغازية اليهودية، فيكفي أن تعلم أن كلمة «**بيبسي**» هي اختصار لجملة إنجليزية معناها «**ادفع ستًّا لتقيم دولة إسرائيل**».

ولا تتخيل أخي المسلم تأثير هذه المقاطعة على اقتصاد اليهود وأعوان اليهود إذا أخذها المسلمون مأخذ الجد، واقتدوا برسول الله ﷺ في حربه الاقتصادية لليهود؛ ولأنه يعلم مدى حبهم وحرصهم على المال بنصوص القرآن الكريم وشواهد تاريخ هؤلاء الملاعين.

وقد أفردنا المبحث الثالث لهذه المسألة بالتفصيل.

هذان هما الركنان الأساسيان في حرب رسول الله ﷺ لهؤلاء اليهود:

أ ـ الحركات الفدائية التي تثير الذعر والرعب في صفوف اليهود.

ب ـ والحرب الاقتصادية التي توهن عزائمهم وتفت في عضدهم.

ويقول د/ حبيشي: «رأى النبي ﷺ أن اليهود قد تحصنوا بحصونهم، وأنهم من وراء هذه الحصون التي تحصنوا بها، قد يتمكنون من رمي المسلمين وإحداث نسبة هائلة من الخسائر فيهم، وأن الحرب النظامية مع هذه الظروف حروب خاسرة، وانتهى القائد العظيم إلى خطة من نقطتين:

إحداهما: أن النبي ﷺ قد رأى أنه لابد من المقاومة الفردية التي تعتمد على التسلل واختراق صفوف العدو، وإحداث الخسائر في جنوده، والحصول على بعض أسلحته، وهذا الجزء من الخطة يُحدث الرعب في صفوف اليهود ويُعجِّل بالنصر والاستسلام.

ولقد بنى النبي ﷺ هذا الجزء من خطته على تصوره، بل علمه بالجانب السيكولوجي أو النفسي من شخصية اليهود، إذ اليهودي في كل عصر يكون خفيف القلب ضعيف الإرادة، لا يخف إلى إقدام، ولا يجد ما يدعوه إلى المخاطرة.

وهذا الجانب من شخصية اليهود قد علمه النبي ﷺ من تاريخ اليهود أنفسهم، ومن معايشتهم على أرض الواقع، ومن القرآن الكريم الذي أبرز له هذا الجانب من شخصية القوم، حين خاطبه في أكثر من موضع بهذا المعنى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[البقرة].

وهذا الجزء من الخطة التي قرر النبي ﷺ اصطناعها، يحتاج إلى قدر كبير من المخاطرة بالنفس، والنبي ﷺ كعادته دائمًا حين يحسب الموقف ويجد فيه كثيرًا من المخاطرة، فإنه إما أن يباشره بنفسه، أو يبدأ بأقرب الناس إليه.

وفيما نحن فيه اختار النبي ﷺ أحد أهل بيته ليقوم بأول هذه المهمات، ولكن في سِرِّيَّة مطلقة لا يكاد معها يَعرف بالأمر إلا من عهد إليه بتنفيذه، والقائد الذي كلفه والله من ورائهم محيط، وما ذلك إلا للحد من نسبة الخسائر المحتملة، وهو مطلب يطلبه كل قائد حريص على جنوده، مبق على رجاله، وهو هدف يحرص عليه كل رجل يقوم بعملية في صفوف العدو للإبقاء على نفسه وإخوانه للقيام بعمليات أخرى، فإن لم يرد الله مع هذه الحيطة إلا الاستشهاد، كان الاستشهاد عنده مطلبًا عزيزًا، وحياة في الدار الآخرة لا يعقبها فناء.

حرص النبي ﷺ أن يكون أول خارج لتنفيذ هذا الجزء من الخطة التي ارتآها النبي ﷺ ليتفادى بها الحرب النظامية أعز رجل عليه من أهل بيته، وهو علي ﷺ كما رأينا.

وفي الطلعة الثانية أرسل النبي ﷺ مع علي ﷺ أبا دجانة وسهل بن حنيف ﷺ في عشرة من أصحابه ﷺ، فأدركوا اليهود الذين فروا من علي ﷺ، فقتلوهم وطرحت رؤوسهم في بعض البئار.

واستمر النبي ﷺ على هذا الجزء من الخطة يتابعه ليلة بعد ليلة حتى أتى بثماره من صد هجمات العدو عنه وتتبعهم له ولأصحابه ظانين أنهم يدركونه وينالون منه بهذا الأسلوب.

وثانية النقطتين: في خطة القائد العظيم ترتكز هي الأخرى على جوانب نفسية يعرفها النبي ﷺ من شخصيات اليهود، يعرفها منهم عن طريق معايشتهم، وهو يعرفها منهم عن طريق معرفته بتاريخهم، وهو يعرفها عنهم عن طريق الوحي.

وهذه النقطة الثانية في هذه الخطة للقائد العظيم ﷺ تدور كلها حول المال وتعلُّق اليهود به.

ويهود بني النضير كانوا زراعيين يزرعون النخيل والكروم، ويجنون ثمارها.

ولو أراد النبي ﷺ أن يفت في عضد المحاربين، ويوهن من عزائمهم من غير إحداث كبير خسائر في أفراده أو أفراد العدو، فما عليه إلا أن يُشعرهم بأن أصول اقتصادهم تحت يده، إن شاء تركها، وإن شاء نال منها.

وهذا التصور الذي تصوره النبي ﷺ صحيح إلى حد كبير، بل هو صحيح بجميع المقاييس، إذ القاعدة الأساسية التي قام عليها هذا التصور قد أثبتها التاريخ على مدار السنين وفي خضم الأحداث.

ولم يتردد النبي ﷺ في مباشرته لهذه الجزئية من خطته، كي تؤتي ثمارها مع الجزئية السابقة عليها، وتكتمل الخطة من هذين الجزأين جميعًا.

أصدر النبي ﷺ تعليماته إلى رجاله أن ينالوا من ثمار النخيل شيئًا ما؛ بقصد إحداث الألم في قلوب اليهود، وقد فعل المسلمون ذلك في عدة طلعات مختلفة أتت بثمارها السريعة، وكان لها ردود فعل مختلفة، وردود الفعل تلك تتلخص في نقطتين:

النقطة الأولى: أن اليهود قد رأوا فيما فعله النبي ﷺ فرصة متاحة يمكن استغلالها في شق صفوف الوحدة حول النبي ﷺ عمليًّا وفكريًّا، فأشاعوا أن النبي ﷺ متناقض مع نفسه فأقواله تخالف أفعاله (وحاشاه)، ذلك أنه ينهى عن الإفساد والفساد وهو الآن يأمر بتقطيع النخيل، أو إتلاف بعض ثمارها.

واستجاب بعض المسلمين لهذه الشائعات، وهم وإن كانوا لا يشكون في تصرفات النبي ﷺ إلا أنهم قد شكوا في تصرفات الرجال الذين قد قاموا بهذه العمليات المتصلة بأصول اقتصاديات اليهود، ولم يفرقوا وهم تحت تأثير الدعاية العالية بين عمل يقصد لذاته، وآخر يكون القصد منه هو التأثير على مجريات الأحداث في الحروب حقنًا للدماء من الفريقين، خاصة دماء المدنيين من غير المحاربين كالنساء والأطفال.

ولقد كان الوحي رحيمًا بالمسلمين حيث بيَّن لهم ولليهود الذين يعلمون صدق النبي ﷺ، أن هذا التصرف الذي تصرفه بعض رجال المسلمين كان مصدره الوحي، حيث قال الله ﷻ في سورة نَزلت كلها في يهود بني النضير وفيها قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر].

والنقطة الثانية: من ردود فعل اليهود مترتبة على فشلهم في النقطة الأولى، وهي أن اليهود حين رأوا أن مقاومة المسلمين لهم قد امتدت إلى أصول اقتصادهم، ورأوا مع ذلك أن حلفاءهم قد تخلوا

عنهم، رفعوا رايات الاستسلام، وطلبوا إلى النبي ﷺ أن يجالسهم ليتفاهموا معه».

[رسالة من النبي ﷺ إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود لحبيشي ١٠٨-١١٢].

٨ ـ أموال بني النضير قوة للمسلمين:

يقول أ/ رضوان: «وزع الرسول ﷺ أرض بني النضير وكذلك ما بقي من أموالهم على المهاجرين، فعوضهم الله ـ تعالى ـ على أموالهم التي اغتصبتها منهم قريش في مكة، واستغنوا عن معونة إخوانهم الأنصار، ووزعت الأسلحة التي تركوها على المسلمين، فزادوا قوةً، وكبت الله المنافقين وما بقي من اليهود». [محمد ﷺ القائد الأعظم لرضوان ٨١].

المطلب الثامن

الدروس الدعوية

١ ـ تفاعل الدعاة مع الأحداث:

يقول د/ زيدان: «موضوع الدعوة هو الإسلام بجميع معانيه، والدعاة يدعون إلى الإسلام، أي إلى معانيه كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما استنبطه منهما أهل العلم.

ومن جملة معاني الإسلام ما يتعلق منها بحالة الحرب التي قد تكون فيها الدولة الإسلامية، وللحرب مقتضياتها التي يجب مراعاتها، أو يجوز الأخذ بها تحقيقًا لمصلحة شرعية راجحة أو دفعًا لمفسدة، وإن كان المأخوذ بها في الأحوال العادية لا يجوز الأخذ به، ومن ذلك ما ورد في غزوة بني النضير، وما صدر عن المسلمين من قطع بعض نخيل بني النضير مراعاة لمقتضيات الحرب على النحو الذي بيناه، فعلى الدعاة تبيين هذا المعنى لأولي الأمر في البلاد الإسلامية؛ ولأن القتل وإزهاق النفوس يجوز في الحرب، فما دون ذلك من إتلاف مال العدو جوازه أولى، وإذا كان إتلاف مال يجوز لمقتضيات الحرب ومقتضيات عدائه، فجواز ما دون إتلاف ماله أولى، مثل مقاطعة العدو اقتصاديًّا إذا أمكن، وعدم ترويج سلعه وبضاعته، واستخدام أفراده وأتباعه، على أن يكون ذلك كله موزونًا بميزان الشرع ومحققًا للمصالح الشرعية.

ويمكن أيضًا للجماعة المسلمة ـ جماعة الدعاة ـ حماية لنفسها من أذى أعدائها وأعداء الإسلام، أن تمتنع عما فيه عون لهم اقتصاديًّا أو معنويًّا، فيمتنع أفراد الجماعة المسلمة من شراء بضائع خصوم الدعوة أو مساعدتهم، وترك أنصار الدعوة وأنصار الجماعة المسلمة دون معاونة ومساندة.

فعلى الدعاة تبصير أنفسهم وأعوانهم وعموم المسلمين بهذا المعنى البسيط، وهو الابتعاد عن معاونة ومساندة خصوم الدعوة، ولكن لا يجوز إتلاف مال العدو وتحريقه قياسًا على ما يجوز للدولة الإسلامية فعله مع أعدائها في حالة الحرب؛ لأن هذا قياس مع الفارق؛ ولأن الجماعة الإسلامية إن فعلت ذلك خرجت عن صفتها المميزة وهي جماعة دعاة إسلامية». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٨٩-٢٩٠].

٢ ـ إيثار بعض الدعاة بالعطاء:

يقول د/ زيدان: «ويجوز لجماعة الدعاة أن تؤثر أحد دعاتها أو بعضهم على البعض الآخر في العطاء، أي في الأشياء المادية التي تملكها والمرصدة لأعضائها والدعاة فيها، على أن يكون هذا الإيثار بمبرر شرعي، كما حصل في قسمة أموال بني النضير التي غنمها النبي ﷺ فأعطاها للمهاجرين دون الأنصار إلا اثنين أو ثلاثة منهم لفقرهم، وإنما آثر النبي ﷺ المهاجرين بأموال بني النضير وقسمتها عليهم لحاجتهم وفقرهم.

فعلى الدعاة وأنصار الجماعة المسلمة أن لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا أو سخطًا على الجماعة إذا آثرت بعضهم في العطاء لمبرر شرعي هي تقدره، وعليهم أن يحملوا تصرفها على محمل حسن، ووجود المبرر الشرعي لفعلها، مثل حاجة من آثروه بهذا العطاء، أو أن متطلبات عمله في الدعوة يستلزم هذا العطاء ونحو ذلك». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٩٠-٢٩١].

٣ ـ تحقيق معاني الأخوة والإيثار بين الدعاة:

يقول د/ زيدان: «وعلى الدعاة أن يحرصوا على تحقيق معاني الأخوة الإسلامية ومقتضياتها، ويرتقوا إلى مستوى الإيثار الذي وصل إليه الأنصار في علاقتهم مع المهاجرين، وأن يدعوا المسلمين إلى معاني الأخوة الإسلامية، وتذكيرهم بما كان عليه الصحابة الكرام من هذه المعاني ومن معاني الإيثار، ويروا لهم القصص في الإيثار التي ذكرتها عن الصحابة الكرام.

وعلى هذا فمن غير المقبول من الدعاة أو من أعضاء الجماعة المسلمة، ونحن ندعوهم إلى إقامة هذا المجتمع الإسلامي المتميز فيما بينهم، أقول من غير المقبول أن يقع بينهم حسد أو حقد أو بغض، وإذا وقع شيء من هذه القاذورات في قلوبهم، فعليهم أن يبادروا إلى تطهير قلوبهم منها كما يسارعون إلى تطهير أبدانهم من النجاسة إذا وقعت أو حصلت فيها». [المستفاد لزيدان ٢/ ٢٩٣].

٤ ـ عبرة وعظة لقتلة الدعاة والمصلحين:

يقول د/ أبو فارس: «في مقتل عمرو بن جحاش اليهودي الذي أراد أن يلقي حجرًا على رأس رسول الله ﷺ عبرة لكل معتبر، وعظة لمن أراد أن يتعظ، فالذين يفكرون في الاعتداء على الدعاة والصالحين أو يعتدون عليهم، عليهم أن يفكروا جديًّا في مصيرهم، ويحذروا مغبة هذا الاعتداء والتنكيل، سيبقى شبح الذي قتلوه يلاحقهم في كل لحظة وفي كل مكان.

إن الذين يطاردون الدعاة إلى الله لا خَلاق لهم في الدنيا والآخرة، طبع الله على قلوبهم، قد وضعوا أنفسهم في زمرة اليهود الذين أعمى الحقد على الإسلام أبصارهم وبصائرهم فشقُوا وأشقوا غيرهم، وإن على البشرية أن تأخذ على أيدي هؤلاء المدمرين لها ولأخلاقها ولحياتها».

[الصراع مع اليهود لأبي فارس ١/ ١٨٤].